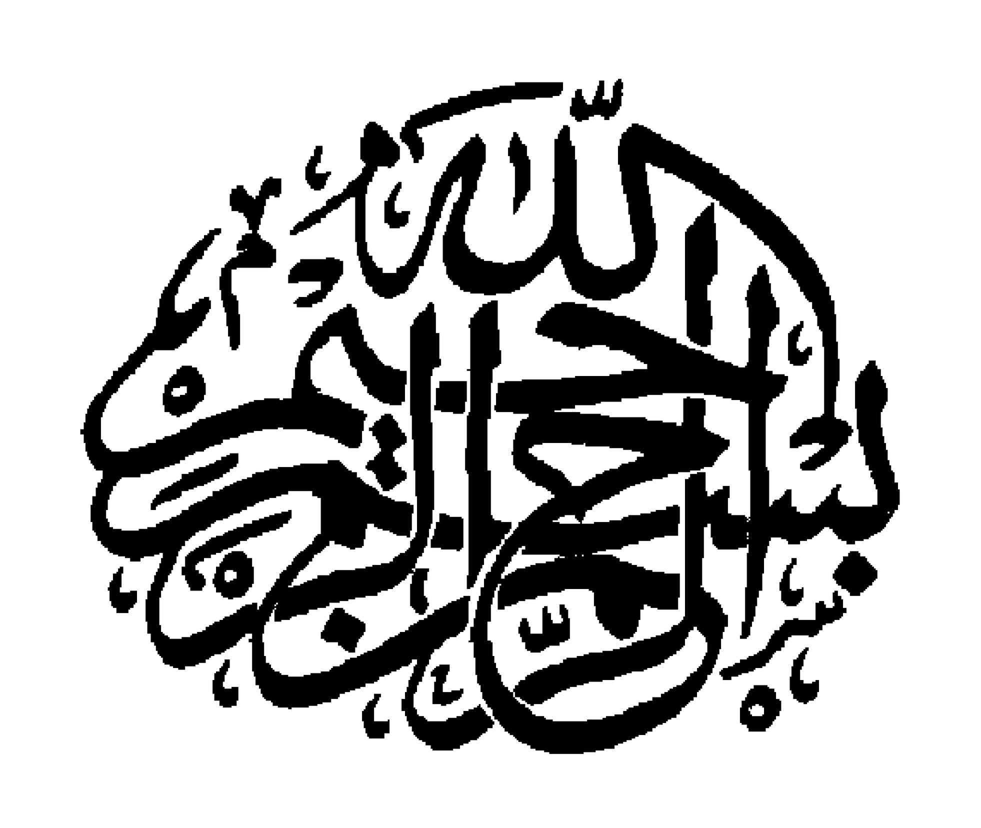
علاقة القرآن الكريم بالكتب الإلهية السابقة

عايدة سليمان ابو حاكمة









علاقة القرآن الكريم
بالكتب الإلهية السابقة

عنوان الكتاب: **علاقة القرآن الكريم بالكتب الإلهية السابقة**

تأليف: **عايدة سليمان ابو حاكمة**

رقم التصنيف: **225**

رقم الايداع لدى دائرة المكتبة الوطنية: **2129/4/2009**

الموضوع الرئيسي: **القرآن // التوراة // الإنجيل**

* أعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية

* يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى

الطبعة الأولى، 2010 - 1430



www.daralfiker.com

المملكة الأردنية الهاشمية - عمّان

ساحة الجامع الحسيني - سوق البتراء - عمارة الحجيري

هاتف: 4621938 6 962+ فاكس: 4654761 6 962+

ص.ب: 183520 عمان 11118 الأردن

بريد الكتروني: info@daralfiker.com

بريد المبيعات: sales@daralfiker.com

ISBN: 978-9957-07-644-3

علاقة القرآن الكريم
بالكتب الإلهية السابقة

عايدة سليمان ابو حاكمة

الطبعة الأولى
1430-2010



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي أنزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

خلق الله الإنسان على هذه الأرض ووكل إليه مهمة العبادة والقيام بواجب الخلافة وإعمار الأرض، ومن رحمة الله تعالى ولطفه وعدله أنه لم يدع هذا الإنسان لذاته يتخبط في ظلمات هذه الحياة يهيم بعقله بين عبادة الوثن وعبادة الحجر بغير هاد ولا مرشد يهديه ويبين له طريق الله القويم، بل أرسل الرسل وأنزل الكتب الإلهية تبين لهذا الإنسان ما يصلحه ويجعله مرشداً مصلحاً لغيره يعمر الأرض بالتوحيد والإيمان والعمل الصالح.

والقرآن الكريم آخر هذه الكتب الإلهية وأكملها وأعظمها، جعله الله سبحانه دستوراً خالداً ومنهجاً متكاملاً للحياة يكفل سعادة البشر في دنياهم وأُخراهم.

وبناءً عليه فإن الكشف عما فيه من تعاليم وتوجيهات وهداية ربانية هو المطمع الأكيد في واقعنا المعاصر للنهوض بواقع هذه الأمة وصلاح حال أفرادها، ولن يتم ذلك إلا باتخاذ القرآن الكريم دستوراً وإماماً يسيرون خلف نصوصه ويهتدون بهداياته.

ومن هنا بدت لي رغبة الاشتغال بكتاب الله تعالى والكشف عن واحد من هداياته المتمثلة في حديثه عن الكتب الإلهية وطبيعة رسالاتها وآثرت أن يكون هذا الكتاب تحت عنوان (علاقة القرآن الكريم بالكتب الإلهية السابقة) كدراسة موضوعية تُظهر هداية القرآن الكريم وموقفه من هذا الموضوع على الرغم من تعدد مفرداته وكثرة تشعباته.

وتهدف الدراسة إلى:

أولاً: الكشف عن واحد من أساليب الهداية القرآنية المتمثل في علاقة القرآن الكريم وارتباطه بما سبق من كتب إلهية، وبيان منهجه في تناوله لهذه القضية وطريقة عرضه لها وموقفه من مفرداتها، والخروج بنظرة شاملة عن الموضوع.

ثانياً: إماطة اللثام عن كثير من المعتقدات والأخطاء الشائعة حول بعض القضايا، وتقديمها بما يظهر أبعادها الحقيقية، وذلك مثل: أ- قضية وجود كتب سماوية الآن غير القرآن الكريم.

ب- إطلاق مصطلح الأديان السماوية على اليهودية والنصرانية الآن.

ج- عبارة «الأصول الصحيحة للنصرانية أو اليهودية».

د- تصديق القرآن لما بين يديه هو تصديق للكتب الحالية.

ثالثاً: أهمية هذه الدراسة وجدارتها للبحث؛ لمساهمتها في تقديم حقائق قرآنية تساهم في إثبات إعجاز القرآن لغير العرب، كما تساهم في تقديم مناهج قرآنية للدعاة المسلمين من خلال عرض نماذج في دعوة أهل الكتاب إلى الإيمان والتصديق، كما تبرز أهمية الدراسة وجدارتها لمحاولتها الربط بين واقع الأمة المعاصر ومدى الانحطاط والهزائم المتوالية التي تحل بهم، وبين غايات وأهداف إنزال الله سبحانه للكتب الإلهية.

رابعاً: إن إفراد هذا الموضوع بدراسة مستقلة يجعل من السهل على سالك هذا الطريق والباحث عنه الرجوع إليه، سيما وأنه لم يحظ بدراسة قرآنية مستقلة -حسب ما بحثت- تجمع فيها مادته، ولم يعط حقه من البيان.

وأن هذه الدراسة تجيب عن العديد من التساؤلات، وفيها كشف للعديد من الاشكاليات منها:

أولا: هل للقرآن الكريم أية مسؤولية ودور يذكر تجاه ما سبقه من الكتب الإلهية (التوراة والإنجيل)، وما هي أبعاد صلته وارتباطه بها على الرغم من انتهاء عهدها،

وعلى الرغم من أنها قد آلت إلى التحريف والتبديل.

ثانياً: الكتب الإلهية الأصلية التي أنزلت على موسى وعيسى عليهما السلام -قد فقدت واختفت معالمها وآثارها، فكيف نتعرف عليها وعلى أبرز معالمها وملامحها الحقيقية، وطبيعة رسالتها والشريعة التي أنيطت بها.

ثالثاً: دين الله تعالى واحد في أصله وشرائعه، فما معنى اختلاف فروع الشرائع وتفاصيل الأحكام بين الكتب الإلهية، وما معنى تعدد الأديان اليوم واختلاف الأمم في عقائدها وشرائعها وقيمها.

رابعاً: لماذا كان القرآن الكريم آخر هذه الكتب الإلهية ومنهياً لمهمتها، وما الذي أهله ليسد مسدها ويغني عن وجودها.

خامساً: ما هي الغايات والأهداف والمقاصد العيا من إنزال الكتب الإلهية (التوراة والإنجيل والقرآن) وهل يمكن فصل النظر في أهداف القرآن ومقاصده العليا عن أهداف ومقاصد ما سبقه من كتب إلهية؟!

التمهيد

خلق الله سبحانه وتعالى مخلوقاته من أجل غاية واحدة، وهي أن يعبدوه وحده لا يشركوا به شيئاً، وليصل بهم -أفراداً وجماعات- إلى درجة الكمال في نفوسهم وانتظام أمورهم وإصلاح شؤونهم الاجتماعية وتعاملهم مع بعضهم البعض، وحفظ ذلك والدوام عليه في مختلف العصور تحقيقاً لسعادتهم في عاجلهم وآجلهم، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] وذلك بوقوفهم عند حدود تكاليف الله وتشريعاته من الأوامر والنواهي التي أمروا وكلفوا بها تنفيذاً وتحقيقاً لمراد الله تعالى من الإنسان بتعمير الأرض وجعله خليفة ومصلحاً فيها[1]، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

ولا ريب أن إنزال الله سبحانه للكتب الإلهية وبيان ما فيها على ألسنة رسله -صلوات الله وسلامه عليهم- قد ارتبط بهذا المقصد الأعلى من خلق الله لمخلوقاته فأعظم غايات الكتب الإلهية وأهداف نزولها على مر العصور، هو دلالتها على منزلها سبحانه والتعريف به، وهداية الخلق إلى الإيمان به، وتعريف الخلق كيف يعبدون الله تعالى وما هو منهج عبادته الذي ارتضاه وأراده، وإرشادهم إلى دوام امتثال أوامره واتقاء مناهيه وزواجره[2]، كما أن هذه الكتب الإلهية فيما تحمله من مناهج وأحكام شرع الله تعالى هي الحكم العدل بين الناس فيما يختلفون ويتنازعون فيه، وهي الميزان العدل لإعطاء كل ذي حق حقه، ووسيلة لانتظام أمور البشر بما احتوت من مناهج

---

(١) انظر: محمد الطاهر ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، د.ط.، دار سحنون للنشر - تونس، ١٩٩٧م، ج٢٧، ص٢٧.

(٢) انظر: برهان الدين بن عمر البقاعي (ت ٨٨٥هـ)، نظم الدرر في تناسب الايات والسور، خرّج أحاديثه ووضع حواشيه: عبد الرزاق غالب المهدي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م، ج٢، ص٧٤٧. محمد متولي الشعراوي، معجزة القرآن، د.ط.، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة، د.ت، ج٢، ص٣٠٥.

ربانية للسير بالإنسان إلى إصلاح وتزكية نفسه وإصلاح أحواله في تعامله مع غيره من البشر[(١)]، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ [الحديد: ٢٥]، وإن الله تعالى قد جعل عقل الإنسان قاصراً في أغلب أحواله، محفوفاً بالشهوات والحظوظ ابتلاءً منه تعالى واختباراً، فجاءت الرسالات والكتب الإلهية داعمة لهذا العقل تقوده لمعرفة الحق وتقوّم قصوره واعوجاجه[(٢)].

إن الرسالة الإلهية التي تحملها الكتب الإلهية المنزلة من عند الله تعالى على مر العصور، هي رسالة واحدة ودعوة واحدة إلى إتباع دين واحد، وإن وحدة المصدر الإلهي لهذه الكتب يقتضي اتفاقها في المضمون الذي تحمله، ويقتضي اتحاد الأصول والأهداف والمقاصد والمرتكزات الأساسية في هذه الكتب، ولا شك أن وحدة المصدر الإلهي يحيل وجود التعارض والتضارب والاختلاف في أصول الدين الذي أراده الله تعالى وارتضاه، ويحيل التعارض والتضارب في أصول أحكامه وتشريعاته الجوهرية، وكل ما ينظم العلاقات الإنسانية القائمة على أساس من المنظومة الأخلاقية الربانية وقيم دين الله العليا[(٣)].

والإسلام هو دين الله الواحد، الدين المشترك الذي نادت إليه جميع الكتب الإلهية، وبعث الله به الأولين والاخرين من الرسل، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ [ال عمران: ١٩]، بمعنى أن الدين المقبول الصحيح الذي ارتضاه الله سبحانه هو الإسلام[(٤)]، يقول ابن تيمية: «دين الإسلام هو الذي بعث الله به الأولين والاخرين من الرسل، فلا يقبل من أحد ديناً غيره، ودين الإسلام مبني على أصلين أولاً: أن نعبد الله وحده لا شريك له، ثانياً: أن نعبده بما شرعه من الدين، وهو ما أمرت به الرسل أمر

(١) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢٧، ص٤١٦.

(٢) انظر: البقاعي، نظم الدرر في تناسب الايات والسور، ج٢، ص٣٧٩.

(٣) انظر: وهبة الزحيلي، الأصول العامة لوحدة الدين الحق، ط١، المكتبة العباسية، دمشق، ١٩٧٢م، ص٩.

(٤) انظر: الحسين بن مسعود البغوي (ت ٥١٦هـ). تفسير البغوي، المسمى معالم التنزيل، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م، ج١، ص٢٢٠.

إيجاب أو أمر استحباب، فيعبد في كل زمان بما أمر به في ذلك الزمان[١].

ودين الإسلام هو الدين المتفق مع ما جبل عليه الإنسان، وهو التعبير الوحيد الصادق الصحيح الخالص عن الفطرة التي خلق الله الناس عليها، قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠]، والإسلام الذي هو دين الفطرة المترسخ في نفوس البشر منذ أصل خلقتهم لا يمكن أن يتحقق إلا عن طريق واحد هو الكتب الإلهية التي ربطت وجود الإنسان بالله تعالى، واحتوت على النظام الشامل الكامل الذي حافظ على الفطرة الإنسانية من عوامل الفساد وغذاها بأسباب الصلاح، وتعهد الإنسان كخليفة في الأرض[٢].

وإن من أهم المقاصد العليا وأركان الدين الذي دعت إليه الكتب الإلهية توحيد الله تعالى وصفاته وطاعته والإيمان بما أنزله من الوحي، والإيمان بالبعث بعد الموت ويوم الحساب والجزاء على الأيمان والأعمال، ووضع الحدود والأصول للأعمال التشريعية والنظم الأخلاقية[٣]، قال تعالى: ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَالَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]، يقول القرطبي: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ هو توحيد الله وطاعته والإيمان برسله وكتبه وبيوم الجزاء وبسائر ما يكون الرجل بإقامته مسلماً[٤].

والقرآن الكريم آخر هذه الكتب الإلهية وخاتمها هو في مقاصده وأهدافه العليا ليس

(١) تقي الدين أحمد بن تيمية (ت ٧٢٨هـ)، مجموعة الفتاوى، اعتنى بها وخرج أحاديثها: عامر الجزار، أنور الباز، ط١، مكتبة العبيكان، الرياض، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، ج١، ص١٤٠.

(٢) انظر: أحمد عز الدين خلف الله، القرآن يتحدى، ط٢، دار صادر، بيروت، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، ص٧١، ٧٥.

(٣) انظر: محمد رشيد رضا، الوحي المحمدي، ط١٠، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ص٥٠.

(٤) محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (ت٦٧١هـ)، الجامع لأحكام القرآن، اعتنى به وصححه: هشام سمير البخاري، ط٢، دار عالم الكتب، الرياض، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م، ج٨، ص١٠.

بدعاً من تلك الكتب، فقد وافقها وصدقها في مقاصد الدين الإلهي الواحد وأصوله، والتي هي مصالح كلية لا تختلف باختلاف شرائع الدين والقائمة على هداية البشر وإصلاحهم وإعدادهم لسعادة الدنيا والاخرة[١]، قال تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأحقاف: ١٢]، يقول ابن عاشور: قوله ﴿كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ﴾: أي مخبر بأحقية كل المقاصد التي جاءت بها الكتب السماوية السالفة، وهذا ثناء عظيم على القرآن بأنه احتوى على كل ما في الكتب السماوية وجاء مغنياً عنها ومبيناً لما فيها[٢].

وقد كانت رسالة القرآن الكريم ضمن سلسلة الرسالات المتتالية التي دعت إليها الكتب الإلهية السابقة، والتي تمثل بناءً واحداً مترابطاً يتمثّل بدين الله الواحد الذي أنزل على مراحل في حياة البشرية، وكل رسالة تكمّل وتدعم وتصدق ما وصلت إليه الرسالة السابقة إلى أن استكمل البناء برسالة القرآن العظيم، فجاء دور اللبنة الأخيرة التي أكملت وأتمت خطوات بناء الدين الذي ارتضاه الله سبحانه وأراده ديناً خالداً قائماً إلى يوم القيامة[٣]، قال ﷺ: «إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي، كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة، قال فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين[٤]»، فكان أبرز دور قام به القرآن الكريم بالنسبة لما سبقه من كتب إلهية هو إكمال ما فيها من الدين وإنضاج له بما يتناسب مع تطور الأمم ودرجة الترقي والمدنية التي وصلت إليها بحيث يتجلى فيها مركز العقل والعلم[٥].

وإن اختلاف الزمان والمكان لنزول هذه الكتب الإلهية، وسنة الله في تبدل أحوال

---

(١) انظر: رضا، الوحي المحمدي، ص٢٠٣.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢٦، ص٢٥.

(٣) انظر: محمود بن الشريف، الأديان في القرآن، ط٥، شركة مكتبات عكاظ للنشر، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ص٣٣.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب خاتم النبيين ﷺ، برقم (٣٣٤٢)، ج٣، ص١٣٠٠.

(٥) انظر: الزحيلي، الأصول العامة لوحدة الدين الحق، ص٤٤.

من نزلت فيهم وتغير مصالحهم في إطار الترقي والتطور في الإصلاح وإعمار الأرض، لاشك أنه يحتم اختلاف مناهج التشريع التفصيلية وأحكام الله الفرعية اختلافاً يتلاءم مع زمان كل منها ويتفق مع مصالح أتباعها واستعدادهم[1]، قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨]، وقال ﷺ «أنا أولى الناس بعيسى بن مريم في الدنيا والاخرة، والأنبياء إخوة لعلات؛ أمهاتهم شتى ودينهم واحد»[2]، وقوله عليه الصلاة والسلام أخوةٌ لعلات بمعنى الأخوة من الأب وأمهاتهم شتى دلالة منه عليه الصلاة والسلام على أن أصل دينهم واحد وهو التوحيد وإن اختلفت فروع الشرائع[3]، وذلك حتماً لا يناقض وحدة دين الله ما دامت هذه الفروع والأحكام التفصيلية في إطار وحدة المصدر والهدف والنتيجة، فقد بيّن القرآن الكريم بعضاً من أحكام وشرائع الكتب الإلهية السابقة حاكماً عليها بالحقية والصدق، وأنها كانت تحقق مصالح جزئية مؤقتة خاصة بأقوامها، ولا تناسب أحكام وتشريعات القرآن الكريم الخالدة والعالمية[4].

والكتب الإلهية التي خلد القرآن الكريم ذكرها، وصدقها ونوه بها وأبرز علاقته وصلته الوثيقة بها هي التوراة والإنجيل، قال تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ۝ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران:٣-٤]. والتوراة[5] في عرف القرآن الكريم: هو الكتاب المنزل من الله تعالى على موسى عليه

---

(١) محمد حسين الذهبي، الإسرائيليات في التفسير والحديث، ط٢، دار الإيمان، دمشق، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ص١١.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب (واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها)، برقم (٣٢٥٩)، ج٣، ص١٢٧٠.

(٣) انظر: أحمد بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)، فتح الباري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، محب الدين الخطيب، د. ط.، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ، ج٦، ص٤٨٩.

(٤) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٦، ص٢٢١.

(٥) ما يسمى التوراة اليوم ليست هي التوراة الأصلية الإلهية التي أُنزلت على موسى عليه السلام، كما أن الأناجيل الحالية ليست هي الإنجيل الإلهي الذي أُنزل على عيسى عليه السلام إذ أن التوراة الان ليس لها سند متصل يثبت نسبتها إلى موسى عليه السلام بلا تغيير ولا تبديل، والأناجيل الحالية ليس لها سند متصل يثبت نسبتها إلى عيسى عليه السلام بلا تغيير ولا تبديل، وأن كلاً من التوراة الأصلية والإنجيل =

السلام المحتوي للمبادى والتعليمات والتشريعات والحدود الربانية، والإنجيل في عرف القرآن الكريم : هو كتاب واحد أوحاه الله تعالى إلى رسوله عيسى بن مريم عليه السلام فيه تبليغات وأحكام ووصايا ربانية[١].

وذَكَرَ القرآن الكريم الزبور، وهو كتاب داود عليه السلام، كله مواعظ ولا يحتوي على أحكام، قال تعالى:﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [النساء:١٦٣] ، وكان داود عليه السلام داعياً إلى شريعة موسى عليه السلام، عاملاً بحكم التوراة غير خارج عن شيء من سنتها[٢]، ويقول القرطبي «الزبور كتابٌ ليس فيه حلال ولا حرام ولا فرائض ولا حدود، وإنما هو دعاء وتحميد وتمجيد»[٣]. وأورد القرآن الكريم ذكر صحف إبراهيم عليه السلام، قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾ [الأعلى:١٨-١٩]، وصحف إبراهيم عشر صحائف، وكانت أمثالا كلها[٤].

= الأصلي قد فقدا قبل بعثة النبي محمد ﷺ. . انظر: رحمت الله بن خليل الرحمن الهندي (ت ١٣٠٨هـ)، إظهار الحق، تحقيق: محمد عبد القادر ملكاوي، ط١، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م، ج١، ص١٠٩، ج٢، ص٣٨٧.

والتوراة عند اليهود تطلق على خمسة أسفار هي سفر التكوين، سفر الخروج، سفر اللاويين، سفر العدد، سفر التثنية، والإنجيل عند النصارى هي أناجيل أربعة وملحقاتها، وهي كتب وجيزة في سيرة المسيح عليه السلام وشيء من تاريخه وتعاليمه. انظر: محمد رشيد رضا (ت ١٩٣٥م)، تفسير القرآن الكريم المشهور بتفسير المنار، خرج أحاديثه وشرح غريبه: إبراهيم شمس الدين، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، ج٣، ص١٣٠.

-ولا ينفي انقطاع سند هذه الكتب والأغراق في تحريفها؛ احتوائها على شيء من بقايا الوحي، التي أبقاها الله سبحانه حجةً عبر الزمن.

(١) انظر: محمد عزة دروزة، التفسير الحديث، ط٢، دار الغرب الإسلامية، ٢٠٠٠م، ج٢، ص٤٧٨، ٥٠٠.

(٢) انظر: البقاعي، نظم الدرر في تناسب الايات والسور، ج٤، ص٣٩٤.

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج٥، ص٢٧٨.

(٤) انظر الحديث الذي أخرجه ابن حبان في صحيحه، كتاب البر والصلة، ذكر الاستحباب للمرء أن يكون له من كل خير حظ رجاء التخلص من العقبى بشيء منها، برقم ٣٦١ ، وقال الشيخ شعيب: إسناده ضعيف جداً، ج٢، ص٧٧. =

وقد عُدّت التوراة التي أنزلت على موسى عليه السلام هي أعظم كتاب سماوي بعد القرآن الكريم، وهي أكثر الكتب الإلهية السابقة في فرائض الله وأحكامه[١]، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [القصص: ٤٨-٤٩]. يقول ابن كثير: إن الله تعالى لم ينزل كتاباً من السماء فيما أنزل من الكتب المتعددة على أنبيائه، أكمل ولا أشمل ولا أفصح ولا أعظم ولا أشرف من الكتاب الذي أنزل على محمد ﷺ وهو القرآن، وبعده في الشرف والعظمة الكتاب الذي أنزله على موسى بن عمران عليه السلام وهو التوراة[٢].

إن خير ما يعرفنا بطبيعة هذه الكتب الإلهية (التوراة والإنجيل والقرآن) والنظر إليها نظرة كلية شاملة، هو معرفة أوصاف وسمات هذه الكتب كما تحدث عنها القرآن الكريم، حيث أنّ هذه الأوصاف تعطي تصوراً واضحاً عن مهمة هذه الكتب الإلهية وطبيعة رسالتها ودعوتها، وأبرز أهدافها الأساسية ومقاصدها العامة[٣].

وإن اشتراك القرآن الكريم في هذه الأوصاف مع التوراة والإنجيل يرتبط بالعلاقة الوثيقة بين هذه الكتب الإلهية، ويقتضي الاشتراك في العديد من الدلالات والإيحاءات، ومن أبرزها دلالة ذلك على وحدة المصدر ووحدة الدعوة إلى رسالة الإيمان والتوحيد، واشتمالها على مناهج التوجيه والإعداد للإنسان خليفة الله في إصلاح وإعمار الأرض[٤]، كما أن تنويه القرآن بالتوراة والإنجيل ووصفها بالأوصاف التي وصف بها القرآن، يدلل على شأنها العظيم ويقع ضمن إطار تصديقه لها، وإخباره

---

(١) انظر: محمد محمد أبو شهبة، المدخل لدراسة القرآن الكريم، ط٢، (د. ن)، ١٩٧٣م، ص٥٨.

(٢) إسماعيل بن عمر بن كثير (ت ٧٧٤هـ)، تفسير القرآن العظيم، ط١، دار ابن حزم، بيروت، دار الوطن للنشر، الرياض، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، ص١٤٢٠.

(٣) انظر: صلاح عبد الفتاح الخالدي، مفاتيح للتعامل مع القرآن، ط١، مكتبة المنار، الزرقاء، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م، ص١٦، ٦٩.

(٤) انظر: عبد الرزاق أحمد رجب، أسماء القرآن الكريم وأوصافه، رسالة ماجستير (غير منشورة)، جامعة آل البيت، المفرق، ٢٠٠٤م، ص١٤٩.

بصدقها وأنه لم يكن بدعاً من تلك الكتب السابقة[١]، قال تعالى: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٩٧].

وقد أراد الله تعالى أن تبقى حجته قائمة على الناس في تبليغهم مراده وتكاليفه حتى يرث الله الأرض ومن عليها، فجعل القرآن الكريم هو خاتم هذه الكتب الإلهية، وتعاليمه هي كلمة الله الأخيرة لهداية البشرية، والتي خلدها وأبقاها عبر الزمن بما جعل من القرآن كتاباً معجزاً لجميع الخلق وصانه من أن تمتد إليه يد بالتحريف أو التبديل[٢]، وجعله بما تفرد به من ميزات مصدقاً لما سبقه من كتب الله تعالى ومهيمناً عليها، قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ [المائدة: ٤٨]، يقول ابن كثير: «جعل الله سبحانه هذا الكتاب العظيم الذي أنزله، آخر الكتب وخاتمها وأشملها وأعظمها وأحكمها حيث جمع فيه محاسن ما قبله، وزاده من الكمالات ما ليس في غيره، فلهذا جعله شاهداً وأميناً وحاكماً عليها كلها»[٣].

ووضع القرآن الكريم أهل الكتب الإلهية السابقة (التوراة والإنجيل) موقف الاتهام بالتحريف والتبديل والتغيير في هذه الكتب، والذي أثّر على ما فيها من وحي الله وطمست معالمه، وضاع ما فيها من تكاليف الله وأحكام دينه، ومما لا شك فيه أن الحكم على أهلها بالاعتداء والعبث وعدم الحفظ هو حكم على ذات الكتب، وشهادة من القرآن الكريم أن الكتب الإلهية السابقة قد آلت إلى الاختلاف والتحريف والضياع[٤].

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١، ص٦٢٢.

(٢) السيد سابق، العقائد الإسلامية، د.ط، منشورات مكتبة التحرير، ١٩٨٠م، ص١٦٠.

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ص٦٢٥.

(٤) انظر: صادق مكي، الديانة الإسلامية عقيدة وأخلاق وشريعة، ط١، دار الفكر اللبناني، بيروت، ١٩٩٥م، ص١٠٥.

وكان من أبرز مقاصد القرآن وأعظم مسؤولياته تجاه ما سبقه من كتب إلهية (التوراة والإنجيل) هو البيان والكشف عن حقيقة هذا الاعتداء والعبث الذي تعرضت له، والعمل على إبطاله وإقامة الحجة على المعتدين في تبليغهم وإرشادهم[١]، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [النحل: ٦٤] ، يقول سيد قطب عند تفسير هذه الاية: إن وظيفة الكتاب الأخير والرسالة الأخيرة هي الفصل فيما شجر من خلاف بين أصحاب الكتب السابقة وطوائفهم، إذ الأصل هو التوحيد وكل ما طرأ على التوحيد من شبهات، وكل ما شابه من شرك في صورة من الصور، ومن تشبيه وتمثيل، كله باطل، جاء القرآن الكريم ليجلوه وينفيه وليكون هدى ورحمة لمن استعدت قلوبهم للإيمان وتفتحت لتلقيه[٢].

وغالب كشف القرآن وبيانه لمواقع التحريف والاختلاف في دين الله تعالى في التوراة والإنجيل- بما نقل إلينا من كلام المحرفين وما ورد من أقوال على ألسنتهم، والذي في الغالب أن لا يصدر إلا عن اعتقاد ودينونة بمضمونه ومعناه، كما قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ [المائدة: ٧٢] وتعبير القرآن الكريم عن معتقداتهم «بالقول» إشارة إلى أن غالب هذه المعتقدات في العقائد والتشريعات هي مجرد أقوال مفتراة مدلسة لا دليل عليها ولا حجة عقلية أو نقلية[٣] عَمِلَ القرآن الكريم على إبطالها وبيان وجه الحق فيها، فكانت دعوته بذلك تجديداً للدين الحق الذي ارتضاه الله تعالى للبشرية منذ الأزل، وإعادة لصفائه ونقائه وأصوله الصحيحة بعد أن كان مغموراً تحت أنقاض الشوائب والتناقضات وجهالات وتحريفات البشر[٤].

---

(١) انظر: محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ)، تفسير الطبري المسمى جامع البيان في تأويل القرآن، ط٣، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، ج٧، ص٦٠٥.

(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن، د.ط.، دار الشروق، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م، م٤، ص٢١٨٠.

(٣) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١، ص٦٨٧، ج٣، ص٢١١.

(٤) انظر: محمد عبد الله دراز، مدخل إلى القرآن الكريم، عرض تاريخي وتحليل مقارن، ترجمة محمد عبد العظيم علي، مراجعة: السيد محمد بدوي، د.ط.، دار المعرفة الجامعية، مصر، ١٩٨٩م، ص٧٦.

الفصل الأول

منزلة القرآن الكريم ومكانته بين الكتب الإلهية السابقة

ضمن إطار العلاقة القوية القائمة بين الكتب الإلهية وبالمقارنة فيما بينها لا بد من وجود بعض النقاط التي تفوق فيها القرآن الكريم على ما سبقه من كتب سماوية (التوراة والإنجيل) بما لا يبعدها عن وحدة الأهداف والمقاصد العليا التي أتت كل رسالة لتؤديها.

فقد احتلّ القرآن الكريم مكانةً عالية بالمقارنة مع الكتب الإلهية السابقة فيما يقوم به من دور وما يضطلع به من وظيفة إكمال وإتمام دين الله الواحد في صورته النهائية، إذ كان آخرها وخاتمها ومغنياً عنها مع إبرازه لمكانة هذه الكتب الإلهية وتقدير ما قامت به من دور وبيانه ما آلت إليه من عبثٍ وتحريف.

واحتلّ القرآن الكريم منزلةً عالية بين الكتب الإلهية السابقة بشرائعه ومناهجه وأحكامه التي انفرد بها وأغنت عما سبقها بميزاتها، مع إلتقاء جميع تفاصيل الشرائع في ذات النتيجة والهدف والغاية.

واحتلّ القرآن الكريم مكانةً عالية بالمقارنة مع الكتب الإلهية السابقة في اختصاصه بمزايا وخصائص ذاتية دللت على عظم الدور والمسؤولية التي يقوم بها وعظم الرسالة والمهمة التي جاء ليؤديها وليتمّ بها ما سبق.

المبحث الأول

ما يتعلق بدور القرآن الكريم بالنسبة لما قبله من الكتب الإلهية:

احتلّ القرآن الكريم منزلةً عالية بين الكتب الإلهية السابقة (التوراة والإنجيل) من ناحية ما يقوم به من دور ووظيفة ألقيت على عاتقه باعتباره آخرها.

فجاء مصدقاً لها، مهيمناً عليها كلها بما أفاض الله -عزّ وجل- عليه من مزايا وخصائص أهّلته لهذا الدور العظيم الذي كان من أهمه أنه أنهى مهمة هذه الكتب السابقة بما طرأ عليها من التحريف والضياع مع إقراره واعترافه بشأنها العظيم في أصل إنزالها والدور الذي قامت به في حينها من الهدى والإرشاد لتعاليم دين الله تعالى.

لكن إرادة الله شاءت أن يتخلد ما فيها من هدى بإطار وصورة جديدة تتناسب مع خاتمية الرسالة وعالميتها فجاء القرآن الكريم بالصورة النهائية لدين الله تعالى منهجاً شاملاً كاملاً للحياة مكملاً لما سبق ومغنياً عن وجوده.

المطلب الأول

تصديق القرآن الكريم للكتب الإلهية السابقة

إن تنزيل الكتب السماوية وما حوته من مبادى وأصول وقواعد دين الله الواحد هو سُنة إلهية في الخليقة في كل أمة وفي كل عصر[١]، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥] وقد أرسل الله سبحانه الرسل وأنزل معهم الكتب وضمّنها منهجه القويم وصراطه المستقيم ودينه الواحد الذي أراد من البشرية جمعاء- وعلى مرّ العصور- أن تدين به وأن تهتدي بهداه.

ومن مقتضيات أن دين الله لا بد أن يكون واحداً وإلى قيام الساعة كان تصديق الرسالات السابقة والكتب الإلهية لبعضها البعض سُنة من سنن الله تعالى، فما من

(١) انظر: مكّي، الديانة الإسلامية «عقيدة وأخلاق وشريعة»، ص٧١.

رسالة إلا وقد أيّدت ودعمت ما سبقها من رسالات وما من كتاب سماوي إلا وقد شهد بالحق وللحق الذي حواه ما تقدمه من كتاب أو من وحي إلهي[١]، كما قال تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ﴾ [المائدة: ٤٦].

ولم يكن القرآن الكريم الذي تميز بأنه خاتم هذه الكتب الإلهية بدعاً في التصديق والتأييد والدعم لما سبقه من وحي إلهي إلا أن هذا الكتاب العظيم انفرد بالعديد من معاني ودلالات التصديق لما بين يديه من كتب إلهية نظراً لطبيعة الرسالة العظيمة التي يضطلع بها القرآن الكريم وكونه معجزة عالمية وإلى يوم الدين.

إن تصديق القرآن الكريم لما سبقه من وحيٍّ إلهي ومن كتب سماوية يتمثل في العديد من الأوجه والمظاهر التي تبيّن مكانة القرآن الكريم ومنزلته بين الكتب الإلهية وما يقوم به من دورٍ تجاهها، حيث نوّه بها ومدحها ووصف كلاً منها بأنه نور وهدى ونعمة عظيمة أنزلها على أهلها، قال تعالى: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾ [آل عمران: ٣-٤] فهي كتبٌ صادقة هادية من عند الله تعالى لم يأت بها الرسل ولم يفتروها من عند أنفسهم[٢]، فلا بد من الإيمان بها والاعتقاد بصدقها وصدق المبعوث بها وما أُلقي على عاتقه من تبليغ ما فيها من دين الله ومنهجه وهذا الإيمان والتصديق بجميع هذه الكتب الإلهية ما ذُكر منها وما لم يُذكر هو جزءٌ من العقيدة الصحيحة التي حتماً لا يتم إيمان المرء إلا بها[٣]، قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء: ١٣٦].

---

(١) انظر: زياد خليل الدغامين، إعجاز القرآن وأبعاده الحضارية في فكر النورسي «عرض وتحليل» ط١ دار النيل أزمير ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، ص١٠٢.

(٢) انظر: رضا، تفسير المنار، ج٦ ص٣٤١.

(٣) انظر: عبد الرحمن بن عبد الله الدرويش، الشرائع السابقة ومدى حجيتها في الشريعة الإسلامية، ط١ شركة العبيكان للنشر- الرياض ١٤١٠هـ ص١١٤.

وقد أثبت القرآن الكريم وبشكل جليٍّ صلته وارتباطه الشديد مع ما تقدمه من كتبٍ إلهية (وعلى رأسها التوراة والإنجيل) حينما أتى مصدقاً لمقاصد الدين الإلهي الواحد وأصوله وأركانه مخبراً بأحقيّة كل هذه المقاصد التي جاءت بها الكتب السماوية السالفة[١]، قال تعالى في سياق خطابه لبني إسرائيل: ﴿ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِۦ ﴾ [البقرة: ٤١] وقال سبحانه: ﴿ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأحقاف: ١٢] فكان مطابقاً لها ومقرّراً لما اشتملت عليه من هدى كالدعوة إلى التوحيد الخالص وتنزيه الله تعالى عما لا يليق بجلاله والدعوة إلى الإيمان بالنبوآت واليوم الاخر وكالدعوة إلى قواعد التشريع وأصول العبادات التي لا تختلف باختلاف الأمم والأزمان، وجاء القرآن أيضاً موافقاً لها فيما تدعو إليه من مبادى الأخلاق وأصولها والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة العدل والإحسان واجتناب المعاصي والفواحش ما ظهر منها وما بطن وجاء القرآن الكريم مطابقاً لها وموافقاً لما فيها من القصص وأخبار الأنبياء و الأمم الغابرة بالإضافة إلى ما فيها من الوعد والوعيد والحكم والمواعظ[٢].

وذِكرُ القرآن الكريم لما في الكتب المتقدمة من الهدى والنور مما أوحى به الله عز وجل لرسله وما وردعلى ألستهم كان على وجه الإجمال وليس تفصيلاً لذلك[٣]، حيث كان أبرز ما ذكره من أمورٍ مشتركة (في العقيدة والشريعة والأخلاق) بالقدر الذي أثبت فيه أنّ الأصول والقواعد لدين الإسلام والتي دعا إليها القرآن الكريم هي ذات الأصول والقواعد التي وردت على ألسنة جميع الأنبياء والتي أتت للدعوة إليها كل

---

(١) انظر: رضا، تفسير المنار، ج١، ص٢٤٠.

(٢) انظر: ناصر الدين بن محمد البيضاوي (ت ٧٩١هـ)، تفسير البيضاوي «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» وبهامشه: حاشية الكازروني تحقيق: عبد القادر عرفان العشا د. ط. دار الفكر ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، ج١، ص٣١١. البغوي، معالم التنزيل، ج١، ص٣٦. أحمد مصطفى المراغي، تفسير المراغي، ط٢، دار إحياء التراث العربي بيروت ١٩٨٥م، ج١ ص١٠١.

(٣) انظر: رضا، تفسير المنار، ج١، ص٣١٤.

الكتب الإلهية كما قال تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَالَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ [الشورى: ١٣] فبيّن سبحانه وتعالى لأمة محمد ﷺ أنه أوصاهم كما أوصى من قبلهم بالثبات والمحافظة على ما اشتمل عليه دين الإسلام دين الله الواحد الذي لا يختلف باختلاف الأمم وتبدل الأعصار، وأمرهم بعدم التفرق والاختلاف في إقامة أركانه من توحيد الله وطاعته والإيمان برسله وكتبه وبيوم الجزاء وبسائر ما يكون العبد بإقامته مسلماً[١].

وفي إخبار الله تعالى أنّ وحيه ودينه ثابتٌ محققٌ لا يختلف ما دعا إليه هذه الأمة عما دعا إليه ما سبقها من الأمم يدلل ذلك على أحقيّة وصدق القرآن الكريم وصدق الكتب السابقة وصدق من دعا إلى الإيمان والعمل بما فيها من الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم- وأن هذه الكتب الإلهية السابقة اشتركت مع القرآن الكريم في وحدة المصدر وأنها كلام الله تعالى مثلما القرآن الكريم هو كلام الله وكلام الله يستحيل أن يناقض بعضه البعض أو يخالفه أو يكذبه مهما اختلفت الظروف والأحوال المحيطة بنزول كل واحد منها[٢]، وهي حق وصدق في أصلها مهما تنازع المتنازعون واختلفوا واعتدوا على كلامه تعالى بالتغيير والتبديل خدمةً لأهوائهم وغرائزهم فدين الله تعالى بقي محفوظاً بحفظ القرآن الكريم وتصديقه لما سبقه من كتب واحتوائه على الدين الأصيل الذي كان فيها.

ومن ناحية أخرى فقد حكم القرآن الكريم على ما تقدمه من كتبٍ إلهية -كالتوراة والإنجيل- أنها حق وصدق وجاء تصديقاً لها لأنه طابق ما أخبرت به وبشرّت ووعدت أهلها[٣]، ذلك أن الصفات التي اشتمل عليها القرآن ودين الإسلام الجائي به موافقة لما

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، ج٨ ص٩. أبو السعود، محمد بن مصطفى العمادي (ت ٩٨٢هـ) تفسير أبو السعود أو إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، وضع حواشيه: عبد اللطيف عبد الرحمن دار الكتب العلمية بيروت ط١ ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م، ج٦ ص١١.

(٢) انظر: صلاح عبد الفتاح الخالدي، هذا القرآن، ط١، دار المنار للنشر عمان ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣، ص١٩١.

(٣) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ص(٣٤٩).

بشرت به كتبهم فيكون وروده معجزةً لأنبيائهم وتصديقاً آخر لدينهم[١]، فقد وعدت الكتب السماوية السابقة -التوارة والإنجيل- بمجيء القرآن الكريم المُعجز وأنه خاتمها ومصدق ومهيمن عليها ويشمل كل ما جاء فيها من هدى ويزيد على ذلك ويكون مغنياً عنها، وأنه كتاب إلهي للعالمين جميعاً وسيبقى محفوظاً من الله تعالى إلى يوم الدين فمجيء القرآن الكريم على تلك الصفة قد أظهر صدق ما وعدت به ودل على أنها من عند الله عز وجل[٢] قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٩٦ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٦-١٩٧] أي إن ذكر هذا القرآن والتنويه به لموجود في كتب الأولين المأثورة عن أنبيائهم الذين بشروا به في قديم الدهر وحديثه كما أخذ الله عليهم الميثاق بذلك[٣].

كما أن الكتب السماوية السابقة وعدت وبشّرت بمجيء الرسول المقفّى على نبوة أصحاب تلك الرسل وبيّنت أوصافه وعلاماته وشمائله مثل كونه أميّاً وأنه يجيء من أبناء إسماعيل عليه السلام من العرب[٤]، فمجيء النبي ﷺ وعلى هذه الأوصاف قد صدّق ما أخبرت به هذه الكتب وبشّرت في قديم الزمان، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وقوله: ﴿رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ يقول فيه محمد رشيد رضا: «أي رسولٌ مصدقٌ له بحاله وصفاته؛ لأن البشارات التي فيه بالنبي الذي يجيء من آل إسماعيل لا تنطبق إلا على هذا الرسول ومصدقٌ له بمقاله؛ باعترافه بنبوّة موسى عليه السلام وصدّقه فيما جاء به من الهدى والشريعة»[٥].

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١، ص(٤٥٨).

(٢) انظر: عمر سليمان الأشقر، الرسل والرسالات، ط٣ مكتبة الفلاح الكويت ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ص٢٥٤. وانظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٤، ص٣٧٢.

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ص١٣٨٣.

(٤) انظر: رضا، تفسير المنار، ج١، ص٣١٩.

(٥) رضا، تفسير المنار، ج١، ص٣٢٣.

إن من أهم مقتضيات التصديق التطابق والتوافق فيما بين الكتب السماوية والقرآن الكريم في أصول الدين وأصول الشريعة، أما ما يتراءى من مخالفته لشرائع الكتب السالفة (كالتوراة والإنجيل) في بعض جزئيات وفروع الأحكام والشرائع وتفصيلاتها فذلك لا يُعد تعارضاً مع تصديقه لها ولا يعد مخالفةً في الحقيقة لما سبقه بل هي موافقة وتصديق؛ ذلك أن أهل الكتاب من الأمم السابقة ملزمون باتباع ما جاء به محمد ﷺ في كتابه من شريعة والعمل والتصديق بها وذلك بموجب الميثاق الذي أُخذ على الأنبياء وعلى أممهم بتصديق محمد ﷺ إن بُعث واتباع نهجه وشريعته فإيمانهم برسلهم وبما أتوا به من وحي يقتضي ويوجب إيمانهم بكل ما ورد في شريعة محمد ﷺ وإن كان في الظاهر مخالفاً لشرائع الأنبياء قبله[1]، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١] فالاختلاف في فروع الشريعة والأحكام حقيقة ليس بخلاف لأن جميع الأنبياء متفقون على أن الحق زمان موسى عليه السلام ليس إلا شرعه وأن الحق في زمان محمد ﷺ ليس إلا شرعه - وهكذا- فهذا وإن كان يوهم الخلاف فهو في الحقيقة وفاق[2].

إن مخالفة القرآن الكريم لما في الكتب السماوية السابقة من جزئيات الأحكام لا يخرج عن إطار التصديق ولا يعد مخالفة وتعارضاً مع التصديق؛ ذلك أنه قد صدقها لما حكم عليه أنها حق وصدق وشرعٌ شرعه الله سبحانه وتعالى لأهل ذلك العصر وتلك الأمة في كتابها ولم يفتروه من عند أنفسهم، وكان ذلك مراعاة لمصالح وخصوصيات وشؤون كل ملة وكل قوم والتي لا تثبت على حالٍ واحد مع اختلاف

---

(١) انظر: المراغي، تفسير المراغي، ج٣ ص٢٠٠.

(٢) عمر بن علي بن عادل (ت ٨٩٠هـ)، اللباب في علوم الكتاب، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وآخرون ط١ دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، ج٥، ص٣٦٣.

العصور وامتداد الزمن فكانت التكاليف التشريعية بحسب ما تقتضيه حكمة الله تعالى وعلمه[(١)].

كما أن الكتب المتقدمة (كالتوراة الإلهية) عندما بشّرت بالقرآن الكريم وشهدت بصحته وبأنه خاتم الكتب السماوية ومهيمنٌ عليها جاء مغنياً عنها ومبيّناً لما فيها ذلك فيه إشارةٌ صريحة على أن أحكام هذه الكتب لا تناسب عموم الرسالة وختامها وطبيعتها وسماتها فلا بد وأن تُنسخ ولا يُعمل بها إلا ما دعا القرآن الكريم إلى العمل به وتفعيله منها[(٢)].

إن من أهم الدلالات والأهداف والغايات من تقييد القرآن الكريم ووصفه بأنه مصدقٌ لما بين يديه في العديد من الايات الكريمة هو إقامة الحجّة على أهل الكتاب خاصةً من خلال المواجهة والجدال معهم ودعوتهم إلى الإيمان والتسليم والتصديق برسالة النبي ﷺ وبالقرآن الكريم وما فيه من حق، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ [البقرة: ٩١] وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ [النساء: ٤٧] فتصديق القرآن لما معهم يحتّم ويؤكد عليهم وجوب الامتثال والإيمان بما يأمرهم به محمد ﷺ وبما شرعه الله سبحانه في القرآن العظيم؛ لأن إيمانهم بما معهم حتماً يقتضي الإيمان بما يصدّقه ويوافقه وكفرهم بالقرآن وما فيه من حق يقتضي كفرهم بما معهم من كتبٍ إلهية[(٣)] وبما دعا إليه أنبياؤهم من الهدى والإيمان ومقتضياته وأركانه، ذلك أن المقصد والهدف والغاية مما دعا إليه جميع أنبياء الله تعالى ما هو إلا تقرير الحق وهداية الخلق وإزالة ما طرأ على العقائد من الضلال والانحراف[(٤)].

---

(١) انظر: البيضاوي، أنوار التنزيل، ج١، ص٣١١. أبو السعود إرشاد العقل السليم، ج١، ص٣٣٣.

(٢) انظر: أبي السعود، إرشاد العقل السليم، ج١ ص١٢٧.

(٣) انظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج١ ص١٢٧.

(٤) المراغي، تفسير المراغي، ج١ ص١٠١.

وكون القرآن الكريم مصدقاً لما بين يديه -كالتوراة والإنجيل- هو علامةٌ محققة على أنه من عند الله تعالى ويُعدّ إعجازاً معنوياً لأهل العلم بالدين والشرائع من أهل الكتاب خاصةً -فضلاً عن إعجازه اللفظي للعرب - حيث أنه باشتماله على الهدى الذي هو شأن الكتب الإلهية علامةٌ يقينية على أنه من عند الله تعالى[١]، قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [الأنعام: ٩٢] وفي تقييد القرآن بكونه مصدقاً لما بين يديه فيه إقامة للحُجة على المشركين الذين كانوا يعتبرون أهل الكتاب من حولهم أهل علمٍ وشأنٍ و حضارة فمجيء النبي الأميّ بكتابٍ كريم طابق ما عند أهل الكتاب في كتبهم من الأخبار وقصص الأنبياء السابقين وما فيه من حقائق وعلومٍ دينية وشرائع وأخلاق وهو ﷺ أُميٌّ لم يقرأ كتاباً من كتبهم ولم يجالس عالماً من علمائهم وأحبارهم لا شك أن العاقل لا مفرّ له إلا أن يحكم أنه كتابٌ لا يصدر إلا من إلهٍ عظيمٍ حكيم[٢]، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ٣٧].

إن تصديق القرآن الكريم لما بين يديه من كتبٍ إلهية يُعدّ وجهاً من وجوه إعجاز القرآن الكريم ذلك أن ما جاء به من عقائد وحقائق وشعائر وشرائع لم يستطع أحدٌ من الناس عامةً أو أهل الكتاب خاصةً أن ينقض شيئاً منها أو أن يخالف أو ينازع ولو في قضيةٍ واحدة من قضاياها[٣] مما أثبت بحقٍّ أن القرآن الكريم وما فيه من حقٍّ وهدى كما هو شأن الكتب السابقة (كالتوراة والإنجيل) لم تنزل إلا ممن يملك تنزيل هذه الكتب الإلهية فهو سبحانه وحده الخالق والعالم بمن خلق وهو الجهة الوحيدة الذي يملك الحق في أن يشرّع وأن يضع منهاج الحياة للبشر وتأسيس تصوّراتهم الاعتقادية

(١) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١ ص٤٥٨.

(٢) انظر: البقاعي، نظم الدرر، ج٣ ص٤٤٣.

(٣) الدغامين، إعجاز القرآن وأبعاده الحضارية في فكر النورسي، ص١٠٨.

وشرائعهم وأخلاقهم[١] وغير ذلك مما يتلاءم مع ما فطرهم عليه و يحقق لهم حسن العبودية وحقّ الخلافة والإعمار.

وإن تصديق القرآن الكريم لما بين يديه من كتبٍ إلهية هو تصديق لها في أصل إنزالها، أما بعد تحريفها والعبث بها فقد خرجت من دائرة الوحي الإلهي وأصبح دور القرآن بالنسبة لها يقع ضمن إطار هيمنته عليها والحكم في أمرها بحق.

المطلب الثاني

هيمنة القرآن الكريم على الكتب الإلهية السابقة

أبرز الله سبحانه وتعالى مكانة القرآن الكريم ومنزلته بين الكتب الإلهية السابقة (التوراة والإنجيل) حيث شرّفه بأعظم مسؤولياته تجاهها وهي الهيمنة على جميع ما سبقه منها بجانب تصديقه لها والإقرار بما فيها في أصل إنزالها، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ﴾ [المائدة: ٤٨] فقوله: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ﴾ أي أنه: أميناً وشاهداً وحاكماً على كل كتاب قبله[٢]. والهيمنة على ما سبقه من كتب إلهية تتضمن أنه يقوم بشؤونها ويكون له حق مراقبتها والحكم في أمورها بحق[٣]، وهناك قراءة (وَمُهَيْمَناً عليه)[٤] بفتح الميم الثانية تدلل على أن الله تعالى المهيمن هيمن على القرآن الكريم بأن حفظه إلى يوم الدين يقول الزمخشري: «مُهَيْمَناً: بفتح الميم أي هُوِمِنَ عليه بأن حفظ من التغيير

---

(١) انظر: قطب، في ظلال القرآن، م١ ص٣٦٨.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ص٦٢٥.

(٣) انظر: رضا، تفسير المنار، ج٦ ص٣٤١.

(٤) هي قراءة مجاهد وابن محيصن. انظر: برجشتر اسر مختصر في شواذ القرآن من كتاب البديع لابن خالويه (د. ط) دار الهجرة ص٣٢. ويقول الزجاج في هذه القراءة: «هي عربية ولا أحب القراءة بها لأن الإجماع في القراءة على كسر الميم في قوله (المُؤْمِنُ المُهيمِن) [سورة الحشر: الاية ٢٣] إبراهيم بن السري الزجاج (ت ٣١١هـ) معاني القرآن وإعرابه تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي خرج أحاديثه: علي جمال الدين، ط١ دار الحديث القاهرة ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، ج٢ ص١٧٩.

والتبديل و﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ﴾ [فصلت: ٤٢] والذي هيمن عليه هو الله عز وجل أو الحفاظ في كل بلد لو حُرّف حرف منه أو حركة أو سكون لتنبه عليه كل أحد ولاشمأزوا رادين ومنكرين[١].

وقد جعل الله سبحانه القرآن الكريم مصدقاً لما بين يديه ومهيمناً على كل ما سبقه من شرائع وكتب إلهية، فهو رقيب عليها وشهيد يشهد لها بالصحة والصدق والثبات وأنها حق وصدق من عند الله تعالى وأنها في أصل إنزالها كتب إلهية أنزلها الله سبحانه على أنبيائه كموسى وعيسى عليهما السلام وأنهم لم يفتروها من عند أنفسهم[٢]، وكون القرآن الكريم محفوظاً بحفظ الله تعالى وإلى يوم الدين كانت شهادة القرآن على أن (التوراة والإنجيل والزبور) حقّ صدق باقية أبداً فكانت حقيقة هذه الكتب معلومة أبداً[٣].

وجاء القرآن الكريم مقرراً حافظاً لما فيها من التوحيد وأصول الشرائع دالاً على ما فيها من أحكام، حافظاً لما فيها من معان وحقائق، وبيّن الصحيح الصادق الذي نزل فيها[٤].

---

(١) محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨هـ)، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق: عبد الرزاق المهدي ط١ دار إحياء التراث العربي بيروت ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م، ج١ ص٦٢٧.

(٢) انظر: الزمخشري، الكشاف، ج١ ص٦٢٧. محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير، د.ط دار الفكر العربي القاهرة (د.ت)، ج٤ ص٢٢٢٤.

(٣) فخر الدين بن عمر الرازي (ت ٦٠٦هـ)، مفاتيح الغيب، ط٢ دار إحياء التراث العربي بيروت ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م، ج٤ ص٣٧١.

(٤) انظر: شهاب الدين الخفاجي (ت ١٠٦٩هـ)، حاشية الشهاب المسماة «عناية القاضي وكفاية الراضي» على تفسير البيضاوي، ضبطه : عبد الرزاق المهدي، ط١ دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م، ج٣ ص٤٨٦. أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج٢ ص٢٨٠. محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ط١ دار ابن كثير دار الكلم الطيب ١٤٠٤هـ/ ١٩٩٤م، ج٢ ص٥٥.

إن المصدر الموثوق لمعرفة حقائق الكتب الإلهية (التوراة والإنجيل) في أصل إنزالها وما فيها من هدى ووحي إلهي وحقائق وقصص وأخبار وغير ذلك هو القرآن الكريم، فهو أمين على وحي الله تعالى الذي نزل في هذه الكتب السماوية من قبل القرآن وأمانته تقتضي أن ما وافقه مما أخبر أهل الكتاب عما في كتابهم فهو حقٌ وما خالفه فلا ريب أنه باطلٌ[١]، يقول الجصاص: «القرآن أمينٌ عليه - ما تقدم منها- ينقل إلينا ما في الكتب المتقدمة على حقيقته من غير تحريف ولا زيادة ولا نقصان[٢]، وكون القرآن الكريم أمينٌ على ما تقدم من كتب إلهية فيجب تصديقه بما أخبر به عن هذه الكتب المتقدمة لأنه مؤتمن على الحق الموجود فيها وكل من كان مؤتمناً على شيء فهو مقبول القول فيه ومصدّقٌ قوله[٣].

إن هيمنة القرآن الكريم على ما كان في الكتب الإلهية السابقة من معان وحقائق وتقريرها والشهادة بكونها من عند الله تعالى، وأنه أمين عليها، وهذا يقتضي أن يكون حاكماً عليها ويكون له وحده حق مراقبتها والحكم في أمرها بحق وعدل، فقد بيّن القرآن العظيم ما آلت إليه الكتب السماوية السابقة (التوراة والإنجيل) من ضياع وأخبر عن الاعتداء عليها بالتحريف والتبديل بكافة أشكاله وصوره وأشار إلى اختلاف أهلها الذين خوطبوا بها وخلافهم فيها وما نسبوه إليها مما لم يكن فيها فخلطوا صحيحها بالكثير من الباطل وحذفوا كثيراً منها ونسوا حظاً عظيماً مما ذكروا به منها وضاع معظم ما فيها من الصحيح إن لم يكن جلها وحرّف كثير مما بقي منها وأولوه تأويلات فاسدة وتفسيرات لنصوصه بحسب أهواءهم وشهواتهم وليس بحسب مقصد الشارع سبحانه فأعرضوا عن الحكم والعمل بما كان في أصلها وحقيقتها الإلهية الصحيحة جيلاً بعد جيل.

---

(١) انظر: البغوي، معالم التنزيل، ج٢ ص٣٥. سعيد حوى، الأساس في التفسير، ط١ دار السلام - القاهرة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ج٣ ص١٣٩١.

(٢) أحمد بن علي الرازي الجصاص (ت ٣٧٠هـ)، أحكام القرآن، ضبط نصه: عبد السلام علي شاهين، ط١ دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م، ج٢ ص٦٢٠.

(٣) انظر: الجصاص، أحكام القرآن، ج٢ ص٦٢٠.

والقرآن العظيم المهيمن عمل على كشف كثير من مواضع التحريف والتزييف والتأويل الفاسد للحقائق والعقائد والشرائع وبيّن بطلانه وأنه معتدًى عليه ونفى ما زيد عليه مما لم يكن منه وعمل على تصحيح كل ذلك وتقويمه وبيان الحقائق والملامح الرئيسية لشرع الله تعالى الحق الذي كان مبثوثاً بين ثنايا هذه الكتب الإلهية الأصيلة(١) كما أشار إلى مواضع الحذف وأبرز ما حذف وأخفي بالقدر الذي تمس الحاجة لإظهاره وإبرازه من الحقائق(٢).

وفي القرآن الكريم العديد من النصوص التي تؤكد وتدلل على هيمنة القرآن وحاكميته على ما سبقه من كتب إلهية (التوراة والإنجيل)، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النمل: ٧٦] أي إن هذا القرآن يبين لهم ما اختلفوا فيه لو أخذوا به وذلك ما حرفوه من التوراة والإنجيل وما سقط من كتبهم من الأحكام(٣).

ويقول تعالى في موضع آخر: ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥] فهذا إخبارٌ منه تعالى أنه أرسل محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق ليظهر كثيراً مما أخفاه أهل التوراة والإنجيل من كتبهم- كالبشارة به عليه الصلاة والسلام وآية الرجم – وما بدلوه منها وبيّن الحق من الباطل، وكان بيانه لتحريفاتهم وتأويلاتهم وافترائهم على الله سبحانه حسبما تقتضيه المصلحة فلم يذكر ما لا فائدة من بيانه(٤)، وربما إشارة إلى تحريفهم وتبديلهم معظم

---

(١) انظر: محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي(ت ٧٤٥هـ)، البحر المحيط في التفسير، تحقيق: عرفان العشا حسونه د.ط دار الفكر ١٤١٣؟/ ١٩٩٢م ج٤ ص٢٨٢. رضا، تفسير المنار، ج٦ ص٣٤١. أبو زهرة، زهرة التفاسير، ج٤ ص٢٢٢٤.

(٢) انظر: محمد عبد الله دراز، الدين، (د.ط) دار الفكر العربي ١٩٥٢م، ص١٨٣.

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج٧ ص٢٣١.

(٤) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ص٥٩٧. شهاب الدين محمود الألوسي، (ت ١٢٧٠هـ)، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ضبطه: علي عبد الباري عطية، ط١ دار الكتب =

الحق مما في كتبهم الحقيقية.

وبمجيء القرآن الكريم فإن ملة من اتبعه هي الحاكمة وهي أعلى الملل قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة: ٣٣] فما جاء في القرآن الكريم من هدى يتمثل في فرائض الله وأحكامه من عقائد وشعائر وشرائع والذي هو الصورة النهائية لدين الله الواحد هو وحده الواجب الطاعة والاتباع والولاء فملة الإسلام بالقرآن قد علت على كل ملة سواها[١].

إن من أهم مقتضيات هيمنة القرآن الكريم على ما سبقه من كتب سماوية وحاكميته عليها هو تعديل أو تبديل أحكام الكتب السابقة (التوراة والإنجيل) ونسخ كثير من أحكامها أو فيما جاء به من أصول الشريعة التي خلت منها (التوراة والإنجيل) فأثبت هيمنته عليها في الجانب التشريعي العملي فضلاً عن الجانب العقدي[٢].

وقد عيّن القرآن الكريم بعض هذه الأحكام المنسوخة[٣] مبيناً انتهاء مشروعيتها وأنها كانت لأقوامها خاصة وانقضى العمل بها بمجيء هذا القرآن العظيم[٤]، إذ أن أحكامه هي الواجب اتباعها والعمل بما فيها دون غيرها يقول أحمد علي الملا: «القرآن هو الصورة الأخيرة لدين الله وهو المرجع الأخير في هذا الشأن والمصدر النهائي في منهج الحياة وشرائع الناس ونظام حياتهم فلا تعديل بعد ذلك ولا تبديل»[٥].

= العلمية بيروت ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، ج٣ ص٢٦٨.

(١) انظر: الطبري، جامع البيان، ج٦ ص٣٥٦. قطب، في ظلال القرآن، م٣ ص١٦٤٤.

(٢) انظر: محمد الطاهر بن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، تحقيق ودراسة: محمد الطاهر الميساوي، ط٢ دار النفائس الأردن ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م، ص١٨. وانظر: الذهبي، الإسرائيليات في التفسير والحديث، ص١١.

(٣) مثل قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦].

(٤) انظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج٢ ص٢٨٠.

(٥) أحمد علي الملا، دراسة في علم العقيدة الإسلامية في ضوء الكتاب والسنة، ط١ دار اليمامة دمشق ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ص١٥٨.

إن الكتب الإلهية السابقة قد انتهت مهمتها بمجيء القرآن العظيم وجعل الله سبحانه هذا الكتاب العظيم الذي أنزله آخر الكتب وخاتمها وأشملها وأعظمها وأحكمها، حيث جمع فيه محاسن ما قبله وزاده من الكمالات ما ليس في غيره فلهذا جعله شاهداً وأميناً وحاكماً عليها كلها[١]، حيث تضمن ما تضمنته وجمع الله فيه كل وحي أنزله تعالى من قبله واشتمل القرآن الكريم على أحسن وأشمل ما شرع الله لعباده في الكتب السماوية السابقة وعلى أشمل ما فيها من الحقائق الثابتة وزاد عليها في ذلك بما شاء الله زيادته وبما لا يحيط به ولا يعلمه إلا الله تعالى وأتمّ الله به النعمة وأكمل الدين فسد مسدّها وأغنى عن وجودها[٢]، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ٣٧] يقول البقاعي في قوله تعالى: ﴿وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾: «أي الجامع المجموع فيه الحكم والأحكام وجوامع الكلام من جميع الكتب السماوية في بيان مجملاتها وإيضاح مشكلاتها»[٣]. والقرآن الكريم هو تفصيل للكتاب الإلهي الكتاب الواحد الذي جاء به الرسل جميعاً من عنده تعالى بما (تتفق أصوله وتختلف تفصيلاته) ليهتدي به جميع البشر وإلى يوم الدين فالتفصيل فيه جاء بما يتناسب مع نمو البشرية ووقتها وتطورات البشرية وحاجاتها[٤]، فهو رسالة إلهية شاملة كاملة وافية تحقيقاً لكون دين الله تعالى واحدٌ وإلى يوم الدين.

يقول أحمد خلف الله: «إن هيمنة القرآن على ما قبله من الكتب الإلهية بالحق لا بالجور ولا بالتزيد ولا بالتجني أو ما سوى ذلك من التحكم بالباطل»[٥] فقد شاءت سنته تعالى أن يكون آخر هذه الكتب الإلهية وتكفل الله سبحانه تعالى بحفظه بنفسه الكريمة فقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] فهو الكتاب

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ص٦٢٥.

(٢) انظر: فتح القدير ج٢ ص٥٥. الأساس في التفسير ج٣ ص١٣٩٧.

(٣) البقاعي، نظم الدرر، ج٣ ص٤٤٤.

(٤) انظر: قطب، في ظلال القرآن، م٣ ص١٧٨٥.

(٥) خلف الله، القرآن يتحدى، ص٢٣٠.

الذي لا ينسخه أي كتاب ولا شرع بعده مطلقاً ولا يتطرق إليه أي تحريف أو تبديل(١)، وتواتر القرآن وطريقة نقله حتى وصل إلينا سالماً من التغيير والتبديل والتحريف حظى به القرآن دون غيره من كتب سماوية فهو معجزة الله للعالمين أثبت عجزهم على أن يأتوا بمثله وهذا من أهم ما أهلّه ليكون قيّماً ومهيمناً على ما سبقه من كتب(٢).

وإضافة لذلك فإن الاتي بالقرآن ﷺ مرسلٌ إلى جميع العالمين إنسهم وجنّهم قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾[الأنبياء:١٠٧] فرسالة القرآن عالمية متناسبة مع جميع العصور ومستوى البشر إلى يوم الدين وتكاليفه للإنسان واضحة محدّدة وهو منهج شمولي للحياة وهيمن على كل ما سبقه من مناهج ليتناسب مع ما أراده الله للإنسان من مهمة العبادة وإعمار الأرض في كل زمان ومكان(٣).

وإخبار القرآن الكريم أنه جاء مصدقاً لما بين يديه من كتب إلهية (التوراة والإنجيل) ومهيمناً عليها متلاءم ومتلازم مع طبيعة الدعوة العالمية في الخطاب القرآني، حيث جاءت آية الهيمنة في سياق دعوة أهل الكتاب أهل التوراة والإنجيل أن يؤمنوا بالقرآن الكريم وبما يدعو إليه من عقائد وشرائع وأن يتحاكموا إليه لأنه قد هيمن على ما عندهم من أحكام وشرائع فقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة:٤٨] إن حقيقة كتبهم الإلهية السابقة وروحها موجود في القرآن وبوجه أكمل وبإيمانهم به والتحاكم إليه فإنهم لا يخرجون عن قشورهم في عقائدهم ودينهم بل هو

---

(١) انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ج٤ ص٣٧١.

(٢) انظر: زين العابدين أحمد الزويدي، هيمنة القرآن على جميع الكتب السماوية وأسبابها، ط١ مطبعة الفجر الجديد ١٤١١هـ، ص٦-٩.

(٣) انظر: عبد الباري محمد داود، جوانب من عظمة القرآن الكريم، ط١ دار نهضة الشرق مصر ٢٠٠٢م، ص٦٣.

إكمال وإتمام لما عندهم من معتقدات وشرائع أصيلة صحيحة وما عندهم ما هو إلا تأسيس وتقعيد لهذا البناء الجديد الذي حوى جميع محاسن الكتب السابقة وأصول الشرائع السالفة إلا أن القرآن الكريم مؤسس في التفرعات التي تتحول بتأثير الزمان والمكان ويحسب ما تقتضيه الحكمة والمصلحة[١]، يقول أبو السعود في قوله تعالى: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ﴾: إن كون شأن القرآن حقاً مصدقاً لما قبله من الكتب المنزلة على الأمم مهيمناً عليه من موجبات الحكم المأمور به أي إذا كان القرآن كما ذُكر فاحكم بين أهل الكتابين عند تحاكمهم إليك بما أنزل إليك فإنه مشتمل على جميع الأحكام الشرعية الباقية في الكتب الإلهية[٢].

وبما أنّ القرآن الكريم مشتمل على جميع ما شرعه الله لعباده في جميع الكتب السماوية السابقة قد حتم عليه ﷺ أن يحكم بما فيه بين جميع أهل الكتب الإلهية فكان الحكم بما فيه لغيرهم من باب أولى[٣] فالهيمنة تقتضي أن يجعل هذا الكتاب هو المرجع الأول والأخير في التعرف على الدين الذي يريده الله تعالى[٤]، وأن كل اختلاف يجب أن يُردّ إلى القرآن الكريم ليفصل فيه ويحكم بما فيه سواء كان هذا الاختلاف أو الخلاف في التصورات العقائدية بين أهل الملل المختلفة أو في الشرائع التي هيمن القرآن الكريم عليها وجاء بصورتها الأخيرة ونسخ ما قبله من أحكام أو كان هذا الخلاف بين المسلمين أنفسهم فالمرجع الأساس الذي يعودون إليه باجتهاداتهم في شؤون الحياة كلها هو هذا الكتاب الكريم[٥]، فكونه مهيمناً على ما سبقه من كتب يرجع إليه في الحل والحرمة ويُهرع إليه في قضايا الإيمان والغيب ويلتزم به العالمون

---

(١) انظر: بديع الزمان سعيد النورسي، إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي ط٢، دار سوزلر للنشر ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، ص٥٩.

(٢) أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج٢ ص٢٨٠.

(٣) انظر: البقاعي، نظم الدرر، ج٦ ص١٨٠.

(٤) الأشقر، الرسل والرسالات، ص٢٥٥.

(٥) انظر: قطب، في ظلال القرآن، م٢ ص٩٠٢.

في نظام حياتهم ومنهج عبادتهم وهو الفيصل في أمر المعاش والمعاد[١].

إن هيمنة القرآن الكريم على ما سبقه من كتب سماوية يقتضي أن تكون ملته - أي المتبعين لهديه وتشريعاته- هي الأقوى وهي الأولى من غيرها في قيادة العالم، وأن أهل القرآن من المؤمنين هم أهل الهيمنة على سائر الأمم يؤدون وظيفة إمامة الإنسانية وهدايتها ونشر تعاليم القرآن بينها وأمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر والقيام بواجبهم في الدفاع عن الدين والذود عن أهله بإعداد العدة وامتلاك القوة والجهاد في سبيل الله تعالى حق جهاده[٢].

فلا بد من العودة إلى القرآن العظيم المعجزة الخالدة والتمسك بهديه والتحاكم إليه في جميع الأمور فهو وحده القادر على إعادة العزة والهيبة لملة الإسلام وهو وحده القادر على أن يحاكم كل كتاب يدّعى افتراء وكذباً أنه سماوي ومقدس وهو وحده القادر على أن يقضي ويحكم على هذه الكتب وشروحاتها ويبين ما فيها من زيف وتحريف وباطل فالقرآن هو المرجع الأساس والحكم الفصل[٣].

---

(١) محمد سيد المسير، المدخل لدراسة الأديان، ط١ دار الطباعة المحمدية القاهرة ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م، ص٦٧.

(٢) انظر: أحمد علي الإمام، (هيمنة القرآن الكريم وعالميته وخلوده) القسم الثاني مجلة نهج الإسلام، العدد ٦٩ السنة ١٨ سوريا ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، ص٤٤.

(٣) انظر: الدغامين، إعجاز القرآن وأبعاده الحضارية في فكر النورسي، ص١٠٨.

المبحث الثاني

ما يتعلق باختلاف تفاصيل الشرائع بين الكتب الإلهية

إن الكتب الإلهية (القرآن التوراة الإنجيل) كتب هداية وإرشاد وإن دين الله تعالى فيه واحد رغم اختلاف ما فيها من تفاصيل الشرائع وفروعها، إذ كان الهدف والمقصد الأول منها هو إقامة العباد على منهج العبودية الحقة الخالصة لله تعالى كلٌّ بحسب ظروفه وأحواله وبما يتلاءم مع طبيعة الرسالة التي حملها كل كتاب إلهي وما فيه من شريعة.

وقد ميّز الله سبحانه شريعة القرآن الكريم بما أنعم به على هذا الكتاب من ميزات بحيث جاءت شريعته أكثر ملاءمة مع الفطرة والجبلة الإنسانية ممهداً بذلك لختامها وعالميتها وديمومتها إلى يوم القيامة.

المطلب الأول

الشرائع الإلهية واختصاصها بأهلها

الشرائع الإلهية هي ما تعبد الله به عباده مما اشتمل عليه الدين من الأحكام والأمور العملية دون الأمور العقدية وتشمل الأحكام التكليفية التي لا بد من العمل والالتزام بها من الحلال والحرام والتي تختلف باختلاف الرسل والكتب الإلهية وينسخ اللاحق منها السابق[1]، وقد وضح الله سبحانه وتعالى الشرائع وتفاصيلها لكل أمة ورسم لهم منهاجاً وطريقاً واضحاً فرض عليهم سلوكه لغاية تنفيذ هذه الشرائع والأحكام وبيان مجملها وتفصيل واستنباط أحكامها الجزئية[2]، قال تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة: ٤٨] بمعنى أن لكل أمة من الأمم الباقية والخالية عيّنا ووضعنا شرعة ومنهاجاً خاصين بتلك الأمة لا تكاد أمة تتخطى شرعتها التي عُيّنت لها وقد

---

(١) انظر: الجصاص، أحكام القرآن، ج٢ ص٦٢١. المراغي، تفسير المراغي ج٦ ص١٣١. أبو زهرة، زهرة التفاسير، ج٤ ص٢٢٢٧.

(٢) انظر: أبو زهرة، زهرة التفاسير، ج٤ ص٢٢٢٧. البيضاوي، أنوار التنزيل، ج٢ ص٣٣٢.

أوجبنا عليهم – دون غيرهم – إقامة أحكامها[1] فالأمة التي كانت من مبعث موسى إلى مبعث عيسى عليهما السلام شرعتهم التوراة والأمة التي كانت من مبعث عيسى إلى مبعث النبي ﷺ شرعتهم الإنجيل وأما أمة القرآن العظيم وإلى يوم الدين فشرعتهم القرآن الكريم، فكل شريعة لأهلها يجب عليهم إقامة أحكامها وما يتفرع عنها من تفصيلات[2].

إن الشرائع الإلهية السابقة (كشريعة التوراة وشريعة الإنجيل) شرائع خاصة محدودة لا تصلح كعبادة ومناهج صالحة إلا لمن شرعت لهم وفي وقتهم وزمانهم، قال تعالى: ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ [الشورى: ١٣]، يقول ابن عاشور: «ذكر في جانب الشرائع الأربع السابقة فعل (وصّى) وفي جانب شريعة محمد ﷺ فعل (الإيحاء) لأن الشرائع التي سبقت شريعة الإسلام كانت شرائع مؤقتة مقدّراً وورود شريعة بعدها فكان العمل بها كالعمل الذي يقوم به مؤتمن على شيء حتى يأتي صاحبه»[3].

إن كون الشرائع مختلفة مؤقتة خاصة بأقوامها وأزمانها لا يُناقض ولا يخالف أن جميع الأنبياء والمرسلين وفي جميع الشرائع الإلهية والكتب السماوية السابقة قد جاءوا بدين واحد وهو الاستسلام لله تعالى بالتوحيد الخالص والعبودية والطاعة لله تعالى بكل ما أمر به من أوامر وتكاليف فالشرائع الإلهية تدخل في مسمى الدين من جهة أن العامل بها يدين لله تعالى بعمله ويخضع له ويتوجه إليه مبتغياً مرضاته وثوابه بإذنه[4]، وما هذه الشرائع الإلهية وتفصيلاتها إلا أجزاء من هذا الدين الواحد وصور ومظاهر له وهو سبحانه لم يتعبد عباده إلا بهذا الدين الواحد في روحه وحقيقته ومبادئه وأصوله إلا أنه قد سلك بهم لنيل ذلك والوصول إليه والتمكن منه مسالك مختلفة وسن لهم سنناً

---

(١) انظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج٢ ص٢٨١. رضا، تفسير المنار، ج٦ ص٣٤٥.

(٢) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج٣ ص٢١١. أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج٢ ص٢٨١.

(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢٥ ص٥٢.

(٤) رضا، تفسير المنار، ج٦ ص٣٤٣.

متنوعة على حسب عوامل ومقتضيات شتى واقعية ومنطقية[١].

إن الاختلاف بين الشرائع الإلهية في الكتب الإلهية كان في الأحكام العملية والتفصيلات الجزئية المنظمة لعلاقات الأفراد بخالقهم أو بعلاقاتهم فيما بينهم[٢]؛ بمعنى أنه كان في فروع الشرائع وجزئياتها وتفاصيلها من بعض وجوه الحلال والحرام وتفاصيل العبادات وفي المعاملات وشرائطها وأنواعها وحدودها[٣]، وقد بيّن القرآن أنه لو شاء الله - تعالى- لجعل جميع الأمم على شريعة واحدة يسيرون عليها ويعملون بها لكن إرادته وحكمته تعالى شاءت اختلاف الشرائع مراعاة للحكم البالغة والمصالح النافعة لكل أمة في معاشها ومعادها المختلفة باختلاف عصورها وقرونها ليتناسب ذلك مع حكمة الابتلاء والاختبار التي وجد الإنسان من أجلها ليعرف المطيع العامل بما أنزل الله تعالى المتبع لأوامره فيثيبه وليعرف العاصي المخالف لهدي الله تعالى فيعاقبه[٤]، قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة: ٤٨].

إن اختلاف الشرائع الإلهية في فروعها وتفصيلاتها كان لحكمة بالغة منه سبحانه وتعالى وذلك لتتناسب كل شريعة مع أصحابها ولتتحقق سنة الابتلاء والاختبار على أحكم وأعدل وأقوم وجه من وجوه حكمته تعالى وتصرفه وعلمه بمن خلق، ذلك أن من مقتضيات الخطاب الإلهي والتكليف الرباني للبشر بأوامر ونواه وتكليفات تعبدية أن

---

(١) انظر: محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ط٢ منشورات مؤسسة الأعلمي بيروت ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م، ج٥ ص٣٥٩.

(٢) عبد الكريم زيدان، المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية، ط١٥ مؤسسة الرسالة ١٤١٦هـ/ ١٩٩٨م، ص٦١.

(٣) انظر: محمد سيد طنطاوي، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، راجعه: عبد الرحمن العدوي د. ط دار المعارف (د. ت)، ج٤ ص١٨٤. وانظر: الدرويش، الشرائع السابقة ومدى حجيتها في الشريعة الإسلامية، ص١٤٨.

(٤) انظر: الطبري، جامع البيان، ج٤ ص٦١٢. أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج٢ ص٢٨١.

يكون على قدر عقولهم ومستوى أفهامهم وإدراكهم واستعدادهم وأن يراعي التطور والتقدم للجماعات البشرية ككل وأن يراعي المستويات الحضارية للشعوب[١]، فمن سنن الله تعالى ومشيئته أن جعل الإنسان «نوعاً ذا عقل وفكر واستعداد للفهم والعلم يرتقي في أطوار الحياة بالتدريج ويخضع لسنة الارتقاء فلا تصلح له شريعة واحدة في كل أطواره وفي سائر جماعاته[٢].

كما أنّ من مظاهر رحمته تعالى ولطفه أن جعل المقصد الأعظم من تفصيلات الشرائع وفروعها قائمة على إصلاح أحوال الناس وشؤونهم وأحوالهم ودرء كل ما يؤدي إلى إفسادهم في دينهم ودنياهم فلا يوجد شريعة سماوية إلا وهي قائمة على مراعاة المصالح من درء المفاسد أو جلب منافع ومصالح[٣]، ومن هنا جاءت حتمية اختلاف فروع الشرائع وتفصيلاتها فهو اختلاف يتلاءم مع تبدل الزمان والمكان واختلاف ظروف الأمم والجماعات وتجدد الوقائع ومن ثمّ اختلاف المصالح والحاجات واختلاف سبل وأساليب تحقيقها حسبما تقتضيه طبيعة القوم وطبيعة العصر فما يصلح لزمان قد لا يصلح لزمان آخر وما يتفق مع مصالح قوم قد لا يتفق مع مصالح أقوام آخرين[٤].

وقد بقيت سنة الله تعالى في اختلاف تفاصيل الشرائع وفروعها قائمة مع اختلاف الرسل والكتب السماوية إلى حين مجيء شريعة القرآن العظيم الخالدة المعجزة والتي نسخت جميع الشرائع الإلهية التي سبقتها - كشريعة التوراة وشريعة الإنجيل- وصدقتها وهيمنت عليها إذ كانت شرائع مؤقتة محددة للقوم الذين نزلت فيهم ولا تلبي

---

(١) انظر: مكي، الديانة الإسلامية، ص١٤٨.

(٢) المراغي، تفسير المراغي، ج٦ ص١٣١.

(٣) انظر: محمد أمين الطرابلسي، الأعمال والمصالح في أصول الأديان وشرائع العمران، (د.ط.) (دار النشر غير معروفة) ١٣٢٦هـ، ص٣. وانظر: ابن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، ص٢٧٦.

(٤) انظر: الذهبي، الإسرائيليات في التفسير والحديث، ص١١.

إلا مصالحهم وما فيها من مناهج وطرائق للحياة غير صالحة إلا لهم ولوقتهم[١]، قال تعالى: ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الحج: ٦٧] بمعنى أن لكل أمة معينة من الأمم الخالية والباقية شريعة خاصة ومُتعَبّداً معيناً لهم ومنهاجاً صالحاً يسيرون على نهجه[٢]، ويقول الالوسي: «إن الأمة التي كانت من مبعث موسى إلى مبعث عيسى عليهما السلام منسكهم ما في التوراة هم عاملون به لا غيرهم والتي من مبعث عيسى عليه السلام إلى مبعث نبينا ﷺ منسكهم ما في الإنجيل هم عاملون به لا غيرهم وأما الأمة الموجودة عند مبعث النبي محمد ﷺ ومن بعدهم من الموجودين إلى يوم القيامة فهم أمة واحدة منسكهم ما في القرآن ليس إلا»[٣].

إن الشرائع الإلهية قد تختلف في مناهج شرعها وأحكامها وفي كمياتها وكيفياتها ومقاديرها وأوقاتها وقد تختلف في كثير من الشروط والقيود[٤]، ولكنها جميعاً بما فيها الشريعة الخاتمة كانت الغاية الأولى التي أرادت تحقيقها هو إقامة العباد على منهج العبودية والطاعة الخالصة لله تعالى بما يؤسس نظام الحياة الإنسانية على فطرة الدين الذي فطر الله عباده عليه وإبعاده عن كل ما يصادم هذه الفطرة من المنكرات والباطل وقد كانت كل شريعة من هذه الشرائع منهجاً كاملاً لحياة الفرد وحياة الجماعة[٥].

---

(١) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢٥ ص٥٢. الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج١٨ ص٢٨.

(٢) انظر: البيضاوي، أنوار التنزيل، ج٤ ص١٣٩. أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج٤ ص٣٩٥.

(٣) الألوسي، روح المعاني، ج٧ ص١٨٥.

(٤) انظر: عبد الله سراج الدين، هدي القرآن الكريم إلى الحجة والبرهان، ط٢ مكتبة الفلاح- حلب ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م، ص١٤٠.

(٥) انظر: عمر سليمان الأشقر، خصائص الشريعة الإسلامية، ط٣ دار النفائس الأردن مكتبة الفلاح الكويت، ص١٤ و٢٦.

المطلب الثاني

شريعة التوراة الإلهية

شريعة التوراة الإلهية من أبرز الشرائع السابقة للإسلام وأشهرها وهي شريعة بني إسرائيل الذين نزل فيهم موسى عليه السلام وهي من أوسع وأشمل الشرائع السابقة في تشريع الأحكام[١] وقد اعتبرت التوراة الإلهية أول كتاب سماوي شامل نزل متضمناً لشريعة كاملة البناء بحيث غدا إماماً لبقية الكتب الإلهية السابقة للقرآن الكريم[٢] قال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ [هود: ١٧].

ومما يدلل على احتواء التوراة الإلهية على مجموعة كبيرة من الأحكام والشرائع الربانية والتي شرعها الله تعالى لبني إسرائيل قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٣] فقوله: ﴿فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ﴾ تدل على أن التوراة التي أنزلها الله على موسى تتضمن أحكام وشرائع ربانية[٣]. ويقول تعالى: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٤] فتعبيره تعالى عن التوراة بـ (الكتاب) يدلل على أنه كتاب شريعة وأحكام[٤] وقوله ﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾: أي مفصلاً لكل شيء من أحكام الشريعة عباداتها ومعاملاتها مدنية كانت أو حربية أو جنائية[٥].

---

(١) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢٥ ص٥١. وانظر: الدرويش، الشرائع السابقة ومدى حجيتها في الشريعة الإسلامية، ص١٦٥.

(٢) انظر: محمد حسين فضل الله، من وحي القرآن، ط٢ دار الملاك بيروت ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، ص٤٣. وانظر: محمد خليل هراس، دعوة التوحيد، ط١ دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ص١٦٩.

(٣) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، العقيدة الإسلامية وأسسها، ط٦ دار القلم دمشق ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، ص٤٧٥.

(٤) انظر: المراغي، تفسير المراغي، ج٣ ص٧٩.

(٥) المراغي، تفسير المراغي، ج٣ ص٧٩.

وقد كانت شريعة التوراة الإلهية قائمة على مراعاة مصالح أهلها متلائمة مع زمانهم مناسبة لحالهم ولأحوالهم ولطبائعهم وواقعهم النفسي والبيئي، إذ كانت التكاليف الإلهية والأحكام المشروعة لهم وتفاصيلها أكثر ما يميزها الشدة والصرامة وكانت آصاراً وأغلالاً على أهلها الذين غلبت على طباعهم الغلظة وعلى قلوبهم القسوة وتمسكهم الشديد بالمادة، فكانت هذه الشريعة وشدتها علاجاً لحالهم وإعادة لهم إلى جادة الاعتدال[١] ويقول المراغي: «إن شريعة التوراة مبنية على الشدة وليس لأهلها فيها رأي ولا اجتهاد إذ هي نزلت لقوم ألفوا الذل والاستعباد فوجب أخذهم بالشدة والصرامة»[٢].

وكان من أهم أوصاف النبي ﷺ المكتوبة عندهم في التوراة الإلهية أنه يأتي ليخفف وطأة هذه التكاليف الشاقة وما في شرائعهم من ضيق وحرج أو ليبطل تشريعها[٣] قال تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْۚ﴾ [الأعراف:١٥٧]. والإصر: الثقل الذي ألزمه الله بني إسرائيل في فرائضهم وأحكامهم ووضعه عن المسلمين والأغلال: تحريم الله عليهم كثيراً مما أطلقه لأمة محمد[٤] ﷺ فبنو إسرائيل قد أخذ عليهم العهد في التوراة الإلهية أن يقوموا بتكاليف كثيرة منها مشاق عظيمة وشرائع فيها حرج وضيق وكانت هذه التكاليف والشرائع المكتوبة عليهم أثقالاً وأغلالاً شديدة عليهم في أحكام العبادات والمعاملات الشخصية والمدنية والعقوبات[٥].

وقد أشار القرآن الكريم إلى شدة ما كلفهم الله تعالى به وثقل ما ألزمهم به من

---

(١) انظر: أبو زهرة، زهرة التفاسير، ج٢ ص٢٢٢٩. وهبة الزحيلي، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، ط١ دار الفكر بيروت دار الفكر المعاصر دمشق ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، ج١٧ ص٢٧٠.

(٢) المراغي، تفسير المراغي، ج٦ ص١٣١.

(٣) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٩ ص١٣٦.

(٤) ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ)، تأويل مشكل القرآن، إعداد: عمر عبد العزيز، مراجعة: عبد الصبور شاهين، ط١ مركز الأهرام للترجمة والنشر القاهرة ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م، ص١٢٠.

(٥) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ص٣٠٠. الجصاص، أحكام القرآن، ص٣٢٧. المراغي، تفسير المراغي، ج٩، ص٨٣.

شرائع في مثل قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] أي لا تكلفنا بعهود ومواثيق بما يثقل عمله ونعجز عن أدائه والامتثال فيه، مثل ما كلفت به بعض الأمم الماضية كبني إسرائيل من الأحكام الشاقة وأخذت عليهم العهود والمواثيق للقيام بهذه التكاليف والأعمال الشاقة الثقيلة فعجزوا عن القيام بها فعوجلوا بالعقوبة[(١)].

ومن أبرز ما ذكره القرآن الكريم من شرائع بني إسرائيل والتي جاء القرآن الكريم مصدقاً لها ومشيراً إلى انتهاء مشروعيتها وأنها كانت شرعاً لهم خاصة كالمحرمات من الأطعمة كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦] فهذا إخبار منه سبحانه وتعالى أنه قد كتب على بني إسرائيل[(٢)] في التوراة الإلهية تحريم هذه الأصناف من المطعومات والتي حرمت عليهم دون غيرهم[(٣)].

وأصناف الأطعمة أو الطيبات التي حرمت عليهم - دون غيرهم - نوعان: أولاً: كل ذي ظفر غير مشقوق الأصابع كالإبل والنعام والأوز والبط ثانياً: شحوم البقر والغنم: وهي الشحوم الرقيقة التي تكون على الكرش والكُلى واستثنى الله تعالى من

---

(١) انظر: الطبري، جامع البيان، ج٣ ص١٥٧. ابن عاشور التحرير والتنوير، ج٣ ص١٤١.

(٢) لعل في تعبير القرآن عن بني إسرائيل في الآية الكريمة بـ ﴿ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ إشارة إلى أنهم قد انتسبوا إلى الديانة اليهودية وأن أصلهم من بني إسرائيل قوم موسى عليه السلام إذ إن بني إسرائيل من قوم موسى عليه السلام هم الذين كانوا مخاطبين بشرائع التوراة ومن نزل فيهم الوحي أما الديانة اليهودية فهي ديانة وضعية وقد ظهرت بعد عهد موسى بوقت طويل. انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١ ص٥٣٢. وانظر: (بنو إسرائيل واليهود في القرآن الكريم) بهجت عبد الرزاق الحباشنة، (كتاب «اليهودية» للدكتور أحمد شلبي في ميزان القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة) مجلة مؤتة للبحوث والدراسات، المجلد الثامن عشر العدد السابع ٢٠٠٣م، ص٩٢-٩٩.

(٣) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج٤ ص١٢٦. وانظر: أبي بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي (ت ٥٤٣هـ)، أحكام القرآن، علق عليه: محمد عبد القادر عطا (د. ط.) دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ج٢ ص٢٩٦.

الشحوم ثلاثة أنواع لم يحرمها عليهم وهي: ما علق بالظهر المباعر والمصارين شحم الإلية[١].

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ﴾: إشارة إلى أن هذا التكليف عليهم إنما هو بلوى وعقوبة لهم على طريق التشديد عليهم في التكليف لظلمهم وبغيهم ومخالفتهم لأوامر الله وتجاوزهم لحدوده بارتكاب المعاصي زمن موسى عليه السلام[٢]، ولعل بغيهم قد نشأ عن صلابة نفوسهم وقسوة قلوبهم وتغليبهم شهواتهم الحيوانية على قواهم الملكية والفطر السليمة ففي ذلك إشارة إلى أن هذا التحريم كان مؤقتاً على بني إسرائيل لحكمة خاصة بأحوالهم وطبائعهم[٣]، وكما قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٠]. أي حرمنا عليهم ذلك لأنهم يستحقون ذلك بسبب بغيهم وطغيانهم ومخالفتهم رسولهم واختلافهم عليه[٤] والطيبات في هذه الآية هي ذات المحرمات التي ذُكرت آنفاً من أصناف الأطعمة[٥]، فهي من الطيبات ولم تُحرّم لذاتها أو لخباثتها كما حُرّم عليهم ما في قوله تعالى: ﴿قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [الأنعام: ١٤٥]. فهذه الأنواع الأربعة من الأطعمة محرمة لذاتها ولخباثتها، وهي ما حرّمه الله سبحانه في شريعة القرآن الكريم وهي أصل من أصول شرائع جميع رسل الله تعالى[٦].

ومن الاصار والأغلال التي فرضت على بني إسرائيل في شريعة التوراة الإلهية تحريم العمل والكسب الدنيوي والتفرغ للعبادة في يوم السبت وإلزامهم العقوبة الشديدة

(١) الزحيلي، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، ج٨ ص٨٦.

(٢) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج٤ ص١٢٦. رضا، تفسير المنار، ج٨ ص١٢٩. ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٨ ص١٤٣.

(٣) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٨ ص١٤٢.

(٤) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ص٥٥٩.

(٥) انظر: الجصاص، أحكام القرآن، ج١ ص٤١١.

(٦) انظر: رضا، تفسير المنار، ج٨ ص١٢٩.

لمن يخالف ذلك قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النحل: ١٢٤]. وقوله: ﴿جُعِلَ ٱلسَّبْتُ﴾ أي فرض على بني إسرائيل تعظيم يوم السبت وأخذت عليهم العهود المؤكدة في التوراة الإلهية بأن يتمحضوا فيه للعبادة وطاعة الله تعالى وأن يجتهدوا في الأعمال الدينية وأن يتجردوا لها وقد حرم عليهم أن يعملوا في هذا اليوم عملاً دنيوياً وأن يتركوا التبسط في المعاش فكان في ذلك تشديداً وتغليظاً عليهم[١] قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ١٥٤].

وقوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ فيه إشارة إلى العلة والسبب لجعل يوم السبت وأحكامه أثقالاً وأغلالاً على أهل التوراة الإلهية ذلك أن موسى عليه السلام قد أمر قومه بأن يتفرغوا يوماً واحداً من الأسبوع للعبادة بحيث يجتمعون فيه ويتفرغون من أعمالهم لطاعة الله وحده وقد عرض عليهم أن يكون يوم الجمعة فأبوا عليه واختاروا يوم السبت لأنه اليوم الذي فرغ الله فيه من خلق السماوات والأرض فألزمهم الله تعالى إياه وصيّره تشديداً وابتلاءً وعذاباً عليهم وذلك لاختلافهم في شأنه وأنهم آثروه على اليوم الذي أمر الله تعالى به فألزموا أنفسهم عكس ما اختاره لهم[٢]، ويقوّي ذلك قوله ﷺ: «نحن الاخرون السابقون يوم القيامة بيْد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا ثم هذا - أي يوم الجمعة - يومهم الذي فرض عليهم فاختلفوا فيه فهدانا الله فالناس لنا فيه تبع: اليهود غداً والنصارى بعد غد»[٣].

وقد ذكر الله سبحانه العقوبة الشديدة التي أوقعها على من اعتدى على حرمة يوم السبت وخالفوا أمر الله تعالى بعدم العمل والاكتساب فيه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ

---

(١) انظر: الطبري، جامع البيان، ج٤ ص٣٤٨. الطبري، الجامع لأحكام القرآن، ج٥ ص٢٠٠. الالوسي، روح المعاني، ج٧ ص٤٨٦.

(٢) انظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج٧ ص٤٨٦ وج٤ ص١٠٣. وابن العربي، أحكام القرآن، ج٣ ص١٧٠. الزحيلي، التفسير المنير، ج٦ ص١٩.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة باب فرض الجمعة برقم (٨٣٦)، ج١ ص٢٩٩.

ﱡﭐ ﭐٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِي ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﱠ [البقرة: ٦٥] يقول الالوسي: «وظاهر القرآن أنهم مُسخوا قردة على الحقيقة وعلى ذلك جمهور المفسرين وهو الصحيح وذكر غير واحد أنهم بعد أن مُسخوا لم يأكلوا ولم يشربوا ولم يتناسلوا ولم يعيشوا أكثر من ثلاثة أيام»[١].

ومن الواضح أن الله تعالى قد شرع في كل ملة يوماً من الأسبوع يتفرغ الناس فيه لعبادة الله وطاعته ويجتمعون ويلتقون على ذلك تجديداً لفطرة العبودية في نفوسهم ولحكم جليلة لهذا الاجتماع لا تخفى على الجميع ومن نعمه تعالى أن شرع لهذه الأمة يوم الجمعة وأتمّ عليهم النعمة به لفضائل هذا اليوم ولعظمه عند الله تعالى وقد خفف عليهم فيما يترتب على ذلك من فروض وواجبات[٢]، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝ ﴾ [الجمعة: ٩-١٠] وقوله: ﴿ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَۚ ﴾ كما يقول القرطبي: «أي اتركوا المعاملة بالبيع وصورة البيع غير مقصودة وإنما المقصود ما يشغله عن ذكر الله مثل النكاح وغيره وذكر البيع لأنه أهم ما يشتغل به عن ذكر الله»[٣] فإذا انقضت الصلاة رجع كل إلى عمله وتجارته إن أراد.

ومن أهم الأحكام والشرائع التي كانت آصاراً أو أغلالاً في التوراة الإلهية تعيين القصاص في العمد والخطأ من غير شرع الدية[٤] قال تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌۚ ﴾ [المائدة: ٤٥] فهذا إخبارٌ عما فرض الله تعالى على بني إسرائيل

---

(١) الالوسي، روح المعاني، ج١ ص٢٨٣.

(٢) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ص١٠٨٠.

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج٥ ص٢٦.

(٤) انظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج٣ ص٣٨. أبو حيان، البحر المحيط، ج٥ ص١٩٥. البيضاوي، أنوار التنزيل، ج٣ ص٦٤.

وأوجب عليهم في التوراة الإلهية من التماثل والمساواة في القصاص: في النفس وفي الأعضاء المذكورة[١]، فقوله: ﴿ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ أي تقتل النفس إذا قتلت نفساً بغير حق ولا يُقبل العفو عنه ولا يُقبل منه الدية[٢].

وقد شرّف سبحانه وتعالى أمة محمد ﷺ بتشريع الدية، كما روى البخاري عن ابن عباس قال: «كان في بني إسرائيل القصاص ولم تكن فيهم الدية فقال الله لهذه الأمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ﴾ فالعفو أن يقبل الدية في العمد ﴿فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾ يتبع المعروف، ويؤدي بإحسان ﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ مما كتب على من كان قبلكم ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٨] قتل بعد قبول الدية»[٣].

وأيضاً كان من أهم الاصار والشدائد في شريعة التوراة ما أشار إليه القرآن الكريم من أن الله تعالى قد أمر بني إسرائيل بقتل أنفسهم وذلك علامة على توبتهم أو كشرط في صحة التوبة من عبادتهم للعجل، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٥٤] وكان الفعل الذي فعلوه فظلموا به أنفسهم هو ما أخبر الله عنهم: من ارتدادهم باتخاذهم العجل ربّاً بعد فراق موسى إياهم[٤]، وقوله: ﴿فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ القتل هنا هو القتل على الحقيقة المعروف من إزهاق الروح[٥]، والأمر بالقتل للتوبة من المعصية من موسى عليه السلام هو تشريع

---

(١) انظر: الجصاص، أحكام القرآن، ج٢ ص٦١٧. الزحيلي، التفسير المنير، ج٦ ص٢٠٧.

(٢) انظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج٢ ص٢٨٧. وانظر: محمد بن إدريس الشافعي، (ت٢٠٤هـ)، أحكام القرآن، تحقيق: عبد الغني عبد الخالق، (د.ط.) دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٠هـ، ج١ ص٢٧٦.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير باب ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ...﴾ برقم (٤٢٢٨)، ج٤ ص١٦٣٦.

(٤) الطبري، جامع البيان، ج١ ص٣٢٥.

(٥) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج١ ص٤٠٢. أبو حيان، البحر المحيط، ج١ ص٣٣٥.

حكم لا بد وأن يكون بوحي من الله تعالى وظاهر الاية أن طريق التوبة من المعاصي وتطهير النفس من الكبائر في شريعة التوراة الإلهية متقررة بقتل النفس المذنبة[١].

وقوله تعالى: ﴿فَاقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ لا تعني أن على كل واحدٍ ممن عبدوا العجل بأن يقتل نفسه بيده وإنما أمر من لم يعبده بقتل من عبده يقول البقاعي: «لما كانت توبتهم بقتل أقاربهم وإن كانوا آباء أو أبناء عبّر عنهم بالنفس لذلك وأشار إلى خبث ما ارتكبوا فقال: ﴿فَاقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي التي أوجدها - سبحانه - فقادتكم إلى غيره»[٢] أو قد يكون جعلهم أنفسهم للإشارة إلى أن المؤمنين أخوة - كالجسد الواحد- فأخو الرجل كأنه نفسه[٣].

وقوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ إشارة إلى أنه قد عفى عنهم بعد أن استجابوا لأمره واستحرّ فيهم القتل وأعطوا المجهود في قتل بعضهم البعض حتى بلغ فيهم مبلغاً عظيماً[٤]، وفيه إشارة إلى عظم نعمة الله على أمة محمد ﷺ في تشريع التوبة من الذنوب والمعاصي بدون هذا التشديد العظيم[٥].

---

(١) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج١ ص٤٠٢. أبو حيان، البحر المحيط، ج١ ص٣٣٥. الالوسي روح المعاني ج١ ص٢٦١. الزحيلي، التفسير المنير، ج١ ص١٦٢.

(٢) البقاعي، نظم الدرر، ج١ ص١٣٥.

(٣) المراغي، تفسير المراغي، ج١ ص١٢٠.

(٤) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج١ ص٤٠٢. محمد بن جزّي الكلبي (ت ٧٤١هـ) التسهيل لعلوم التنزيل، ضبطه: محمد سالم هاشم ط١ دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، ج١ ص٦٧.

(٥) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج١ ص٤٠٢.

المطلب الثالث

شريعة الإنجيل الإلهي

إن الإنجيل الإلهي كتاب شريعة وأحكام، وعيسى عليه السلام مستقلّ بشريعته مأمورٌ وقومه بأن يعملوا بما فيه من أحكام وإلى جانب العمل بما في التوراة الإلهية[١] - وإن كانت شريعته لا تصل إلى عظم شريعة التوراة وأصالتها - فهو قد جاء مصدقاً لها ناسخاً لبعض من أحكام التوراة مبيناً وشارحاً لكثير من نصوصها وأحكامها إضافة لذلك فقد جاء مكملاً ومتمماً للأمور المستجدة والتي لا بد وأن تختلف مع اختلاف العصور قال تعالى: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠].

وهناك رأي ذكره الشهرستاني في الملل والنحل وهو أن «الإنجيل النازل على المسيح عليه السلام لا يتضمن أحكاماً ولا يستبطن حلالاً ولا حراماً ولكنه رموز وأمثال ومواعظ ومزاجر وما سواها من الشرائع فمحالةٌ على التوراة»[٢] ولكني أراه رأياً مرجوحاً لأن الله سبحانه قد ذكر الإنجيل الإلهي في العديد من الايات ككتاب إلهي مستقل وإن كانت علاقته بالتوراة الإلهية من قبله قوية جداً لكن اختلاف العصور وتبدل الطبائع والأحوال تحتم أن يتناسب ما في هذا الكتاب الإلهي مع مصالح من نزل فيهم وذلك مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨] وقوله تعالى في ذات السياق: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧] ففي هذه الآية دلالة واضحة على أن الإنجيل مشتمل على الأحكام وأن عيسى عليه السلام كان مستقلاً بالشرع مأموراً بالعمل بما فيه من الأحكام قلّت أو كثرت لا بما في التوراة خاصة[٣].

---

(١) انظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج٢ ص٢٧٩.

(٢) محمد بن أبي بكر الشهرستاني (ت ٥٤٨هـ)، الملل والنحل، تحقيق: محمد سيد كيلاني (د. ط.) دار المعرفة بيروت ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ج١ ص٢٠٩.

(٣) أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج٢ ص٢٧٩.

وشريعة الإنجيل الإلهي وأحكامها هي تبعٌ لشريعة التوراة الإلهية والعلاقة بينهما لا يمكن فصلها، وعيسى عليه السلام وكل من اتبع ما جاء به من هدى كانوا ملزمين بقراءة التوراة مع الإنجيل والتطبيق والعمل بما أراده الله سبحانه أن يبقى مستمراً في شريعته مما جاء الإنجيل مصدقاً له آمراً بدوام العمل بما فيه[1]، والدعوة إلى إحياء أحكام التوراة والعمل بما فيها من شريعة عظيمة كان مستمراً في جميع أنبياء بني إسرائيل من قبل عيسى عليه السلام كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٨٧] فقوله: ﴿وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ﴾ يقول فيه الطبري: «أي اتبعنا بعضهم بعضاً على منهاج واحد وشريعة واحدة لأن كل من بعثه الله نبياً بعد موسى عليه السلام إلى زمان عيسى فإنما بعثه يأمر بني إسرائيل بإقامة التوراة والعمل بما فيها والدعاء إلى ما فيها[2]، ولا شك أن إقامة التوراة وتنفيذ أحكامها في عهد عيسى عليه السلام كان بحكم ما جاء في الإنجيل ومما بقي منها غير منسوخ فهو عليه السلام قد سلك مسلك من سبقه من النبيين في تنفيذ أحكام التوراة كلٌ بحسب ما أمر الله وحكم له به[3] قال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾ [المائدة: ٤٦].

وقد علم الله سبحانه التوراة لعيسى عليه السلام وامتنّ عليه بتعليمه إياها مع الإنجيل كما قال تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [آل عمران: ٤٨] ولو لم يكن مأموراً بالعمل بها بجانب الإنجيل ولو لم تكن شريعة له ولقومه مع الإنجيل لما كان في تعليمه إياها فائدة[4]، وتعليمه التوراة بتفقيهه سبحانه عيسى في التوراة وتعليمه أسرارها وبيان أحكامها وإرشاد قومه إلى معانيها وأسرارها ومغازيها وإقامة

---

(١) انظر: ابن تيمية، مجموعة الفتاوى، ج١٩ ص١٠١.

(٢) الطبري، جامع البيان، ج١ ص٥٦٨.

(٣) انظر: أبو زهرة، زهرة التفاسير، ج٤ ص٢٢١٦.

(٤) انظر: الدرويش، الشرائع السابقة ومدى حجيتها في الشريعة الإسلامية، ص١٦٦.

الحجج عليهم بنصوصها[١].

وتبعية شريعة عيسى عليه السلام لشريعة التوراة الإلهية تقتضي أنّ ما في التوراة من آصار وأغلال قد استمر في شريعة الإنجيل وأن عيسى عليه السلام ما جاء ليخفف إلا من بعض هذه الاصار والأحكام المادية قال تعالى على لسان عيسى عليه السلام: ﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ [آل عمران: ٥٠] وقوله تعالى: ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. عن سيدنا محمد ﷺ يقتضي أن الاصار والأغلال لم تزُل عنهم بشريعة الإنجيل بل هي باقية إلى مجيء شريعة القرآن العظيم شريعة الرحمة والوسطية[٢] أو قد تكون الشدة والاصار في شريعة الإنجيل الإلهي بما هو مشتهر عن عيسى عليه السلام أنه قد جاء مشدداً في الأحكام الروحية داعياً إلى التساهل وشدة المسامحة وداعياً إلى العناية بتربية الوجدانات النفسية[٣]، يقول محمد رشيد رضا: «خفف المسيح عنهم بعض التخفيف في الأمور المادية وشدّد عليهم في الأحكام الروحية لما كان من إفراطهم في الأولى وتفريطهم في الثانية ليكمل استعدادهم للشريعة الوسطى العادلة السمحة الرحيمة التي يبعث بها خاتم الرسل الذي وجب على كل من أدركه من الرسل وأقوامهم الإيمان به»[٤].

إن من أهم مقومات شريعة الإنجيل الإلهي: هي بيان الحلال والحرام وإقرار المنهج السابق والاستمرار عليه ومراعاة شؤون المجتمع وتنظيم أموره بما يتلاءم مع الأوضاع في عصره وبما يحقق الأهداف والمقاصد والمصالح المرجوة[٥]، قال تعالى: ﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ [آل عمران: ٥٠] فبينت هذه الاية الكريمة

---

(١) انظر: رضا، تفسير المنار، ج٣ ص٣١٠. المراغي، تفسير المراغي، ج٣ ص١٥٧.
(٢) انظر: الدرويش، الشرائع السابقة، ص١٦٧.
(٣) انظر: المراغي، تفسير المراغي، ج٩ ص٨٣ وج ٦ ص١٣١.
(٤) رضا، تفسير المنار، ج٩ ص١٩٥.
(٥) انظر: قطب، في ظلال القرآن، م١ ص٣٩٠.

أن عيسى عليه السلام كان عاملاً بالتوراة وبشريعتها وداعياً إلى العمل بها وإحياء أحكامها المهجورة التي ترك العمل بها[1]، بالإضافة لذلك فقد جاءت شريعته معدلة وناسخة لبعض شرائع وأحكام التوراة وليس النسخ لكامل الشريعة وجاء محللاً لبعض الأمور مما حرمه الله تعالى على بني إسرائيل في توراتهم الإلهية وذلك مراعاة للأحوال والمصالح إثر اختلاف الأزمنة وتبدل العصور وتغير الطبائع[2].

وكونه عليه السلام جاء ناسخاً لبعض أحكام التوراة لا ينافي ولا يُخل بتصديق الإنجيل الإلهي لشريعة التوراة أو اتباعه لها ذلك أن نسخه لبعض الأحكام لا يعني إبطال الشريعة أو رفع شيء من أحكام التوراة ونصوصها بل حقيقة النسخ - في هذه الاية - أنه بيانٌ وإعلام بتغير الحكم وانتهاء زمانه والحكم عليه بأنه كان خاصاً بذلك الزمان فقط وأن الله تعالى لحكمته وعلمه بما يتلاءم مع كل عصر ولما يصلح لكل جيل أراد أن يخفف عن أهل التوراة بشريعة الإنجيل بعضاً مما كان مشدداً عليهم فيها وبما يصلح لأحوالهم واختلاف أزمانهم[3]، وما دام أن البشارة بعيسى عليه السلام والدعوة إلى الإيمان به واتباع شرعه موجود في التوراة الإلهية من قبل فلم يكن مجيئه عليه السلام ومجيء شرعه مناقضاً للتوراة بل هو مزيدٌ لدواعي التصديق بها والعمل بمقتضاها[4].

وقوله: ﴿ بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ في الغالب أن عيسى أحلّ لهم ما حرّمه الله تعالى في شريعة التوراة من أصناف (أو بعض أصناف) الأطعمة والطيبات والتي حُرّمت عليهم بسبب ظلمهم وبغيهم[5].

---

(١) انظر: أبو حيان، البحر المحيط، ج٣ ص١٦٨. ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٣ ص٢٥٣.

(٢) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ص٣٦٧. أبو حيان، البحر المحيط، ج٣ ص١٦٨. الألوسي، روح المعاني، ج٢ ص١٦٤.

(٣) انظر: الطبري، جامع البيان، ج٣ ص٢٨٠. الخفاجي، حاشية الشهاب، ج٣ ص٥٤. الألوسي، روح المعاني، ج٢ ص١٦٤. أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج١ ص٣٧٢.

(٤) انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ج٣ ص٢٣٠.

(٥) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج٢ ص٩٦. أبو حيان، البحر المحيط، ج٣ ص١٦٨. =

وهناك منحىً آخر في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ وهو أن عيسى عليه السلام لم ينسخ من شريعة التوراة شيئاً وأن ما أحلّه من المحرمات لم يكن مما حُرّم عليهم في التوراة الإلهية، وإنما أحل لهم بعض ما كانوا يتنازعون فيه مما حرّمه علماؤهم وأحبارهم بعد موسى وشرعوه تلبية لشهواتهم أو خطأً في الاجتهاد فكأن عيسى عليه السلام ردّ أحكام التوراة إلى حقائقها التي نزلت من عند الله تعالى وكشف لهم عن حقيقة ذلك(١).

إن شريعة الإنجيل الإلهي جاءت متممة لشريعة موسى عليه السلام في التوراة ومبينة لأحكامها وكان كل ما حواه الإنجيل من شرائع بمقتضى الحكمة الإلهية والتي تؤدي لا محالة إلى صلاح البشر وإصلاحهم ونبذ كل أسباب التنازع والاختلاف بينهم(٢)، قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ [الزخرف: ٦٣] وكان بنو إسرائيل اختلفوا فرقاً وشيعاً في كثير من شريعة التوراة الإلهية لغموض في معانيها أو لسوء تأويل منهم، فعمل عيسى عليه السلام على تجلية المعاني الخفية فيها فبين لهم بعضاً مما اختلفوا فيه مما يتعلق بأمور الدين وفهم التوراة، وبيّن لهم الحق في المسائل الخلافية في الأحكام والتكاليف وفروع الدين وقد يكون عيّن لهم أحكاماً للحوادث الطارئة المستجدة(٣).

ولم يبين لهم عليه السلام كل الذي يختلفون فيه من أمور مما لا ضرورة إلى بيانه ولا حاجة لهم إلى معرفته أو من الأمور التي لم يتعبدوا بمعرفتها في عصرهم - مثل علم الفلك كأسباب اختلاف تشكلات القمر مثلاً - أو كاختلاف الناس في بعض أمور

= البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج٢ ص٤٣. المراغي، تفسير المراغي، ج٣ ص١٦٤.

(١) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ص٣٦٧. أبو حيان، البحر المحيط، ج٣ ص١٦٨. الخفاجي، حاشية الشهاب، ج٣ ص٥٤.

(٢) انظر: أبو حيان، البحر المحيط في التفسير، ج٩ ص٣٨٦. المراغي، تفسير المراغي، ج٢٥ ص١٠٥.

(٣) انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ج٩ ص٦٤١. قطب، في ظلال القرآن، م٥ ص٣١٩٩. ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢٥ ص٢٤٧.

الدنيا - كطرق الفلاحة وما يصلح الزرع وما يفسده مثلاً- فهذه الأمور وغيرها من أمثالها لا يجب على الأنبياء بيانها وليس بيانها من وظائفهم التي بُعثوا أساساً إليها[١]، ويقول ابن عاشور: «إنما قال: ﴿بعض الذي تختلفون فيه﴾ إما لأن الله أعلمه بأن المصلحة لم تتعلق ببيان كل ما اختلفوا فيه بل يقتصر على البعض ثم يُكمّل بيان الباقي على لسان رسول يأتي من بعده يبين جميع ما يحتاج إلى البيان وإما لأن ما أوحي إليه من البيان غير شامل لجميع ما هم مختلفون في حكمه وهو ينتظر بيانه من بعد تدريجاً في التشريع كما وقع في تدريج تحريم الخمر في الإسلام»[٢].

جاء الإنجيل بشريعة سماوية مبينة ومتممة فضلاً عن كونها ناسخة ومعدلة بعض أحكام التوراة فهو قد جاء بشريعة متممة ومكملة لما في التوراة الإلهية من غير نقضٍ لها ولا بد أن الإكمال كان في فروع الشريعة وجزئياتها من الأحكام المتعلقة بتنظيم المجتمع في كل درجاته وأصنافه[٣]، قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [المائدة: ٦٨] فقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ يدل على أن الإنجيل الإلهي مكملاً ومتمماً للتوراة الإلهية فلولا أنها يكمل بعضها بعضاً لما أمرهم بإقامتها جميعاً[٤].

---

(١) انظر: البيضاوي، أنوار التنزيل، ج٥ ص١٥١. الألوسي، روح المعاني، ج٩ ص٩٥. المراغي، تفسير المراغي ج٢٥ ص١٠٥.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢٥ ص٢٤٧.

(٣) انظر: أبو زهرة، زهرة التفاسير، ج٤ ص٢٢٢٠.

(٤) الميداني، العقيدة الإسلامية وأسسها، ص٤٨٠.

المطلب الرابع

شريعة القرآن الكريم

هي شريعة أمة محمد ﷺ خاتم النبيين والمرسلين فهي خاتمة الشرائع السماوية السابقة وهي الواجب اتباعها والسير على هداها وإحياء شرائع القرآن الكريم إلى يوم الدين، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ١٨] أوصى الله سبحانه وتعالى نبيه محمد ﷺ وأمته باتباع شريعة القرآن (الشريعة الإسلامية) التي جعلها له ولأمته ولكل من يتبع هدي القرآن وشرعته من البشرية جمعاء، وهي الشريعة الباقية الثابتة بالدلائل والبينات والحجج، وهو مأمور عليه الصلاة والسلام بإجراء أحكامها على نفسه وعلى أمته وأن يداوم على اتباعها إتباعاً تاماً وأن لا يزعزعه شيء عن بيانها والدعوة إليها من غير إخلال بشيء منها أو التهاون فيه، فهي طريق وسنة ومنهاج الله الواضح الذي لا شك فيه والذي شرعه على أحسن وأشمل مما قبله من شرائع[١].

وقد جعل الله سبحانه شريعة القرآن العظيم وما فيها من فروع وتفصيلات خاتمة الشرائع الإلهية السابقة في الوقت الذي وصل فيه العقل البشري إلى طور الرشد والنضج العقلي وقد بلغ درجة من الارتقاء الفكري[٢]، وقد كان المقصد الأول لتشريعات القرآن هو مراعاة المصلحة لحياة الناس في دينهم ودنياهم فأقام لهم منهاجاً دائماً ثابتاً يضمن لهم مصالحهم وأسباب وطرائق وسبل عيشهم وأن يجمعهم على صراط من التحابب والتعاون فجاء منظماً لأمور البشر فيما بينهم وبين الله تعالى وفيما بين بعضهم البعض[٣]، قال تعالى- في سياق ذكره العديد من الأحكام الشرعية-:

---

(١) انظر: الطبري، جامع البيان، ج١١ ص٢٥٨. الرازي، مفاتيح الغيب، ج٩ ص٦٧٥. ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢٥ ص٣٤٨.

(٢) انظر: المراغي، تفسير المراغي، ج٦ ص١٣١.

(٣) انظر: محمد سعيد رمضان البوطي، من روائع القرآن، (د.ط) مكتبة الفارابي دمشق ١٩٧٥م، ص١٦٥.

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النساء: ٢٦] فقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ أي: يريد الله بإنزال هذه الايات أن يبين لكم التكاليف والأحكام الشرعية ويميز فيها الحلال من الحرام والحسن من القبيح ويرشد إلى ما فيه المصلحة(١)، وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ بعد ذكره طائفة من الأحكام الشرعية إشارة إلى أن هذه الشريعة أهدى مما قبلها حيث فيها التبيين والتفصيل للعديد من الأحكام التي هي في مواقع الشبهات والتي يحتاج الأمر فيها للتعريف والتوضيح إذ لا تخلو واقعة أو حادثة صغيرة كانت أم كبيرة من بيان حكم الله تعالى فيها إما بالنص وإما بالدلالة وهو كقوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨] ولا شك أن ذلك مما تميزت به شريعة القرآن العظيم دون غيرها من الشرائع السابقة كي لا يضل أهلها كما ضلّ من قبلهم(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ بمعنى يريد الله سبحانه بما شرعه لأهل القرآن من هذه التكاليف والأحكام الشرعية التي تتوافق مع مصالحهم ومنافعهم أن يهديهم إلى طرائق ومناهج الأنبياء والصالحين المتقدمين وطرقهم في العمل بمقتضى الفطرة وهداية الدين والشريعة ليقتفوا آثارهم ويسيروا سيرتهم ويتبينوا سبلهم التي أدت إلى إصلاح أحوالهم وشؤونهم كلّ بحسب مجتمعه وباختلاف أحوالهم وأزمانهم(٣)، فلا تعني هدايته تعالى أمة القرآن لسنن الذين من قبلهم: أن ما شرعه الله سبحانه من شرائع لهذه الأمة كان قد شرعه لأهل الشرائع السابقة بعينه بل المراد أن الله عز وجل كما قد شرع للأمم السابقين من الأحكام ما بهم حاجةٌ إليه وما اقتضته مصالحهم كذلك شرع لهذه الأمة ما بها الحاجة إليه وما تدعو إليه مصالحها فإن الشرائع والتكاليف وإن كانت مختلفة في أنفسها إلا أنها متفقة في باب المصالح(٤).

---

(١) الزحيلي، التفسير المنير، ج٥ ص٢٧.

(٢) انظر: الجصاص، أحكام القرآن، ج١ ص٢٤٢. القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج٣ ص١٤٧. ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٥ ص٢٠.

(٣) انظر: رضا، تفسير المنار، ج٥ ص٣١. الزحيلي، التفسير المنير، ج٥ ص٢٧.

(٤) محمد علي السايس وآخرون، تفسير آيات الأحكام، علق عليه: حسن سويدان، راجعه: محي الدين =

إن من أهم ما يميز شريعة القرآن العظيم وتفصيلاتها أن الله سبحانه وتعالى جعلها صالحة لكل زمان ومكان ولا تُراعي فقط مصالح أهلها ومن نزلت فيهم، وهذا بلا ريب راجع إلى إرادة الله تعالى بأن جعل القرآن معجزة أبدية بألفاظه ومعانيه وأحكامه وشرائعه فحكم القرآن هو حكم الله تعالى الذي لا يختلف باختلاف العصور ولا يتغير بتغير الأوقات لأنه شريعة الله الذي هو بكل شيء عليم يعلم الناس وما يصلح لهم في ماضيهم وقابلهم[(١)]. قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ﴾ [المائدة:٤٨]. والابتلاء في شريعة القرآن جعله الله سبحانه قائماً على منازعة الأهواء والشهوات وبمخالفة ومغالبة النفس الأمارة بالسوء كما قال تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس:٨] فكل ما في شرائع القرآن الكريم وإن كان في ظاهر بعضه مشقة على النفس لكنه في حقيقته مراعاة لمصالح العباد في دينهم ودنياهم وإصلاحاً لهم بما هو اللازم في نفعهم[(٢)].

إن شريعة القرآن بما فيها من فروع وتفصيلات جعلها الله سبحانه مبنية على التوسط والاعتدال وجعل السماحة من أكبر مقاصدها فهي قائمة على الوسطية بين التضييق والتساهل وتجمع ما بين مصالح الروح والجسد مما يسهل على النفس قبولها ودوام الالتزام بها[(٣)] قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣] وفيها يقول ابن عاشور: «الاية ثناء على المسلمين بأن الله قد ادخر لهم الفضل وجعلهم وسطاً بما هيأ لهم من أسبابه في بيان الشريعة بياناً جعل أذهان اتباعها سالمة من أن تروج عليهم

= ديب مستو، ط٢ دار ابن كثير دار القادري دمشق بيروت ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، ج٢ ص٤٣٩.

(١) أبو زهرة، زهرة التفاسير، ج٤ ص٢٢٢٥.

(٢) انظر: أبو زهرة، زهرة التفاسير، ج٤ ص٢٢٢٩. وانظر: إبراهيم بن موسى الشاطبي (ت ٧٩٠هـ)، الموافقات في أصول الشريعة، شرحه: عبد الله دراز وضع ترجمه: محمد عبد الله دراز فهرس موضوعاته: عبد السلام عبد الشافي (د. ط.) دار الكتب العلمية- بيروت ١٩٩٠م، ج١ ص٢٥٧.

(٣) انظر: ابن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، ص٢٦٨.

الضلالات التي راجت على الأمم»[١] .

وقوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦] فيه إشارة إلى النعمة العظيمة ببعثة سيدنا محمد ﷺ رحمة للعالمين ليضع عن كل من آمن به الاصار والأغلال التي كانت على من قبلنا فجاء بشريعة من أعظم أوصافها وميزاتها: السهولة واليسر واللين والسماحة والملاءمة للفطرة البشرية[٢] كما قال تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء: ٢٨] فمن فضل الله تعالى وإحسانه إرادته التخفيف على الناس والرفق بأمة القرآن الكريم وقد تمثّل في جميع أحكام الشريعة وتكاليفها من أوامر الله تعالى ونواهيه، وقد شرع الله سبحانه الرخص في كثير من الأحكام التي تبدو أنها شاقة على بعض الأفراد[٣] فالرخصة أصلها التخفيف عن المكلف ورفع الحرج عنه حتى يكون من ثقل التكليف في سعة واختيار بين الأخذ بالعزيمة والأخذ بالرخصة[٤] .

كما أن بعض المحرمات والتي يبدو فيها منازعة للنفس وشهواتها تمثل فيها الرفق والسماحة بأن فتح الله سبحانه أبواباً من الحلال بمقابل ما حرّمه ومنعه فجميع المحرمات أباح لنا من جنسها أضعاف ما حظر فجعل لنا مندوحة عن الحرام بما أباح لنا من الحلال[٥]، وكل ذلك من لطف الله تعالى وعلمه بضعف الإنسان فإنه في كثير من الأحيان يعجز عن مخالفة هوى نفسه وعدم صبره عن نداءات ما فيه من شهوات وغرائز وأيضاً يتمثل ضعفه في عدم قدرته على تحمل مشاق الطاعات وما يعتريه لذلك من الألم والحزن[٦] فقوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ يُظهر مزية شريعة القرآن العظيم بالمقابلة مع الشرائع السالفة وأنها الشريعة الأليق والأصلح للناس في كل زمان

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢ ص١٨ .

(٢) انظر: قطب، في ظلال القرآن، م١ ص٣٤٦.

(٣) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ص٤٦٦ . الزحيلي، التفسير المنير، ج٥ ص٢٩ .

(٤) الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، ج١ ص٢٣٠ .

(٥) السايس، تفسير آيات الأحكام، ج٢ ص٤٤١ .

(٦) انظر: السايس، تفسير آيات الأحكام، ج٢، ص٤٤١ . وانظر: إرشاد العقل السليم، ج٢ ص١٢٨ .

ومكان فهي قد راعت جميع أحوال الإنسان ورغباته واحتياجاته وما قد يطرأ عليه ولم تكن بذلك كالشرائع السالفة والتي كانت تراعي حال دون حال[١]، يقول سيد قطب: «هذا الدين كله بتكاليفه وعباداته وشرائعه ملحوظ فيه فطرة الإنسان وطاقته ملحوظ فيه تلبية تلك الفطرة وإطلاق هذه الطاقة والاتجاه بها إلى البناء والاستعلاء»[٢] كما قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨] فلم يُلزم الله سبحانه أمة محمد ﷺ في هذا الدين بتكاليفه وتشريعاته بما يشق عليهم إقامته أو بما يضيق عليهم ولا يطيقونه وما ألزم الله سبحانه عبداً من عباده بشيء فشق عليه فلا يكون إلا من باب الابتلاء والاختبار وسيجعل في أمره الفرج والمخرج[٣] بإذنه تعالى كما قال عزّ من قائل: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢].

وإن من أهم ما يترتب على كون شريعة القرآن الكريم لا حرج فيها ولا ضيق أنه يسهّل الالتزام والامتثال للجميع وبكل الطاقات البشرية وقدراتها والأهم من ذلك أنه يؤدي إلى استمرار ودوام هذا الامتثال والعمل بالتكاليف مع حصول غاية ومقصد الشريعة من هذه التكاليف ولا شك أن حصول المقصد مع سهولة العمل والالتزام به هو نعمة عظيمة على أهل شريعة القرآن خاصة[٤]، وقد جعل الله سبحانه وتعالى هذا الدين وهذه الشريعة في كل أمورها مبنية على التخفيف والتيسير والتوسعة وجعل ذلك قاعدة من قواعد الدين وإلى يوم الدين كما قال تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة: ٦] يقول محمد رشيد رضا: ما نفاه الله تعالى من الحرج في هذه الاية قاعدةٌ من قواعد الشريعة وأصلٌ من أعظم أصول الدين تبنى عليه وتتفرع عنه مسائل كثيرة»[٥] وهذا من أهم ما أهّل شريعة القرآن لأن تكون صالحة لكل زمان ومكان ومتناسبة مع مصالح البشرية لقابليتها بأن يتفرع عنها مسائل كثيرة للأمور

---

(١) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٥ ص٢٢.
(٢) قطب، في ظلال القرآن، م٤ ص٢٤٤٦.
(٣) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ص١٢٨٨.
(٤) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٧ ص٣٥٠.
(٥) رضا، تفسير المنار، ج٦ ص٢٢٥.

الطارئة أو المستجدة فهي شريعة مبنية على أصل الاجتهاد، والأحكام الدنيوية في فروع الشريعة وتفصيلاتها قليلة في القرآن الكريم إذ الأمر فيها مفوّض إلى الاجتهاد وطاعة أولي الأمر من أهل العلم والرأي والمكانة بحسب أحوال التشريع وقواعده وتغير الزمان والمكان والظروف والمصالح وكل ما جعل أمره قائماً على الشورى بين أولي الأمر من أهل المكانة والعلم والرأي كأمور القضاء والسياسة والاجتماع[١].

فهي شريعة دائمة لاءمت عصرها والعصور التي تلت ذلك وإلى يوم الدين جعلها الله سبحانه خاتمة الشرائع السماوية السابقة صدقتها وخلدت ذكرها ومن ثم هيمنت عليها ونسختها، فهي الشريعة الحق الصادقة المحفوظة بحفظ القرآن الكريم الذي تعهد الله تعالى بحفظه والتي اعتبرت إعجازاً تشريعياً عجز البشر عن أن يأتوا بمثلها بكل ما يميزها فكان الإعجاز التشريعي وجهاً من وجوه إعجاز القرآن الكريم.

---

(١) انظر: رضا، تفسير المنار، ج٦ ص٣٤٨. المراغي، تفسير المراغي، ج٦ ص١٣١.

المبحث الثالث

ما اختص به القرآن الكريم عن الكتب الإلهية السابقة

اختص القرآن الكريم من بين جميع الكتب الإلهية قبله بميزات وخصائص ذاتية شرفه الله تعالى بها تؤهله لمهمة قيادة الأرض إلى يوم الدين والاستغناء به عن كل ما سواه من مناهج وشرائع.

المطلب الأول

الإعجاز

كان الله عز وجل قد أيد كل من بعثه بوحي وكتاب إلهي من رسله الكرام - صلوات الله وسلامه عليهم- بمعجزة من عنده كدليل وبرهان وحجة يرى الناس فيها صدق الرسول وصدق ما يدعيه وأنها آية على أنه مبعوث من عند الله تعالى بوحي مصدره الله عز وجل وحده(١).

وقد امتازت معجزة النبي محمد ﷺ عن معجزات الأنبياء السابقين بأنها ذات كتابه الإلهي المنزل عليه بشرائع الله ومناهجه فكانت المعجزة عين الشريعة والمنهج لا ينفكان وهذه خصوصية حبا الله بها آخر كتبه الإلهية إذ كان ما سبقه - كالتوراة والإنجيل- كتب شريعة تضمنت أوامر الله ونواهيه فحسب.

والقرآن الكريم آخر الكتب الإلهية وقد نزل على قصد الثبات والدوام وإلى يوم القيامة لذلك لا بد أن يؤيد دائماً بمعجزات تحرسه وتلازمه ويشار إليها في أي وقت(٢).

واعتبرت معجزة القرآن وحجته هي أكبر المعجزات وأقوى الحجج إذ إن كل ما في القرآن من دعوة إلى الله وبيان ما فيه سعادة الإنسان وصلاحه وفلاحه في الدنيا والاخرة

---

(١) انظر: عبد الكريم الخطيب، إعجاز القرآن الإعجاز في دراسات السابقين، ط٢ دار المعرفة بيروت ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م، ص٩٠.

(٢) انظر: الشعراوي، معجزة القرآن، ج١ ص٢٧. وانظر: جمال نصّار حسين، الخطاب القرآني المعاصر، ط١ دار الإسراء عمان ٢٠٠٠م، ص٣٠.

كل ذلك قائم على الإعجاز والبرهان على مدى العصور وامتداد الأزمان[(١)]، يقول محمد الغزالي: «معجزة الرسالة الأخيرة شيء لا ينفصل عن جوهرها فجعل الله حقائق الرسالة ودلائل صحتها كتاباً واحداً وجعل من أصول الدعوة وأساليب عرضها البرهان الأكبر لدعوى الرسالة والسناد الأعظم لصدق صاحبها»[(٢)].

ومعجزة القرآن معجزةٌ عقلية اعتمدت على الفكر والنظر والتأمل والتدبر وهي معجزة علم ومعرفة وحكمة، وحيٌ يدرك بعين البصيرة يعتمد على إخضاع العقول وإنارة البصائر ليهتدي العقل إلى الحقيقة الكاملة التي تنطق بأن هذا القرآن هو كتاب الله وأن هذا الكلام هو كلام الله وذلك من خلال ما فيه من إشارات دالة ولمحات موحية في كل آية من آيات القرآن الكريم وألفاظه وتراكيبه[(٣)] قال تعالى: ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٩] بينت هذه الاية أن مما اختص به القرآن كون آياته بينات الإعجاز وكونه محفوظاً في الصدور ويتلوه أكثر الأمة ظاهراً بخلاف سائر الكتب فإنها لم تكن معجزات وما كانت تقرأ إلا من المصاحف[(٤)].

إن معجزات الرسل السابقين - كموسى وعيسى عليهما السلام - كانت معجزات خارجة عن كتبهم السماوية النازلة من عند الله تعالى ولم تكن جزءاً منها ولم تكن في ألفاظها وكلامها فكتاب موسى التوراة ومعجزته العصا واليد وكتاب عيسى الإنجيل ومعجزته إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله[(٥)] فمعجزات السابقين كانت

---

(١) انظر: سراج الدين، هدي القرآن الكريم إلى الحجة والبرهان، ص٢٢٧.

(٢) محمد الغزالي، عقيدة المسلم، ط٣ دار الدعوة مصر ١٤١١هـ/ ١٩٩٣م، ص٢١٠.

(٣) انظر: الخطيب، إعجاز القرآن، ص١٠١. وانظر: يوسف القرضاوي، كيف نتعامل مع القرآن العظيم، د.ط. مركز بحوث السنة والسيرة - جامعة قطر ١٩٩٧م ص٣٥.

(٤) انظر: محمد جمال الدين القاسمي، تفسير القاسمي المسمى «محاسن التأويل» تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي اعتنى به: هشام سمير البخاري، ط١ مؤسسة التاريخ العربي بيروت ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م، ج٥ ص٤٥٢.

(٥) انظر: صلاح عبد الفتاح الخالدي، البيان في إعجاز القرآن، ط٣ دار عمان - عمان ١٤١٣هـ/ =

خوارق مادية خرقت قوانين الكون لا تدرك إلا بالرؤية تعمل على إدهاش الأبصار وإخضاع الأعناق بما يعجزهم ويثبت لهم أن الذي جاءت على يديه رسولٌ صادقٌ من الله تعالى ولا بد من اتباع كل ما يدعو إليه.

ولما كانت رسالة كل من موسى وعيسى عليهما السلام موقوتة خاصة لأقوامهما كانت معجزاتهم مناسبة لذلك العصر إذ كان عصراً مادياً يؤمن بالمادة وقد لا يؤمن بالغيب وانتهت معجزاتهم بزمانها ولم يتأثر بها إلا من رآها أو عاش في عصرها[١].

أما المعجزة أو الاية التي أوتيها ﷺ فلم تعتمد على خوارق العادات ولم تكن خارجة عن ذات القرآن في أمور مادية محسوسة، إذ إن القرآن قد نزل في عصر ترقى فيه العقل البشري وكثرت المعارف وضعف تأثير المعجزات الحسية فأضحى دين الله تعالى بحاجة إلى براهين ودلائل من نوع آخر فكانت معجزة الدين في صورته الأخيرة عقلية معنوية[٢] قال ﷺ: «ما من الأنبياء نبي إلا أُعطي ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليْ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»[٣] ولما كانت رسالة النبي محمد ﷺ خالدةً باقية إلى يوم القيامة ولا كتاب سماوي بعد القرآن الكريم فجعلها سبحانه عقلية لتبقى حجة دائمة للناس قائمة على العرب والعجم ينظرون فيها بعقولهم ويرددون النظر والتأمل حتى ينكشف لهم ما فيه من وجوه إعجاز.

كما أن رسالته ﷺ عالمية موجهة لكل الخلائق فكونها عقلية هي بمثابة رسالة لكل إنسان، ووحي إلى كل عقل، لا يحصرها زمان ولا يحدها مكان، وجعلها سبحانه نفس الوحي لتتناسب مع جميع المستويات العقلية فتصبح من الوضوح وقوة الدلالة

= ١٩٩٢م، ص٥٠.

(١) انظر: محمد أبو زهرة، المعجزة الكبرى القرآن، د.ط. دار الفكر العربي ١٩٨٠م، ص١٠. وانظر: الشعراوي، معجزة القرآن، ج١ ص١٨.

(٢) انظر: عفيف عبد الفتاح طبارة، روح الدين الإسلامي، ط٢٨ دار العلم بيروت ١٩٩٣م، ص٢٩.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن باب كيف نزل الوحي واول ما نزل برقم (٤٦٩٦)، ج٤ ص١٩٠٥.

بمكان بحيث يكثر أتباع هذه الرسالة ويكون المصدق لها أكثر[١].

وقد طلب المشركون في عهد النزول من النبي ﷺ معجزة مادية خارقة كمعجزات السابقين كآية ودليل على صدقه وإثباتاً لمصدر ما أتى به من وحي فكان رد الله عز وجل عليهم بأن القرآن الكريم معجزةٌ أتم من كل معجزة وآية تقدمته وهو آية ظاهره مغنية عن سائر الايات وحكم آية قرآنية واحدة منه كحكم الايات القرآنية كلها في الدلالة على الحق وإثباته وإنّ من رحمة الله تعالى ونعمته عليهم بأن جعلها آية ثابتة لا تزول ولا تضمحل كما زالت الايات المادية السابقة بعد وجودها[٢] قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝ ﴾ [العنكبوت: ٥٠-٥١].

والقرآن الكريم وإن كان قد نزل بلغة العرب وفيه أعلى درجات البيان العربي إلا أنه معجزة للخليقة كلها وفيه الدليل على أنه من عند الله عز وجل للناس أجمعين، وفي ثناياه ما يعجز الناس أجمعين سواء ببيانه وفصاحته وبلاغته والتي كانت مناط التحدي للعرب خاصة أو بمعانيه ومضامينه وما فيه من تشريعات وعلوم وأخبار غيبية وغير ذلك[٣] قال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨] يقول ابن كثير: «أخبر سبحانه أنه لو اجتمعت الإنس والجن كلهم واتفقوا على أن يأتوا بمثل ما أنزله على رسوله لما أطاقوا ذلك ولما استطاعوا ولو تعاونوا وتساعدوا وتظافروا فإن هذا أمر لا يستطاع وكيف يشبه كلام المخلوقين كلام الخالق الذي لا نظير له ولا مثال له ولا عديل له»[٤].

وإن مناط التحدي المتوجه إلى فصحاء العرب وبلغائهم هو تحد بلفظ القرآن ونظمه

(١) انظر: الخطيب، إعجاز القرآن، ص١٠١. وانظر: أبو زهرة، المعجزة الكبرى القرآن، ص١٢.
(٢) انظر: الزمخشري، الكشاف، ج٣ ص ٤٦٣. الرازي، مفاتيح الغيب، ج٩ ص٦٥.
(٣) انظر: أبو زهرة، المعجزة الكبرى، ص٥٩.
(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ص٢٢٣٧.

وبيانه وقد عجزوا عن معارضته والإتيان بمثله وهم فرسان الكلام وأرباب الفصاحة والبلاغة والبيان فكان معجزاً خارقاً للعادة في مخالفته لأساليب كلام العرب ومنهاج نظمها ونثرها[١] قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود:١٣]. أي إذا كان محمد ﷺ قد افترى هذا القرآن واختلقه من عند نفسه فأتوا بعشر سورٍ مماثلة له في الفصاحة والبلاغة وحسن النظم والبيان مختلقات من عند أنفسكم في معانيها لا تدعون أنها من عند الله فإنكم عرب فصحاء بلغاء أهل البيان وممارسة الخطب والأشعار ومزاولة أساليب النظم والنثر[٢].

وطُلب منهم - في موضع آخر- الإتيان بما هو أقل من عشر سور وعجزوا عن ذلك كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس:٣٨]. فقوله ﴿بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ أي مثله في البلاغة وحسن الصياغة والنظم مع جزالة المعنى. وأخبر سبحانه أنهم لن يستطيعوا الإتيان بما يشابه هذا الكلام حتى لو استعانوا بأي مخلوق من دون الله لأن القرآن ليس من كلام البشر بل هو من عند الله والله وحده هو القادر على أن يأتي بمثله في بلاغته وجزالة معناه[٣].

ومع قيام الحجة على العرب بعجز بلغائهم في عصر المبعث عن معارضة القرآن إلا أن حجة إعجازه ليست خاصة بعصر دون عصر أو على العرب دون العجم فإن الجميع من العجم وغيرهم يعرف إعجاز القرآن في الجملة بعجز العرب عن معارضته مع توفر الدواعي[٤].

---

(١) انظر: جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)، معترك الأقران في إعجاز القرآن، ط١ دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ج١ ص ٢٧.

(٢) انظر: الألوسي، روح المعاني، ج٦ ص٢٢٢.

(٣) انظر: الزمخشري، الكشاف، ج٢ ص٣٣١. أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج٣ ص٣٤٠.

(٤) انظر: عائشة عبدالرحمن بنت الشاطىء، الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، (د.ط.) دار المعارف القاهرة (د.ت)، ص٧٥.

ومن ناحية أخرى فإن العرب وغير العرب من أهل الكتاب والعجم وغيرهم قد قامت عليهم حجة إعجاز القرآن الكريم من ناحية مضامينه وموضوعاته ومعانيه والتي لم تكن مقصودة بالتحدي وإن كانت مما لم تبلغ إليه عقول البشر على الغالب ومما يفوق قدراتهم وطاقاتهم في عصور متباينة وعُدّت دليلاً على مصدر القرآن الكريم وأنه من عند الله تعالى ودليلاً على صدق نبوة سيدنا محمد ﷺ إضافةً إلى ما فيه من التأكيد على أنّ القرآن معجزٌ إعجازاً مستمراً وأنه موجه إلى البشر جميعاً ذلك أنّ هذه المضامين والمعاني القرآنية قد يستوي في فهمها العرب وغير العرب ويدركون بما لديهم من ملكات عقلية سليمة ما فيها من آيات ودلالات وذلك عن طريق ترجمة هذه المعاني وإدراك كنهها وتعليلها والحكمة منها[١].

وإن من أهم ما يتمثل به إعجاز القرآن في الموضوعات والمضامين القرآنية والذي لم يكن مناط التحدي في إخباره عن المغيبات التي لم تكن قد وقعت بعد ثم وقعت كما أخبر وعن الأمم الماضية وقصصها كما يتمثل في تشريعه الشامل الدقيق الصالح لكل زمان ومكان، مع ما عرف من كونه ﷺ أمياً لم يقرأ كتاباً ولا خطه بيمينه فضلاً عن أنه لم يدرس قانوناً ولا تشريعاً ولا عُني بشيء من أمر النظم الاجتماعية المعروفة إذ ذاك عند الفرس أو اليونان، وفيما ينطوي عليه من القواعد والبحوث العلمية التي لا يزال الباحثون اليوم في طور اكتشافها والوقوف عليها[٢].

إن اشتراك الكتب الإلهية السابقة - كالتوراة والإنجيل - مع القرآن الكريم في بعض وجوه الإعجاز الغيبي كالإخبار عن الأمم الغابرة وقصص السابقين - كما أشار لذلك الباقلاني -[٣] لا يسوغ أن نطلق عليها أنها كتب معجزة لأنّ الإعجاز الغيبي في القرآن

---

(١) انظر: محمد الزفزاف، التعريف بالقرآن والحديث، ط٤ مكتبة الفلاح الكويت ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ص١٤٠. وانظر: الخالدي، البيان في إعجاز القرآن، ص٣٨٠.

(٢) محمد سعيد رمضان البوطي، كبرى اليقينيات الكونية، ط٨ دار الفكر دمشق ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، ص٢١٦.

(٣) انظر: محمد بن الخطيب الباقلاني (ت ٤٠٣هـ)، إعجاز القرآن، شرحه وعلق عليه: محمد شريف سكر، ط٣ دار إحياء العلوم بيروت ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م، ص٥٨.

هو وجه من وجوه الإعجاز في المضامين القرآنية التي لم تكن مقصودة بالتحدي والتي لا يمكن فصلها عن الإعجاز البياني والبلاغي الذي كان مناط التحدي لكنها تساهم في التدليل على مصدر القرآن وصدق المبعوث به[1] ﷺ، إذ إن وجه الإعجاز في غيب الماضي يكمن في أنّ: ورود أخبار الأمم الماضية والقرون الخالية بهذا الشكل المفصل الدقيق في القرآن الكريم والنبي ﷺ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ولم ينشأ بين أهل الكتاب حتى يتعلم ذلك منهم بل نشأ بين قوم أميين لا يعرفون هذه القصص ولم يتدارسوها في بيئتهم[2] قال تعالى: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ﴾ [هود: ٤٩].

وقد عُدّ ذلك علامةً واضحة لأهل الكتاب من أهل الدين والعلم بالشرائع حيث إنّ تصديق القرآن لما معهم في أخبار السابقين وقصصهم وأحوال الشرائع الماضية إضافة إلى اشتماله على الهدى الذي هو شأن الكتب الإلهية علامة على أن القرآن من عند الله تعالى[3] قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٩٧﴾ ﴾ [الشعراء: ١٩٦-١٩٧] وهذا تنويه بالقرآن بأنه تصدقه كتب الأنبياء الأولين بموافقتها لما فيه وخاصة في إخباره عن الأمم وأنبيائها[4] وذلك آية وعلامة لعلماء بني إسرائيل على صدق القرآن ومصدريته.

وإن الكتب الإلهية السابقة - كالتوراة والإنجيل- هي كلام الله حقاً لكنها ليست بمعجزة في النظم والتأليف كما هو القرآن، ولا نقول أن التوراة والإنجيل كتب معجزة بالمعنى المعروف في شأن إعجاز القرآن من أجل أنها كتب نزلت من عند الله تعالى[5]

---

(١) انظر: بنت الشاطىء، الإعجاز البياني للقرآن، ص٩٣.

(٢) انظر: أبو زهرة، المعجزة الكبرى، ص٣٣٩.

(٣) انظر: السيوطي، معترك الأقران في إعجاز القرآن، ج١ ص٤٠. وانظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١ ص٤٥٨.

(٤) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٩ ص١٩١.

(٥) انظر: محمود محمد شاكر في تقديمه لكتاب مالك بن نبي الظاهرة القرآنية، ترجمة: عبد الصبور شاهين ط٤ دار الفكر دمشق دار الفكر المعاصر بيروت ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ص٢٥. وانظر: الباقلاني =

ويمكن إجمال أسباب امتناع الإعجاز في (التوراة والإنجيل) بما يلي:

أولاً: لم يُشر القرآن الكريم إلى أن الكتب الإلهية السابقة (التوراة والإنجيل) كانت معجزات رسلها وآيات نبوتهم ولا اشتهر ذلك عن أهل الكتاب.

ثانياً: لم يصفها الله تعالى بما وصف به القرآن ولم يشر إلى أن موسى وعيسى تحديا قومهما أن يأتوا بمثل التوراة والإنجيل في ألفاظها وتراكيبها أو في مضامينها ومعانيها كما لم يشتهر عن أهل الكتاب أنهم ادعوا الإعجاز لكتابهم كما أن القرآن الكريم لم يُخبر عنهم ذلك.

ثالثاً: اللسان واللغة التي نزلت بها الكتب السابقة - كالتوراة والإنجيل- لا يتأتى فيها من وجوه الفصاحة مما يقع به التفاضل الذي ينتهي إلى حدّ الإعجاز ولم يكن ذلك إلا للغة العربية[١].

إضافة لذلك فالكتب الإلهية السابقة قد آلت إلى التحريف والضياع إذ لم يتعهد الله بحفظها وهذا يتناقض مع الإعجاز وقد كان من وجوه إعجاز القرآن الكريم أنه محفوظٌ عن الزيادة والنقصان لأن الله عز وجل تعهّد بحفظه بألفاظه وتراكيبه وبمضامينه ومعانيه فبقي محروساً عن أي تبديل وتغيير رغم تطاول الأزمان[٢]، وبقيت له تلك الروحانية الخاصة التي تؤثر على النفوس وتأسر القلوب السليمة فلم يستطع أحدٌ من الإنس أو الجن الإتيان بمثله وبقي لليوم معجزة خالدة[٣].

= إعجاز القرآن ص٥٨.

(١) انظر: الباقلاني، إعجاز القرآن، ص٥٨-٦٠. وانظر: بنت الشاطىء، الإعجاز البياني للقرآن، ص٩٣.

(٢) انظر: السيوطي، معترك الأقران، ج١ ص٢٧.

(٣) انظر: داود، الفتوحات الربانية في الآيات القرآنية، ص٢٩٨.

المطلب الثاني

البقاء والحفظ

تميز القرآن الكريم عن الكتب الإلهية السابقة بأن الله عز وجل تكفل بحفظه وهيأ له كل ما يؤدي لبقائه كتاباً إلهياً محفوظاً ومصاناً من كل تبديد وتغيير وتحريف وزيادة ونقص وحفظه من الاختلاف فيه والتبديل بغيره ونسيانه أو ضياعه واندثاره وحفظه من الطعن فيه والمعارضه له والمجادلة في حقيته[١] قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وحفظ الله للقرآن الكريم يشمل حفظ سور القرآن وآياته وكلماته وألفاظه وحروفه حفظها كاملة بنصوصها النازلة من عند الله تعالى إلى رسول الله ﷺ، ويشمل الحفظ حفظ طريقة أدائه ومخارج حروفه وما ينبغي لها من مدّ وغنّ وإظهار وإدغام وإخفاء وإقلاب، ومما يشمله الحفظ أيضاً حفظ معاني القرآن وحقائقه[٢].

وقد هيأ الله عز وجل للقرآن أسباب الحفظ فكان نزوله ابتداءً في أمة تمتاز بالحفظ والذاكرة القوية وقيض الله سبحانه للقرآن حفظةً بأعداد هائلة يحفظونه ويحملونه في صدورهم فضلاً عن كتابته في السطور[٣]، وكان الحفظ في الصدور هو الأساس في تواتر القرآن وتناوب الحفظة المأمونين على نقله وهذا من أبرز ما تميز به نقل القرآن الكريم عن غيره من الكتب الإلهية التي ضاعت وانقطع سندها حيث وصل إلينا عبر السنين والعصور من دون أن يعتريه ما يعتري المسطور من المحو والإثبات وما يعترضه من التغيير والتبديل[٤]، ورغّب الله في حفظ القرآن وتدبره وجعل في ألفاظه وجمله

---

(١) انظر: أبو حيان، البحر المحيط في التفسير، ج٦ ص٤٦٨. أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج٤ ص١٠.

(٢) انظر: قطب، في ظلال القرآن، م٤ ص٢١٢٧. وانظر: القرضاوي، كيف نتعامل مع القرآن العظيم، ص٨.

(٣) انظر: القرضاوي، كيف نتعامل مع القرآن العظيم، ص٢٥.

(٤) انظر: أبو زهرة المعجزة الكبرى ص٣٥. محمد عبد الله، دراز، النبأ العظيم، د.ط دار الثقافة =

وآياته سلاسة وعذوبة وسهولة تجعله ميسر الحفظ لمن أراد أن يحفظه ويحمله في صدره وجعله سبحانه ميسراً للذكر والفهم والاتعاظ[١] قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر: ١٧] بمعنى سهلنا لفظه ويسرنا معناه لمن شاء الاتعاظ والتذكر والتدبر والفهم والحفظ له[٢].

وألهم الله المسلمين بكتابته في حياة الرسول ﷺ حيث اتخذ النبي ﷺ كتّاباً للوحي يكتبون القرآن فور نزوله إضافة إلى تكرّر جمعه في مصحف في عهد أبي بكر وكتابته على لهجة واحدة في عهد عثمان[٣]، وتواتر نقله خلفاً عن سلف إلى أن وصل إلينا بألفاظه وحروفه وبترتيب سوره وآياته من عهد النبي ﷺ.

وكان من أهم مظاهر حفظ الله تعالى للقرآن الكريم أن جعله في أعلى ذُرى البلاغة والفصاحة فحماه من أن يختلط بكلام البشر وعجزوا عن الإتيان بمثله[٤]، وإن بقاء القرآن مصوناً عن جميع جهات التحريف وأشكاله مع توفر الدواعي من أعدائه الملحدين والمشركين وحرصهم على أن ينالوا منه إفساداً وإبطالاً هو من أعظم المعجزات التي دلّلت على ربانية القرآن الكريم وأن هناك قدرةً خارقة خارجة عن إرادة البشر تصون هذا الكتاب وتحميه من العبث والتحريف رغم مرور كل هذه القرون ورغم تقلب الظروف والملابسات والعوامل على القرآن الكريم وعلى حفاظه وحملته من أمة محمد[٥] ﷺ.

إن كل ما في القرآن الكريم من نصوص ومعان هي حق وصدق ولا يتسرب إليه الباطل ولا التناقض والاختلاف بأي طريقة من الطرق قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ

= الدوحة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ص١٤.

(١) انظر: القرضاوي، كيف نتعامل مع القرآن العظيم، ص١١٩.

(٢) انظر: البقاعي، نظم الدرر، ج٧ ص٣٥٤. المراغي، تفسير المراغي، ج٢٧ ص٨٥.

(٣) انظر: عبد الله شحاته، تفسير القرآن الكريم، (د.ط.) دار غريب - القاهرة ٢٠٠٠م، ج١٤ ص٢٥٦٥.

(٤) انظر: الزفزاف، التعريف بالقرآن والحديث، ص٨٥.

(٥) انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ج٧ ص١٢٤. قطب، في ظلال القرآن، م٤ ص٢١٢٩.

عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ [فصلت: ٤١-٤٢] فالقرآن كتاب عزيز بإعزاز الله تعالى له فلا يعارضه معارض ولا يطعن فيه طاعن وهو منيع عن كل عيب من جميع جهاته وجوانبه محميّ بحماية الله من أن يصل إليه أو يتعلق به أي باطل في نصوصه ومعانيه وكل ما فيه حق وصدق صادرٌ من الله تعالى وليس فيه ما لا يطابق الواقع[١]، وهو في محكماته وأحكامه وأهدافه ومبادئه وتلقيناته متساوق كل التساوق كله حق ليس فيه أي تناقض ولا اختلاف فضلاً عن أنه مبرأ من كل باطل أو شبهة باطل[٢].

وقد حمى الله عز وجل ما في القرآن الكريم من حقائق ومعانٍ من أن يداخلها الباطل والتناقض والاختلاف فجعل لذات نصوصه وحدها حقّ الحديث عن هذه الحقائق والمعان والترجمة عن مقاصد القرآن ووسائله وطرائقه في الهداية ولم يسمح لأي أحد بأي دعوى يدعيها فيه فكان بذلك قد حماه حماية ذاتية من أن يدخل على حقائقه ومعانيه ما يبدل من أوضاعها أو يغير من صورها وأشكالها فكانت نصوصه وحدها هي الترجمان الناطق عنها حسب مواصفات اللغة التي نزل بها القرآن وحسب مدلولاتها الصريحة[٣]، إضافة لذلك فقد حفظ الله تعالى معاني القرآن وحقائقه بحفظ بيان هذا القرآن وهو الحديث النبوي وتفسيره ﷺ للعديد من نصوص القرآن، ومما يلحق بذلك حفظ وإبقاء أمة القرآن الكريم ممن يحملونه ويحفظونه في صدورهم ويبلغونه ويوضحون معانيه[٤].

إن تعاليم القرآن الكريم هي كلمة الله الأخيرة لهداية البشر أراد الله لها أن تبقى على الدهر وتخلد عبر الزمن فصانها من أن تمتد إليها يد بالتحريف أو التصحيف أو التغيير

---

(١) انظر: المراغي، تفسير المراغي، ج٢٤ ص١٣٨.

(٢) دروزة، التفسير الحديث، ج٤ ص٤٢٩.

(٣) انظر: عبد الكريم الخطيب، التعريف بالإسلام في مواجهة العصر الحديث وتحدياته، ط١ (دار النشر غير معروفة) د.ت، ص٥٧.

(٤) انظر: سراج الدين، هدي القرآن الكريم إلى الحجة والبرهان، ص١٩٥.

والتبديل - كما حصل للكتب السماوية السابقة - لتبقى حجة الله على الناس قائمة دائمة حتى يرث الله الأرض ومن عليها[(١)]، يقول محمد عبد الله دراز: «إن سائر الكتب السماوية جيء بها على التوقيت لا التأبيد وإن هذا القرآن جيء به مصدقاً لما بين يديه من الكتب ومهيمناً عليها فكان جامعاً لما فيها من الحقائق الثابتة زائداً عليها بما شاء الله زيادته وكان ساداً مسدّها ولم يكن شيء منها ليسد مسدّه فقضى الله أن يبقى حجّة إلى قيام الساعة وإذا قضى الله أمراً يسّر له أسبابه وهو الحكيم العليم»[(٢)].

والله عز وجل لم يتكفل بحفظ الكتب الإلهية السابقة كما تكفّل بحفظ القرآن وأخبر سبحانه عن التوراة الإلهية أنه جعلها وديعة بأيدي أصحابها وكلف العلماء والأحبار من بني إسرائيل أمر التوراة وحفظها لكنهم غيروا وبدلوا وخالفوا أحكام الله قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [المائدة: ٤٤] وفي قوله ﴿ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ ﴾ إشارة إلى أنه تعالى طلب من العلماء والأحبار أن يحفظوا التوراة وأخذ العهد عليهم في القول بها والعمل والقضاء بأحكامها وأن يحفظوها من التغيير والتبديل ولا يضيعوا منها شيئاً ولا ينسوا منها شيئاً[(٣)]، فكان مطلوباً من الأحبار والعلماء أن يحفظوا كتاب الله من ثلاثة وجوه:

أولاً: أن يحفظوه في صدورهم ويتدارسوه بألسنتهم.

ثانياً: أن يحفظوا أحكامه وأن يعملوا بها ويتبعوا شرائعه ولا يهملوها[(٤)].

---

(١) انظر: سابق، العقائد الإسلامية، ص١٦٥.

(٢) دراز، النبأ العظيم، ص١٤.

(٣) انظر: عبد الحق بن عطية الأندلسي (ت٥٤٦هـ)، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد الله الأنصاري عبد العال إبراهيم ط١ مؤسسة دار العلوم ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م، ج٢ ص١٩٦. القاسمي، محاسن التأويل، ج٦ ص٢١١.

(٤) انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ج٤ ص٤٦٦. أبو حيان، البحر المحيط، ج٤ ص٢٦٨.

ثالثاً: أن يحفظوه عن التغيير من جهة الكتابة في السطور كما يقول أبو السعود: «إيراد التوراة بعنوان (الكتاب) للإيماء إلى إيجاب حفظها عن التغيير من جهة الكتابة»[١].

وجعل الله هؤلاء العلماء والأحبار شهداء على ما فيها رقباء على كتاب التوراة من أن يحوم حوله التغيير والتبديل بوجه من الوجوه ورقباء على من تحدثه نفسه العبث به[٢] وكانوا رقباء على تنفيذ حدودها وتطبيق أحكامها حتى لا يهمل شيء منها[٣].

ولكنهم ضيعوا ما استحفظوا حتى تبدّلت التوراة وطرأ عليها التحريف والضياع إذ أمر الله عز وجل وتكليفه لهم أن يحفظوا التوراة كان أمراً تكليفياً والأمر التكليفي عرضةً لأن يطاع وعرضة لأن يُعصى[٤]، فالحفظ منهم لم يتم لذلك لم يدع الله عز وجل القرآن للحفظ بطريق التكليف لأنه قد اختبر البشر من قبل ولأنه أراد القرآن معجزةً باقية فلم يكل أمر حفظه للخلق وإنما تكفل هو بحفظه[٥].

المطلب الثالث

العالمية

عالمية القرآن تعني قابليته للوفاء بحاجة الإنسان وصلاحيته لقيادة البشر من غير تمييز بسبب الجنس واللون والبيئة والزمن[٦] فرسالة القرآن ليست قاصرة على أمة من الأمم وعلى وقت من الأوقات أو عصر من العصور ولا على جيل من الأجيال بل رسالته عامة للعرب والعجم والأبيض والأسود والإنس والجن وجميع الناس إلى

---

(١) أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج٢ ص٢٧٧.

(٢) انظر: أبي السعود، إرشاد العقل السليم، ج٢ ص٢٧٧. المراغي، تفسير المراغي، ج٦ ص١٢٤.

(٣) شحاته، تفسير القرآن العظيم، ج٦ ص١٠٨٨.

(٤) انظر: الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج٥ ص٣١٥٩.

(٥) الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج٥ ص٣١٥٩.

(٦) وهبة الزحيلي [عالمية القرآن الكريم وبديع الزمان سعيد النورسي] المؤتمر العالمي الرابع لبديع الزمان سعيد النورسي «نحو فهم عصري للقرآن الكريم» شركة سوزلر للنشر ٢٠٠٠م، ص٣٧٣.

يوم القيامة[١].

وإبلاغ القرآن الكريم وتوجيه ما فيه من التبشير والإنذار للعالمين اختصت به رسالة محمد ﷺ دون غيره من الرسل نذير للعالمين وبشير للمؤمنين المتقين منهم[٢] قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سبأ:٢٨] يقول الطبري: «أي ما أرسلناك يا محمد إلى هؤلاء المشركين بالله من قومك خاصة ولكن أرسلناك كافة للناس أجمعين العرب منهم والعجم والأحمر والأسود بشيراً من أطاعك ونذيراً من كذبك»[٣].

وإن القرآن من يوم أن نزل وإلى يوم القيامة يخاطب جميع البشر على جميع المستويات وفي جميع الأزمنة والأمكنة على وجه الأرض وهذا لا يناقض كونه نزل في العرب وكان أول إنذاره لهم، قال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الفرقان: ١]. يقول سيد قطب عند تفسيره لهذه الاية : «هذا النص مكي وله دلالته على إثبات عالمية هذه الرسالة منذ أيامها الأولى فهي منذ نشأتها رسالة للعالمين طبيعتها طبيعة عالمية شاملة ووسائلها وسائل إنسانية كاملة وغايتها نقل هذه البشرية كلها من عهد إلى عهد ومن نهج إلى نهج عن طريق هذا الفرقان الذي نزله الله على عبده ليكون للعالمين نذيراً فهي عالمية للعالمين والرسول يواجه في مكة بالتكذيب والمقاومة والجحود»[٤].

وإن من أهم ما يترتب على كون رسالته ﷺ خاتمة الرسالات والقرآن الكريم خاتم الكتب الإلهية وتعاليمه آخر التعاليم الربانية التي أوحى بها إلى الخلق فلا بد أن يستمر الخطاب القرآني عالمياً إلى يوم القيامة قال تعالى: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ

---

(١) انظر: شحاتة، تفسير القرآن الكريم، ج٩ ص١٦٠٤.

(٢) انظر: عبد الرحمن حبنكة الميداني، معارج التفكر ودقائق التدبر، ط١ دار القلم دمشق ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، ج٦ ص٣٣٤.

(٣) الطبري، جامع البيان، ج١٠ ص٣٧٧.

(٤) قطب، في ظلال القرآن، م٥ ص٢٥٤٨.

إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٥٨]. فهو ﷺ رسول للخلق إلى يوم القيامة ولا فرق بين من أدركه ومن تأخر عنه أو تقدم عليه في أن الجميع يشترط عليهم الإيمان به والاتباع له ولما جاء به من هدى[١].

وأسلوب الخطاب بـ (يا أيها الناس) وتكرر ذلك في القرآن في العديد من الايات يدلل على أن القرآن كتاب رب العالمين لكل من خلقهم من جنس البشر بلا استثناء وأن كل فرد صالح للخطاب تبلغه تكاليف القرآن وأوامر الله ونواهيه فقد قامت عليه حجة الله ووجب عليه الإيمان والعمل[٢].

وقد أكد القرآن على عالمية خطابه للبشر بتكرار الخطاب لبني إسرائيل وكانوا أهل كتب سماوية لكن القرآن بمجيئه قد هيمن على كتبهم وأصبح هو النافذ الواجب الاتباع كما قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٤٠-٤١].

كما ورد الخطاب للجن ودعوتهم إلى التصديق برسالة القرآن واتباع هديه وتعاليمه[٣] كما قال تعالى: ﴿وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُجِرۡكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣١﴾﴾ [الأحقاف: ٢٩-٣١].

إن من أهم مقومات عالمية القرآن الكريم ما جاء يدعو إليه من إحياء المبادىء السامية في العقائد وأصول الشرائع والمثل العليا والقيم الأخلاقية التي تصلح لكل زمان ومكان والتي دعا إليها كل رسل الله والكتب السماوية، والتي قامت على أساس من التوحيد لله تعالى وإخلاص العبادة له والدعوة إلى كل ما يؤدي إلى تحقيق عبودية

---

(١) انظر: البقاعي، نظم الدرر، ج٣ ص١٣٤.

(٢) انظر: الميداني، معارج التفكر ودقائق التدبر، ج٤ ص٦٢٨.

(٣) انظر: الدرويش، الشرائع السابقة، ص١٧٢.

المخلوق للخالق سبحانه والاستقامة على منهج الحق، فدعوة القرآن دعوة عالمية في هدفها وهي عالمية في أسلوب ووسائل الإقناع التي يتبعها لتحقيق هذا الهدف السامي[١].

وقد اشتمل القرآن الكريم على المنهج الدائم المتكامل للحياة المتصف بالمرونة والذي يتلاءم مع حياة البشر المتجددة والمتباينة من مكان لاخر والذي قام على أساس مراعاة المصالح للأمم وقد ترك للعقل البشري أن يجتهد ويستنبط الأحكام الجزئية بحسب ظروف الحياة وملابساتها وتطوراتها[٢]، كما أنه لا توجد قضية من القضايا الأساسية التي تمس حياة البشر في مجتمعاتهم إلا ويوجد في منهج الله سبحانه ما يعالج هذه القضية، وقد عالج جميع المشكلات البشرية التي تقف أمام رقي الجنس البشري ولكنه لا يعالج الخصوصيات وإنما يضع المبدأ والأطر العامة[٣] والحلول الواقعية المرتكزة على أساس مصالح البشر في دنياهم وآخرتهم[٤].

إن من أهم مقتضيات عالمية الدعوة في القرآن الكريم بأن جعل الله عز وجل ما فيها من مناهج وشرائع عملية متصفة بالسماحة واليسر وسهلة التنفيذ والتطبيق ملائمة للفطرة والجبلة البشرية[٥]، وقد عدّ الله سبحانه ما في القرآن من هدى وشرائع وأحكام -تشمل شؤون المعاش والمعاد- هو منهج رحمة للعالمين مؤمنهم وكافرهم لما يترتب عليه من آثار في الدنيا وفي الدين لمن يأخذ به ويبتغي السعادة في الدنيا والاخرة[٦]

---

(١) انظر: دراز، مدخل إلى القرآن الكريم، ص١٠. وانظر: الزحيلي [عالمية القرآن الكريم وبديع الزمان سعيد النورسي] المؤتمر العالمي الرابع لبديع الزمان سعيد النورسي، ص٣٧٥.

(٢) انظر: قطب، في ظلال القرآن، م٤ ص٢٤٠٢.

(٣) انظر: علي عبد الحليم محمود، عالمية الدعوة الإسلامية، ط١ دار الوفاء - المنصورة ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، ص٢٩٢. وانظر: الشعراوي، معجزة القرآن، ج١ ص٣٢.

(٤) انظر: فضل الله، من وحي القرآن، ج١٠ ص٢٦٣.

(٥) انظر: ابن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، ص٢٧١.

(٦) انظر: الألوسي، روح المعاني، ج٩ ص٩٩. الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج١٤ ص٣٣٣.

قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] أي أن الله أرسل نبيه محمد ﷺ رحمة لجميع العالم مؤمنهم وكافرهم فأما مؤمنهم فإن الله هداه به وأدخله بالإيمان به وبالعمل بما جاء من عند الله الجنة وأما كافرهم فإنه دفع به عنه عاجل البلاء الذي كان ينزل بالأمم المكذبة رسلها من قبله[١]، وهو ﷺ أرسل بما هو سبب لسعادة الدارين وانتظام حياة البشر ومراعاة مصالحهم إلا أن الكافر قد فوّت على نفسه الانتفاع برحمة القرآن وآثاره وأعرض عما فيه من سعادة ورحمة[٢].

إن بعثة النبي ﷺ في العرب وإنزال القرآن الكريم بلسان عربي مبين لا يتناقض ولا يتعارض مع عالمية الرسالة وعالمية الخطاب القرآني وذلك أن سنته تعالى في إرسال الرسالات وإنزال الكتب الإلهية أن تكون بلغة القوم الذين بُعث فيهم الرسول ونزل فيهم الكتاب وذلك ليسهل تبليغ وبيان تكاليف الله تعالى وأوامره ونواهيه إليهم لتقوم حجة الله تعالى عليهم ولأن ذلك أدعى لسرعة الفهم والتلقي والاستجابة[٣] قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم: ٤] وبعثته ﷺ في العرب وإنزال القرآن الكريم بلسان عربي مبين كان لحكمة عظيمة منه سبحانه ولا يناقض ذلك عالمية الدعوة للناس جميعهم إذ إن قومه ﷺ هم أحق الناس وأولاهم بالإنذار والدعوة إلى الحق وقد اصطفاهم الله عز وجل أن يفهموا منه ﷺ ويبينوا ما أرسل به إليهم ويترجمون لغيرهم ما فهموه منه فتنتشر دعوته ﷺ بذلك إلى أطراف العالم[٤] ويقول طه جابر العلواني: «إن العرب كانوا أحوج الشعوب الأمية إلى تلقي الرسالة وأقدر هذه الشعوب إلى تبنيها والانفعال بها ونقلها بأمانة إلى الاخرين إضافة على أن العرب لم تحمل قبل القرآن رسالة دينية كما لم تُحمّل بمعانٍ فلسفية أو معرفية قد تزاحم المعاني التي أراد القرآن إيصالها للناس وبالتالي فإنها ستكون خالصة

---

(١) الطبري، جامع البيان، ج٩ ص١٠١.

(٢) انظر: أبي السعود، إرشاد العقل السليم، ج٤ ص٣٦١.

(٣) انظر: الطبري، جامع البيان، ج٧ ص٢٣٨. أبو السعود، إرشاد الحقل السليم، ج٥ ص٣٢.

(٤) محمد بن مصلح الدين القوجوي (ت٩٥١هـ) حاشية محي الدين شيخ زاده على تفسير البيضاوي، تحقيق: محمد عبد القادر شاهين، ط١ دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م، ج٥ ص١٤٠.

لمفاهيمه ومعانيه من دون سائر المعاني والمفاهيم فهي لسان محايد استطاع القرآن تطويعها لمضامينه ومن هنا نلاحظ الفرق بين العربية وغيرها من ألسن الرسل فنزول رسالات سائر الرسل بلغات أقوامهم غرضه الأساس هو الإفهام أما نزول القرآن بالعربية فغرضه مع الإفهام التحدي والإعجاز»[١].

وإن من أهم ما يميز اللغة العربية التي اختارها سبحانه لأعظم رسالة وأعظم كتاب إلهي أنها أفصح اللغات وأوضحها وأبعدها عن الغموض والتعقيد[٢] وهي من أجمع اللغات في حروف النطق وتتحمل ألفاظها أكبر عدد من المعاني[٣].

وقد جعل الله رسالة كافة الأنبياء والرسل قبل محمد ﷺ مختصة بأقوامهم وما في الكتب الإلهية من شرائع وأحكام وتكاليف محددة مؤقتة لا تصلح إلا لزمانها فدعوة موسى عليه السلام كانت دعوة خاصة بقومه من بني إسرائيل ومن نزلت فيهم أحكام وشرائع التوراة وإن كانت دعوته قد شملت فرعون وأتباعه يقول أبو السعود: «إن إرسال موسى عليه السلام إلى فرعون وملئه بالايات التسع إنما كان لأمرهم بعبادة رب العالمين عز سلطانه وترك العظمة التي كان يدعيها الطاغية ويقبلها منه فئته الباغية وبإرسال بني إسرائيل من الأسر والقسر وأما العمل بأحكام التوراة فمختص ببني إسرائيل»[٤] كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ [الصف: ٥] وقال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٢].

وعيسى عليه السلام قد بُعث إلى بني إسرائيل بعد أن طال عليهم الأمد فقست قلوبهم وانحرفوا عن الطريق الواضح الذي أقامهم عليه نبيهم موسى عليه السلام من

---

(١) طه جابر العلواني [عربية القرآن ومستقبل الأمة القطب] مجلة إسلامية المعرفة، يصدرها المعهد العالمي للفكر الإسلامي العدد ٣٥ السنة التاسعة ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ص١٥٠.

(٢) انظر: مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، راجعه: نجوى عباس، ط١ مؤسسة المختار للنشر ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م، ص٦٧.

(٣) انظر: خلف الله، القرآن يتحدى، ص٩١.

(٤) أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج٣ ص٣٩.

قبل، فبعث فيهم عيسى عليه السلام ليعيدهم إلى جادة الحق والصواب[(١)] كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ [الصف: ٦] وقال تعالى على لسان عيسى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [آل عمران: ٤٩] وهذه الاية تدل على أنه عليه السلام كان رسولاً إلى كل بني إسرائيل وأنه لم يبعث إلا إليهم[(٢)].

المطلب الرابع

الإتمام والختام

ختم الله سبحانه الكتب الإلهية بإنزاله القرآن الكريم على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ﷺ قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠] وقد أودع الله سبحانه في القرآن الكريم كل ما يؤهله لأن يكون آخر رسالاته ووحيه إلى الأرض وشرع فيه من الشرائع الباقية التي تنطبق على مصالح الناس في كل زمان وكل مكان بمقتضى مشيئته تعالى وحكمته وبحسب علمه بما يصلح لهذه البشرية وما يصلحها في دنياها وأخراها فلا تبديل بعد ذلك ولا تغيير[(٣)].

وأراد الله سبحانه أن يربط القرآن الكريم مع ما سبقه من كتب إلهية وإن كان قد ختمها وأنهى ما ألقي على عاتقها من مسؤولية الهداية والإرشاد، فكان من قواعد رسالته وأهم أهدافه - بعد تصديق هذه الكتب الإلهية - إتمام وإنهاء الصرح الإلهي الذي بناه الرسل والأنبياء على مر العصور إذ كانت مهمتهم وما بعثوا به من وحي سماوي وكتب إلهية الدعوة إلى الخير وإصلاح البشر وإخراجهم من الظلمات إلى النور فكان كل واحد منهم يأتي عقب الاخر ليتمم ما بناه من سبقه فيزيد في الإصلاح لبنة

(١) انظر: فوزي عبد العظيم قمر، معالم النبوة الخاتمة في القرآن الكريم، ط١ دار الطباعة المحمدية - القاهرة ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م، ص٧٥.

(٢) القوجوي، حاشية محي الدين شيخ زاده، ج٣ ص٦٩.

(٣) انظر: قطب، في ظلال القرآن، م٥ ص٢٨٧١.

حتى استكمل البناء بخاتمهم محمد ﷺ فكان دينه خلاصة الرسالات السابقة وكانت دعوة القرآن الكريم هي الجديرة بالبقاء وقيادة الأرض[١] قال ﷺ: «إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي، كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة، قال فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين»[٢]، فرسالة الله للبشرية جمعاء بتحقيق العبودية الخالصة له وحده سبحانه قد توالت الرسل والكتب الإلهية على تأسيس قواعدها ورفع بنيانها إلى أن أتمّ النبي ﷺ شرائع الله وتعاليمه وأكمل صلاح ما بقي من ذلك البنيان[٣] قال تعالى: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ ﴾ [آل عمران: ٣-٤] يقول أبو زهرة في قوله ﴿ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾: «أن الله تعالى كرّر ذكر القرآن بعد أن ذكرت التوراة والإنجيل للإشارة إلى الاتصال الكامل بين شرائع الله تعالى وأنه تتميم لما سبقه وأنه كمال هذه الشرائع كلها وأن رسالة النبي ﷺ هي آخر لبنة في صرح الشرائع الإلهية وبنزولها كمل الدين»[٤].

وباكتمال نزول القرآن الكريم فقد غدا المصدر الوحيد للوحي الموثوق المعصوم الذي تتلقى منه الأمة منهج حياتها ونظام مجتمعها والشرائع التي تحقق مصالحها إلى يوم القيامة[٥] قال تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣] وإكمال الدين - كما يقول ابن عاشور - بأن «صار مجموع التشريع الحاصل بالقرآن والسنة كافياً في هدي الأمة في عبادتها ومعاملتها وسياستها في سائر عصورها بحسب ما تدعو إليه حاجاتها، فقد كان الدين وافياً في كل وقت بما

---

(١) انظر: دراز، مدخل إلى القرآن الكريم، ص ١٠٥. وانظر: سابق العقائد الإسلامية، ص٢٠٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب المناقب باب خاتم النبيين (برقم (٣٣٤٢) ج٣ ص١٣٠٠.

(٣) انظر: العسقلاني، فتح الباري، ج٦ ص٥٥٩.

(٤) أبو زهرة، زهرة التفاسير، ج٢ ص١١٠٢.

(٥) انظر: قطب، في ظلال القرآن، م٢ ص٨٣٣.

يحتاجه المسلمون»[١].

ولم تعد أمة القرآن الكريم بحاجة إلى دين غير دينهم ولا نبي بعد محمد ﷺ فلا حلال إلا ما أحله الله ولا حرام إلا ما حرمه الله ولا دين إلا ما شرعه[٢] على وفق ما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة التي وضحت وبينت القرآن ورسمت للناس بمعيته معالم الحياة وتطبيقاتها العملية[٣] كما قال ﷺ: «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق»[٤].

وبتمام نزول القرآن استقر هذا الدين بكل جزئياته الاعتقادية والتعبدية والتشريعية وإن ما ورد في القرآن من الأحكام التفصيلية جاءت لتبقى كما هي والمبادى الكلية جاءت لتكون هي الإطار الذي تنمو في داخله الحياة البشرية وترتقي وتتطور دون خروج على أصل منه ولا فرع لأنه لهذا جاء ولهذا كان آخر رسالة للبشر أجمعين[٥].

وقد كان من أهم ما أهلّ شريعة القرآن وأحكامه العملية لأن تكون خاتمة الشرائع والأحكام الإلهية أن جعلها سبحانه قائمة بين المرونة والثبات وقد نص القرآن على أحكام تفصيلية في الأمور الثابتة في حياة البشر تحكم ما هو عرضة للتغير الدائم في الفروع - غيرا لمنصوص عليها - والتي تحتاج إلى بيان حكم الله فيها وإن هذه الفروع المستنبطة من تفاصيل الأحكام والشرائع الثابتة - المنصوص عليها - إذا كانت متسقة مع مقاصدها متوافقة مع غايات هذه الأصول الثابتة وبالقياس على فروعها المنصوص عليها فهي تجديد لا يتعارض مع تمام الدين واكتماله وختام الشرائع بالقرآن الكريم وهي تجديد في نطاق وآفاق وتأثيرات الأصول الثابتة وتفصيلات الأحكام المنصوص

---

(١) ابن عاشور التحرير والتنوير ج٤ ص١٠٣.

(٢) ابن كثير تفسير القرآن العظيم ص٥٧٨.

(٣) انظر: شحاتة تفسير القرآن الكريم ج٢٢ ص٤٣١٧.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده برقم (٨٩٣٩) ج٢ ص٣٨١. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد باب مكارم الأخلاق والعفو عن الظلم: «رجاله رجال الصحيح» ج٨ ص١٨٨.

(٥) انظر: قطب، في ظلال القرآن، م٢، ص٨٣٣.

عليها والتي اكتملت بتمام الوحي الذي اكتمل به الدين[١] ولا يعد هذا التجديد في الأمور المستحدثة الطارئة شريعة جديدة وتغييراً في الدين.

إن من أجلّ نعم الله على الإنسانية جمعاء أن جعل القرآن الكريم هو خاتم الكتب الإلهية وأودع فيه كل ما يؤهله ليكون آخر هذه الكتب ومن يحمل كلمة الله ورسالته الأخيرة للبشر فهو عام لجميع البشر معجز لهم جميعاً ومن المحال أن ينسخه كتاب آخر لامتناع تعدد الكتب الجامعة لخصائصه التي لا يتصور اجتماعها إلا في كتاب واحد بعينه لا مثل له ولا شبيه[٢].

ودين الإسلام دين الأنبياء جميعاً والذي تمثل في صورته النهائية في القرآن الكريم هو الدين الذي ارتضاه الله سبحانه ليكون ديناً خالداً أبدياً قائماً على أساس الشهادة لله تعالى بالوحدانية والإخلاص له بالطاعة والعبودية قال تعالى: ﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ ﴾ [المائدة: ٣] فهو الدين الحق المقبول عند الله العليم بخلقه ومصالحهم وما يناسبهم وما يصلح لهم[٣] وأي دين غير الإسلام فهو دين باطل ممحوق دين من وضع البشر واختراعهم ومصدره عقولهم الواهنة القاصرة قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٣] فدين الحق هو دين الإسلام في صورته الأخيرة بما يشتمل عليه من فرائض الله وأوامره ونواهيه وقد أتمه الله وأثبته بما أحاط به من الحجج والأدلة والبراهين التي تكفل أن يكون كلمة الله الأخيرة ودينه الباقي الذي ارتضاه فلا يغيره ولا يبطله ولا ينسخه أي دين آخر[٤].

---

(١) انظر: محمد عمارة، معالم المنهج الإسلامي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ط٢ دار الشروق ١٤١١هـ/ ١٩٩١م ص٩٤. وانظر: محمد قطب، لا إله إلا الله عقيدة وشريعة ومنهاج حياة، ط٢ دار الشروق القاهرة ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م ص٧٣.

(٢) خلف الله، القرآن يتحدى، ص٩١.

(٣) انظر: البقاعي، نظم الدرر، ج٢ ص٣٩٢. ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٤ ص١٠٨.

(٤) انظر: المراغي، تفسير المراغي، ج١٠ ص١٠٥.

الفصل الثاني

أوجه اتّفاق القرآن الكريم مع التوراة الإلهية

إنّ من أهمّ المرتكزات التي تقوم عليها العلاقة بين القرآن الكريم وما سبقهُ من كُتبٍ إلهية هي اعترافه بها وحديثه عنها بما يميّز ويبيّن أبرز ملامحها وذكر الهدى والنور الذي احتوت عليه وطبيعة الرّسالة السماوية التي تحملها وما في ذلك كلّه من نقاط اتّفاقٍ واشتراكٍ مع القرآن الكريم لا تدلل إلا على وحدة مصدر هذه الكتب ووحدة الغاية والهدف من إنزالها.

والتوراة الإلهية التي هي أعظم كتابٍ سماوي بعد القرآن الكريم كان له النّصيب الأكبر في الحديث والذكر حيث ركّز سبحانه في حديثه عن التوراة على ذكر أوصافها وسماتها وذكر طبيعة الرسالة والدّين الذي تحمله وما فيها من مبادى وأُصولٍ عقائدية وتشريعية وأخلاقية، وأنّها ذات ما دعا إليه القرآن الكريم وأكّده وصدّقه وحثّ على التمسُّك والالتزام به فكان دين الله واحد في هذه الكتب الإلهية ولم يكن القرآن فيما دعا إليه بدعاً من تلك الكتب.

وقد كان لذكر أبرز الأوصاف والسِّمات للتوراة الإلهية- والتي تبيّنَ أنّها مما وُصِفَ به القرآن أيضاً- من التعريفِ بها والتعريف بطبيعة الرسالة الإلهية التي أُلقيت على عاتقها والأهمّ من ذلك بيان الأهداف والغايات والمقاصد السامية من إنزال هذا الكتاب الإلهي وأنّها ذات الغايات والأهداف والمقاصد العُليا من إنزال القرآن الكريم وأنّها بالدرجةِ الأولى كتُبُ هدايةٍ وإرشادٍ وسعادة يتمثّلُ بها منهج الله الواحد وصراطه المستقيم الذي أرادَ من البشريةِ جمعاء أن تسير عليه وتتمسّك به مما يُحقّق لها السعادة والنّجاة والفلاحَ في وظيفتها ومهمّتها على وجه هذه الأرض من الإعمار والعبادة.

المبحث الأول

الأوصاف[1] التي اشترك بها القرآن الكريم مع التوراة الإلهية

اشترك القرآن الكريم مع التوراة الإلهية في العديد من الأوصاف ولا شكّ أنّ ذلك ينحصر ضمن إطار العلاقة القوية القائمة بين الكتابين الكريمين، حيث أنّ ذكر الأوصاف المشتركة له العديد من المعاني والدلالات كالتعريف بالتوراة الإلهية والاعتراف بها وما توحي به هذه الأوصاف ومعانيها من بيان وحدة الأهداف والمقاصد والوظائف والغايات من إنزال هذه الكتب الإلهية وكونها بالدرجةِ الأولى كتب هدايةٍ وإرشاد وسعادةٍ في الدنيا والاخرة.

---

(١) (من العلماء من اعتبر بعض أوصاف القرآن الكريم أسماءً له ولم يفرّق بين أسمائهِ وأوصافهِ ذلك أن محل ومحور الخلاف بين العلماء في تعيين أسماء القرآن الكريم - بشكل خاص- وكم عددها، وكانت آراؤهم في ذلك عبارة عن اجتهادات ووجهات نظر ووجوه استدلال خاص بكل واحدٍ منها، ولا شك أن قضية (الاسم و الصفة والعلاقة بينهما وهل أنهما مترادفان أو لهما نفس الدلالة والمعنى) هو الأصل في هذا الخلاف في اعتبار أسماء أو أوصاف القرآن الكريم أو العكس. بالإضافة إلى عدم وجود نصّ صريح في القرآن الكريم أو السنة المطهّرة ينصّ ويقطع بعدد هذه الأسماء ويعيّنها ومن ثمّ تمييز الأوصاف عنها.

على أن الرأي الذي يقول بأن أسماء القرآن هي أربعة - والباقي أوصافٌ له- هو الرأي الأكثر شيوعاً بين المفسرين على وجه الخصوص وهذه الأسماء هي [القرآن الكتاب الفرقان الذكر]. انظر: عبد الرزّاق رجب، أسماء القرآن الكريم وأوصافهِ، ص ١٩-٢١.

وقد عدّ العلماء (القرآن) هو أشهر أسماء كتاب الله المُنَزّلُ على محمد ﷺ وأكثره وروداً في آياته وأشهره دوراناً على ألسنة السلف. ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١ ص٧١.

ولعل الأسماء الثلاثة الأُخرى أُعتبرت أسماءً للقرآن على الرغم من أنّها أُطلقت عليه كما أُطلقت على غيره (كالتوراة الالهية) من باب تسمية الشيء ببعض أشهر معانيه وخواصّهِ وصفاته من غير ملاحظة لخصوصية الذات. انظر: الكفوي، الكليات، ص٥٤٧.

المطلب الأول

وحدة المصدر

اشترك القرآن الكريم والتوراة الإلهية في وحدة المصدر فكلاهما من عند الله تعالى لا من غيره وبالنسبة للقرآن الكريم: فمن أبرز خصائص القرآن الكريم أنّه لا يُنسب إلا إلى الله تعالى فما جاء به رسول الله ﷺ فليس من عند نفسه بل هو من عند ربه قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم:٣-٤] فالقرآن لا تجوز نسبته لغير الله لأنّ لفظه ومعناه من عند الله تعالى[١].

وكون القرآن الكريم معجزةً بذاته إلى يوم الدين فإنّ الحديث عن إثبات مصدره ليس كأيّ كتابٍ آخر، يقول محمد عبد الله درّاز: «ينبغي أن تسبق دراسة مصدر أي كتاب دراسة محتواه أما القرآن فإنّ دراسة مصدره تستوجب مخالفة هذه القاعدة لأن فكرة مصدره الإلهي ليست فقط جزءاً من دعوته وإنما هي الجزء الأساسيّ منها»[٢] وقد قرر سبحانه وتعالى في العديد من الايات وحدة الرسالة ووحدة المصدر وأنه سبحانه هو الموحي بجميع الرسالات لجميع الرّسل وأنّ القرآن الكريم امتدادٌ للكتب الإلهية السابقة مصدّقٌ لما جاء فيها ومصدّق كونها من عنده تعالى وأنّ الرسل الذين جاءوا بها لم يفتروها من عند أنفسهم. قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الشورى:٣] يقول سيد قطب في هذه الاية: «تتقرر وحدة الوحي ووحدة مصدره فالموحي هو الله العزيز الحكيم والموحى إليهم هم الرسل على مدار الزمان والوحي واحد في جوهره على اختلاف الرسل واختلاف الزمان»[٣].

وقد كان تنزيل الكتب الإلهية من سنة الله تعالى في الخليقة: قال تعالى:

---

(١) انظر: فهد بن عبد الرحمن الرومي، خصائص القرآن الكريم، ط٩ مكتبة العبيكان الرياض ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م، ص١٣٢.

(٢) دراز، مدخل إلى القرآن الكريم ص ١٢٦.

(٣) سيد قطب، في ظلال القرآن، م٥ ص٣١٣٩.

﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ [الزمر: ١] وقال: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ [آل عمران: ٣] وقال: ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ [غافر: ٢]. وفي معظم الايات يُنسب التنزيل إلى الله تعالى. وممّا يدلّل على أنّ مصدرها الله سبحانه أنّ هذه الكتب تتفق في المضمون فهي من مصدرٍ واحد وتعبّر عن حقيقةٍ واحدة كما أرادها الإله الواحد بمعنى أنها تشترك مع القرآن الكريم في: وحدة المصدر، وحدة التوجه والغاية، وحدة المفاهيم والعقيدة، فالله منزلها ومشرّع أحكامها وما وظيفة الرسل إلا البلاغ[1] قال تعالى: ﴿ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [العنكبوت: ١٨].

أما بالنسبة لمصدر التوراة: آيات كثيرة دلت على مصدر التوراة الإلهي وأنّ مصدرها هو ذات مصدر القرآن الكريم. قال تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ [الأنعام: ٩١] وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾ [السجدة: ٢٣] وقال سبحانه: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ٣-٤]. فجميع الايات تصرّح بأن التوراة كتاب أنزل من عند الله تعالى هدايةً للذين أنزل إليهم. وفي قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ ﴾ [المائدة: ٤٤] بيان لشرف التوراة الإلهية فقد شرّف الله سبحانه وتعالى التوراة بإضافة الإنزال إلى ذاته الكريمة سبحانه فضلاً عن التأكيد بـ (إنّا)[2].

ولا ننسى في هذا السياق قول النجاشي المعروف في حديث الهجرة إلى الحبشة: إنّ هذا والله والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاةٍ واحدة[3].

فكلٌّ ما في التوراةِ الإلهية من الهدى والخير والمواعظ والتبيين والتفصيل لكلّ شيء

---

(١) صادق مكي، الديانة الإسلامية، «عقيدة وأخلاق وشريعة»، ص٤٥.

(٢) انظر: أبو زهرة، زهرة التفاسير، ج٤ ص٢٢١٦.

(٣) وهو جزء من حديثٍ طويل أخرجه أحمد بن حنبل في مسنده برقم (١٧٤٠) الجزء الثاني، ص٣٥٤ وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد، كتاب المغازي والسير باب الهجرة إلى الحبشة وقال: رجاله رجال الصحيح، ج٦ ص٢٦.

ما يتلاءم مع العقول والفِطَر السليمة ويحقِّق في مجموعهِ منهجاً متكاملاً للحياة وللسعادةِ في الدارَين لا مفرّ لأيّ عقل من أن يحكم أنّ مصدرَه الله سبحانه وتعالى وحده لا شريك له. قال تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٥] وإسناد الكتابة إليهِ تعالى: إما على معنى أنّ ذلك كان بقدرته تعالى وصُنعهِ لا كسب لأحدٍ فيه وإما على معنى أنها كُتبت بأمره ووحيه سواءً كان الكاتبُ لها موسى أو الملك[١].

والمشهور عند العلماء أنّ التوراة والإنجيل أُنْزِلا جملةً وذلك استنباطاً من قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ ﴾ [الفرقان: ٣٢] حيث إنّه لولا أنّ الكتب السماوية قبله أنزلت جملةً لما طلبوا منه ذلك[٢]. وأيضاً لاختلاف التعبير القرآني بالإنزال في جانب التوراة كقوله تعالى: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ [آل عمران: ٣] جاء في الكشاف للزمخشري: أن الله تعالى قال ﴿ نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾ عن القرآن. وقال: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ لأنّ القرآن نزّل منجماً ونزّل الكتابان جملةً[٣].

إن التوراة الإلهية قد تلقّاها موسى عليه السلام في لقاء مباشر بينه وبين ربه عز وجل حيث أُنزلت دفعة واحدة في موقف التكليم على طور سيناء[٤]، وهو سبحانه وتعالى قد كتب التوراة وخطها لموسى بيده[٥] قال تعالى مبيناً كيفية نزول التوراة:

---

(١) رضا، تفسير المنار، ج٩ ص١٦٣.

(٢) انظر: السيوطي، معترك الأقران في إعجاز القرآن، ج٢ ص٢٥٩. محمد عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، تحقيق: فواز أحمد زمرلي، ط٢ دار الكتاب العربي ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م، ج١ ص٢٨.

(٣) الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل، ج١ ص٣٦٤.

(٤) انظر: جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ط٣ دار الكتب العلمية ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، ج١ ص (٩٤).

(٥) انظر: الحديث الشريف الذي أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب القدر باب حجاج آدم وموسى عليهما =

﴿ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾ [الأعراف: ١٤٢-١٤٥] وهناك اتجاهان للمفسرين في هذه الألواح التي كتبها الله لموسى عليه السلام: الأول: أن هذه الألواح مشتملة على التوراة وأن التوراة كتاب موسى عليه السلام نزل مكتوباً على هذه الألواح.

الثاني: أن الألواح أعطيها موسى قبل التوراة[(١)].

ولم يرد في لفظ الآية ما يدل على كيفية تلك الألواح وعلى كيفية تلك الكتابة ولم يرد نص صحيح عن رسول الله ﷺ في عددها أو كيفيتها[(٢)] وذكر السيوطي في الإتقان عدة آثار حكم عليها بالصحة تدلل على نزول التوراة جملةً ومآلها اعتبار الألواح هي ذات التوراة الإلهية كتاب موسى عليه السلام[(٣)] ومن أبرز ذلك ما أخرجه النسائي عن ابن عباس قال: «أخذ - موسى - الألواح بعدما سكت عنه الغضب فأمرهم بالذي أمر به أن يبلغهم من الوظائف فثقل ذلك عليهم وأبوا أن يقرّوا بها فنتق الله عليهم الجبل كأنه ظُلة ودنا منهم حتى خافوا أن يقع عليهم فأخذوا الكتاب بأيمانهم وهم مصطفون ينظرون إلى الجبل والكتاب بأيديهم..»[(٤)].

= السلام برقم (٢٦٥٢) ج٤ ص (٢٠٤٢).

(١) ذكر ابن كثير هذا الاتجاهان ولم يرجّح أحدهما على الاخر واكتفى بقول «فالله أعلم» انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ص٧٨٤.

(٢) انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ج٥ ص٣٦٠. طنطاوي، التفسير الوسيط، ج٥ ص٣٧٤.

(٣) انظر: السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج١ ص٩٤.

(٤) جزء من حديث الفتون أخرجه النسائي في السنن الكبرى، كتاب التفسير باب ٢٣٧ سورة طه برقم =

ورجح محمد رشيد رضا أن الألواح هي «أول ما أوتيه موسى من وحي التشريع فكانت أصل التوراة الإجمالي وكانت سائر الأحكام التفصيلية من العبادات والمعاملات الحربية والمدنية والعقوبات تنزل عليه ويخاطبه الله تعالى بها في أوقات الحاجة إليها كالقرآن»[١].

المطلب الثاني

الهدى

لما كانت هداية الكتب الإلهية وإرشادها إلى الحق هي من أهم و أسمى مقاصدها تكرر وصفه سبحانه وتعالى للقران الكريم والتوراة الإلهية بوصف الهدى، والهدى: الرشاد والدلالة[٢]: وهو اسم يقع على الإيمان والشرائع كلها إذ الاهتداء يقع بها كلها[٣].

وقد ارجع القرطبي الهدى إلى: هدى دلالة وهو الذي تقدر عليه الرسل واتباعهم كقوله تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ [الرعد: ٧] وقد اثبت لهم سبحانه هذا الهدى الذي معناه الدلالة والدعوة والتنبيه وتفرّد هو سبحانه بالهدى الذي معناه التأييد والتوفيق فقال لنبيه: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ﴾ [القصص: ٥٦] والهدى على هذا يجيء بمعنى خلق الإيمان في القلب[٤] قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ [لقمان: ٥].

ولما كان الهدى هو المقصد الأول من إنزال القرآن الكريم فإنّ المتأمل في آياته يرى

= (١١٣٢٦) ج٦ ص٤٠٥. وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد، كتاب التفسير سورة طه وقال: رجاله رجال الصحيح، ج٣ ص١٨٧.

(١) رضا، تفسير المنار، ج٩ ص١٦٣. وانظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٩ ص٩٧.

(٢) جمال الدين بن مكرم ابن منظور(ت٧١١هـ) لسان العرب، ط١ دار صادر بيروت ١٤١٠هـ ١٩٩٠م، ج١٥ ص٣٥٤.

(٣) الكفوي، الكليات، ص٩٥٤.

(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج١ ص١٦٠.

الهداية والتنوير لمسالك البشر في كلّ اتجاهٍ وصوب سواءً كانت بادية ظاهرة لا تحتاج إلى جهد في استنباطها أم كانت لأولي الألباب من العلماء يكشفون عنها حسب حاجات البشر ومصالحهم وتوفيق الله لهم في الكشف عنها وفي كل منحى من مناحي حياتهم ووظيفتهم في إعمار هذه الأرض والعبودية لله تعالى فيها.

وقد كان لوصف القرآن الكريم أو تسميته بالهدى أكثر من دلالةٍ ومعنى منها:

١- إهتداء المؤمنين به واتباعهم لهداه وانقيادهم لما فيه من الأوامر والنواهي والحلال والحرام[١].

٢-القرآن هدى كامل لمن تدبره وتلاه حق تلاوته فإنه يجذبه ببيانه وبلاغته إلى الحق الذي قرره وإلى عمل الخير والصلاح الذي بيّن فوائده ومنافعه[٢].

٣-القرآن يرشد العقل إلى آيات الله المنصوبة في الافاق وفي الأنفس حتى يستدل بها ويتبين له طريق الحق واليقين[٣].

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] وقال: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٦٤] وقال سبحانه في آية أخرى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وأمّا تقييده تعالى الفئة المنتفعة من هدى القرآن بأنها فئة المتقين (أو المؤمنين أو المسلمين) وجعله سبحانه الهدى للناس أجمعين في آيات أخرى؛ فإنّه هداية للمؤمنين خاصة لأنهم هم الذين ينتفعون بشرائعه وحكَمِه ومواعظهِ وعِبرِهِ وأمثالِهِ وفضائله وهداية عامه لسائر البشر: لأنه يدلّهم على أقوم الطرق التي توصلهم إلى السعادة في الدنيا والاخرة ويزيل عنهم غشاوة الأوهام ويزكّي نفوسهم من أدران المعتقدات الفاسدة

(١) انظر: الطبري، جامع البيان، ج١ ص٦١٦.
(٢) رضا، تفسير المنار، ج٨ ص١٨١.
(٣) انظر: أبي السعود، إرشاد العقل السليم، ج٤ ص١٥٥.

والطبائع المرذولة[١].

إنّ القاعدة العامة في كون القرآن هدى اشتماله على أُسس الهدى لمن أراد أن يهتدي بها فهو هدى فيما يوضّحه الله تعالى في الكتاب للناس من وسائل الهدى وأسبابه وما يمهّده لهم من طرق الهدى وسبله[٢] قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

وفي جانب التوراة الإلهية قال تعالى في هدى التوراة: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ٩١]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ۝ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۝﴾ [غافر: ٥٣-٥٤]. وقال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٢] وكون التوراة هدى فلأنه يشتمل على أحكام تهدي الناس إلى سبيل سعادتهم في الدنيا وفي الاخرة ويشتمل على مواعظ تستثير فيهم الرعب والرهب فتجعلهم يسلكون سبيل هدايتهم إلى سعادتهم ويشتمل على معارف وبينات تخرجهم من ظلمات الأهواء والشهوات والضلالات ووساوس الشياطين وتضعهم في طريق النور والحق والخير والفضيله والرشاد[٣].

التوراة هدى لأنه يفتح لهم آفاق المعرفة والعلم ويخلصهم من ظلمات الجهل إلى نور العلم وينطلقوا من خلاله إلى نور الحرية بعد أن تجرّعوا ويلات الاستعباد والظلم فيخلصوا العبادة لله تعالى وحده ويبتعدوا عن عبادة مخلوقاته أو التحاكم إليها لأنهم إذا التزموا ما تدعوهم إليه التوراة الإلهية في أفكارهم وعقائدهم وأفعالهم وعلاقاتهم ومعاملاتهم حقّقوا ما فيها من أهداف وغايات لا توصلهم إلا إلى صراط الله

---

(١) عبد الباري محمد داود، الفتوحات الربانية في الآيات القرآنية، ط١ دار النهضة العربية بيروت ١٩٩٧م، ص٢٦٤.

(٢) انظر: فضل الله، من وحي القرآن، ج١٣ ص٢٧٩.

(٣) الميداني، معارج التفكر ودقائق التدبر، ج٤ ص ٥٩٥.

ونهجه المستقيم[١].

ويرى بعض العلماء كالفخر الرازي أنّ إطلاق الهدى على التوراة الإلهية لأنّ فيها الدعوة إلى التوحيد والنهي عن اتخاذ الشريك كما قال تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴾ [الإسراء: ٢] وأيضاً لأنّ فيها الدعوة إلى التصديق برسل الله تعالى وعلى رأسهم التصديق برسالة سيدنا محمد ﷺ وهي بهذه الدعوة الثانية هدىً للناس في كلِّ زمانٍ ومكان[٢]. وقوله تعالى عن التوراة: ﴿ وَهُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ [الأنعام: ٩١] أنه كان كذلك لأنّ فيه نصٌّ صريح في الدعوةِ إلى الإيمان والتصديق بغيره من الكتب السماوية إلى جانبِ الدعوةِ إلى العمل بما فيها فكان بذلك هدىً للناس كلِّهم حتّى عند إنزال القرآن الكريم[٣].

ويرى أبو زهرة أن الهداية أو الهدى ما اشتملت عليه من بيان الأحكام في المعاملات والزواجر الاجتماعية وما يرشد إلى التطبيقات العملية[٤]؛ بمعنى كل ما يؤدي إلى تهذيب السلوك وحسن التعامل مع بعضهم البعض فهو المرجع والمقوِّم.

بالإضافة إلى ما في التوراة من العقائد والأحكام التي أخرجت بني إسرائيل من ظلمات الجهل والكفر واستعباد المصريين ووثنيتهم إلى نور العلم والدين وطريق الاستقلال والحرية في دينهم ودنياهم عاجلهم وآجلهم، فأنقذتهم من دروب الضياع ومتاهات الضلال إلى طريق فطرتهم سبيل الله الذي أراد لهم أن ينهجوه ويعتقدوه ويسيروا على وفق خطاه. . !!

---

(١) انظر: فضل الله، من وحي القرآن، ج١٤ ص٢٨.
(٢) انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ج١٠ ص١٥٤. الطبري، جامع البيان، ج٣ ص٢٧٧.
(٣) انظر: البقاعي، نظم الدرر، ج٢ ص٦٧٢.
(٤) أبو زهرة، زهرة التفاسير، ج٤ ص٢٢١٦.

المطلب الثالث:

النّور

وفي معنى النور يقول الراغب الأصفهاني: النّور : الضوء المنتشر الذي يعين على الإبصار وذلك ضربان دنيوي وأخروي والدنيوي ضربان:

١- ضربٌ معقول بعين البصيرة وهو ما انتشر من الأمور الإلهية كنور العقل ونور القرآن.

٢- ومحسوسٌ بعين البصر وهو ما انتشر من الأجسام النيّرة كالقمرين والنجوم النيّرات.

فمن النور الإلهي قوله: ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴾ [المائدة: ١٥] ومن المحسوس بعين البصر نحو قوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا ﴾ [يونس: ٥] ومن النور الأخروي[1]: ﴿ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ [الحديد: ١٢].

فإطلاق النور على القرآن الكريم والتوراة الإلهية من باب النور الإلهي الذي هو معقولٌ بعين البصيرة، وتدرك به البصيرة الحق والخير والصلاح والصواب. قال تعالى في نور القرآن: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ [النساء: ١٧٤] وقال: ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [التغابن: ٨].

والقرآن الكريم في هذه الآيات أشبه النور في إيضاح المطلوب باستقامة حجته وبلاغة كلامه وأشبه النور في الإرشاد إلى السلوك القويم وفي هذا الشبه الثاني تشاركه الكتب السماوية[2] كما قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾

---

(١) الحسين بن المفضّل المعروف بالراغب الأصفهاني (ت ٥٠٣هـ) معجم مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، ط١ دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، ص٥٦٤.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢٨ ص٢٧٣.

[المائدة: ٤٤].

وقد عبّر سبحانه وتعالى عن القرآن بالنور-النيّر بنفسه المنوّر لغيره- ايذاناً بأنه بيّنٌ بنفسه مستغنٍ في ثبوت حقيقته وكونه من عند اللهِ تعالى بإعجازه غير محتاجٍ إلى غيره مبيّنٌ لغيره[١]، . مبينٌ لكلٍّ ما أُنزلَ لبيانه تنجلي الحقائق ببلاغة وأساليب بيانه بحيث لا يشتبه فيها من تدبّره وعقل معانيه بل تثبت في عقله وتؤثر في قلبه وتكون في الحكمة على نفسه والمُصلِحة له في عملهِ[٢]، فالقرآن نورٌ يشرق في قلب المؤمن فيزهر بالأيمان ويشرق في حياته فينزّها ويشرق في سماء الأُمةِ فيكون ضياءً وسعادة وهدى وخير ويشرق في البشرية فتعرف مواقعها وتهتدي إلى طريقها[٣] إن أرادت سواء السبيل فتخرج به من ظلمات الكفر والشرك إلى نور العلم ونور الإيمان.

وفي نور التوراة: قال تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ [الأنعام: ٩١] فهو سبحانه وتعالى قد عبّر عن التوراة بالنور لوضوحها ولما احتوته من حقّ ولخلوها من أي باطل[٤].

يقول الفخر الرازي: «أنه تعالى سماه نوراً تشبيهاً له بالنور الذي به يبين الطريق والنورله صفتان: ١-كونه في نفسه ظاهراً جلياً. ٢-كونه بحيث يكون سبباً لظهور غيره»[٥] وربما وجدنا علاقة بين ذلك وبين الظروف التي أحاطت ببني إسرائيل زمن تنزل التوراة والانقلاب الاجتماعي الذي أحدثته بعثة موسى عليه السلام ونزول التوراة عليه وإخراجهم من ظلمة الاستبداد والكفر والضلال إلى نور الإيمان ونور العلم والحرية فكأنّ التوراة هي المنارة وهي السبب والمصدر للنتيجة المرجوة من ذلك ألا وهو الهدى.

---

(١) أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج٢ ص٢٦٢.

(٢) رضا، تفسير المنار، ج٦ ص٣٣٠.

(٣) الخالدي، مفاتيح للتعامل مع القرآن، ص٢٧.

(٤) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٧ ص٤٦٣.

(٥) الرازي، مفاتيح الغيب، ج ٧ ص٨٤.

كلّ ما في التوراة من نورٍ وضياء فهو كاشفٌ لما يتشابه ويلتبس على أهلها وكاشفٌ لما يعترضهم من ظلمات فيبصروا به طريق الاستقلال وطريق الحق والصواب والاستقامة في أمر دينهم ودنياهم[١] قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ﴾ [المائدة: ٤٤].

فالنور في التوراة: ما يتعلق بالعقيدة والعبادة والمواعظ وسائر ما يتصل بالتوجيه النفسي وتطهير القلوب: مما تشتمل عليه من مواعظ مبصرة وأخلاق منيرة للحق مُقوّمة للسلوك مكوّنة للرأي العام الفاضل وعبادات مطهّرة للنفوس منيرة للقلوب[٢]، وقد حاول القاضي أبو السعود إيجاد علاقة ما بين الهدى والنور في الاية الكريمة مع اعتباره أنَّ ما في التوراة من هدى ونور يتمثّل في الأحكام والشرائع فقال: «إنّ ما فيها من الأحكام والشرائع: من حيث إرشادها للناس إلى الحق الذي لا محيد عنه هدى ومن حيث إظهارها وكشفها ما استبهم من الأحكام وما يتعلق بها من الأمور المستورة بظلمات الجهل نور[٣]».

فالتكاليف في الأحكام والشرائع وما فيها من معان وعلل وحكم بيّنة واضحة غير مبهمة وليس فيها تكلف ولا غموض فساعد ذلك على أن تكون مصدر وسبيل الهدى والإرشاد للناس إلى ما ينفعهم في دينهم ودنياهم وأن لا يضلوا ولا يزيغوا إلى مصدر آخر.

---

(١) انظر: المراغي، تفسير المراغي، ج٢ ص١٢٢.

(٢) أبو زهرة، زهرة التفاسير، ج٤ ص٢٢١٦.

(٣) أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج٢ ص٢٧٥.

المطلب الرابع

الرحمة

الرحمة عند الراغب الأصفهاني: رقة تقتضي الإحسان إلى المرحوم، فالرحمة منطوية على معنيين: الرقة والإحسان وقد ركّز تعالى في طبائع الناس الرقة وتفرّد بالإحسان[١].

وقد وصفت التوراة الإلهية بالرحمة: أي أنَّ فيها رقّةٌ وتعطفٌ وإحسان كما وصف القرآن الكريم بذلك مع أنه جاء رافعاً للاصار والأغلال التي كانت فيها... ! فكانت التوراة كتاب رحمة وكان القرآن كتاب رحمة ونعمة وفضل عظيم من الله تعالى للعالمين.

قال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]. وقال سبحانه: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]. وقال: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَـٰهُم بِكِتَـٰبٍ فَصَّلْنَـٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٥٢].

والملاحظ اقتران وصف الرحمة بالهدى في العديد من الايات الكريمة أكثر من أي وصف آخر. وكأنه سبحانه وتعالى جعل الرحمة من ثمرات ونتاج الهدى والهداية قال تعالى: ﴿ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ [الأنعام: ١٥٧].

فهو رحمةٌ من الله تعالى للناس إذ جاءهم به مشتملاً على الهدى فأبان لهم صراط سعادتهم في الدنيا وصراط نجاتهم من عذاب الله يوم الدين في الجحيم وظفرهُم بالنعيم الخالد في جنات النعيم فهو أثرٌ من آثار رحمة الله بعباده، ورحمة الله عز وجل صفةٌ من صفاته على ما يليق بجلاله وهي تستلزم الإكرام والإنعام والإحسان ويكون من آثارها بحسب حكمته جل جلاله العفو والغفران[٢].

---

(١) الراغب الأصفهاني، معجم مفردات الفاظ القرآن، ص٢١٦.

(٢) الميداني، معارج التفكر، ج٤ ص٢٧٣.

والقرآن الكريم رحمة بما جاء به من شريعةٍ سمحة رافعة للآصار والأغلال، شريعة قائمة على اليسر ورفع الحرج والمشقة مع كونها مصلحة للأفراد ولجميع الأمة إذ لا يحكم العقل إلا أنها من العليم بكل شيء سبحانه(١).

وقد ورد في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١] ذكر سبحانه وتعالى في هذه الاية إحدى الدلالات على رحمة الله للمؤمنين وعنايته بهم: وهي الرحمة في قصص أهل الفضل فكانت هذه القصص رحمةً للمؤمنين لأنّهم باعتبارهم بها يأتون ويذرون فتصلح أحوالهم ويكونون في اطمئنانٍ بال وذلك رحمةٌ من الله بهم في حياتهم وسببٌ لرحمته إياهم في الاخرة(٢) كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧].

وفضلاً عن وصف القرآن بالرحمة فقد وُصفَ النبي ﷺ بالرحمة في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] ووُصفَ أصحابهُ الكرام والمؤمنين بالرحمة في مثل قوله تعالى: ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] وهذا قد يدلل -والله أعلم- على أنّ الرحمة في القرآن وكل صورها وأشكالها وآثارها يجب أن تترجم إلى تطبيق عملي وسلوكي وتصبح منهجاً للفكر والسلوك ومنهجاً في كافة مجالات الحياة وبين كافة أفراد المجتمع وهذا كله من آثار اتصاف الله بالرحمة.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧] إن رحمةَ القرآن للمؤمنين: هي ما تثمره لهم هداية القران وتُفيضه على قلوبهم من رحمة ربهم الخاصة وهي صفة كمال ومن آثارها: بذل المعروف وإغاثة الملهوف وكف الظلم ومنع التعدي والبغي وغير ذلك من أعمال الخير

(١) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٥ ص١٨٢.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٣ ص٧٢.

والبر ومقاومة الشر . . . [١].

إنّ القرآنَ منهجُ رحمةٍ شامل؛ رحمة في تعامل المسلم مع نفسه ومع غيره من المسلمين وغير المسلمين ورحمة في تعامله مع الكون والطبيعة من حوله، وكل ذلك يثمر سعادة عظيمة في الدنيا وسعادة ورحمة الله تعالى في الاخرة.

وبالنسبة لحديث القرآن الكريم عن رحمة التوراة الإلهية قال تعالى: ﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٤] وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٣] وقال سبحانه: ﴿ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ [الأحقاف: ١٢].

وقد أخبرت الآيات الكريمة أن مجيء التوراة لبني إسرائيل رحمة ونعمة وفضل عظيم من الله تعالى؛ ذلك أنه سبحانه أنزل التوراة على موسى وفصّل فيها الأحكام التي فيها سعادة البشر في دنياهم وآخرتهم من بعد ما أهلك الأمم التي من قبلهم كقوم نوح وهود وصالح ودُرست معالم الشريعة وطُمست آثارها واختلّت نُظُم العالم وفشا بينهم الشر ورُفع الخير، فاحتاج الناس إلى تشريعٍ جديد يُصلح ما فسد من عقائدهم وأفعالهم [٢].

وقد أُعتبرت هداية الضال- الذي جاءت التوراة من أجله - أثراً من آثار الرحمةِ به من حيث إرشادهِ وتعليمه ودلالته على صراط سعادتهِ ونجاته وفلاحه وما إلى ذلك من بشارتهِ بالمغفرةِ إذا تاب من ذنبه وآبَ إلى اللهِ تعالى، أيضاً تحذيره من مغبّةِ الاستمرار على الكفرِ والشرك وارتكاب الكبائر والاثام وهذا لا شك من آثارِ رحمةِ اللهِ تعالى بجميعِ خلقهِ وعباده. ومن بابِ أولى أن تكون التوراةُ وما فيها رحمةً للمؤمنين المتقين لاشتمالها على بشارتهم بجنات النعيم فضلاً عما فيها مما يحقق لهم الرحمة والسعادة

---

(١) المراغي، تفسير المراغي، ج١١ ص١٢٣.

(٢) المراغي، تفسير المراغي، ج٢٠ ص٦٣.

في الدارَين[١] قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٤].

وأُعتبِرت التوراة الإلهية رحمةً بشريعتها التي اشتملت عليها على الرغم مما هو مشهورٌ عن شريعة التوراة من الشدّة والحرج بدليل قوله تعالى﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ [الأعراف:١٥٧] ولكنّها بأخذها على أيدي الظالمين ومعاقبتهم والشدّة في إقامة العدل يكون ذلك رحمة فالعدل في ذاته رحمة وكما جاء في القران الكريم: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩].

فأيّةُ عقوبةٍ للجاني زاجرةٌ له تردعه عن فعلهِ وتردعُ غيره هذا رحمة به وبالمجتمع من حوله أما الرفق والتساهل معه وعدم تقويمه وتأديبه ظلمٌ له ولمجتمعهِ. ثمّ باشتمال شريعةُ التوراة على ما يُنظّم حياة المجتمع من شرائع في الزواج والطلاق والعقوبات[٢] وغير ذلك هو الرّحمة لما لتلك النظُم من أهميةٍ وشدّة الحاجة إليها مما لا يخفى على أحد.

واعتبر أبو السعود أنّ التوراة رحمة: لأنها نعمةٌ عظيمة على من أنزِل إليهم ومن بعدهم إلى يوم القيامة باعتبار أحكامه الباقية المؤيّدة بالقرآن العظيم[٣] كما هو المفهوم من قوله تعالى عن القران الكريم: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ﴾ [هود:١٧] ولا شكّ أنه -رحمه الله- يقصد أن القرآن الكريم باعتباره مصدّقاً لما بين يديه من التوراة مقرٌّ لما فيها احتوى على ما احتوت عليه من أصول العقائد والشرائع التي كانت رحمةً في التوراة ثم رحمةً في القرآن واستمرت رحمةً إلى يوم الدين.

ويمكن القول بناءً على ذلك أنّ رحمة التوراة استمرت آثارها حتى بعد مجيء القرآن

---

(١) انظر: الميداني، معارج التفكر، ج٤ ص٥٩٥.

(٢) انظر: أبو زهرة، زهرة التفاسير، ج٧ ص٣٦٨٧ و ج٦ ص٢٩٦٢. وانظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٦ ص٢٨.

(٣) أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج٣ ص٢٩٧.

وذلك لأنها احتوت على صفته وصفة المبعوث به رحمةً للعالمين وصفة أصحابه فكانت بذلك: سبباً لرحمة المصدقين المؤمنين به من أهل الكتاب وذريّاتهم وسبباً لنجاتهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة.

المطلب الخامس

الموعظة

الموعظة: اسم مصدر الوعظ: وهو نصحٌ بإرشاد مشوبٌ بتحذير من لحاق ضرّ في العاقبة أو بتحريض على جلب نفع مغفولٌ عنه[١].

والقرآن الكريم والتوراة الإلهية هي كتب سماوية تحمل على عاتقها رسالة وغاية وهدف من أهم ملامحها الهداية وتهذيب النفوس وتطهيرها باطناً وظاهراً وبجميع الاتجاهات، فلا غرو أن يصفها الله سبحانه وتعالى بالموعظة التي تهذّب الأخلاق وتقوّم السلوك وتلامس الأفئدة والمشاعر والأحاسيس فتنبع الرغبة في الهداية والخير من أعماق الإنسان وتثمر بعد ذلك مناهجَ عملية سلوكية كما يريد الله ويرضى قال تعالى في موعظة القران: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧] وقال سبحانه عن القران الكريم: ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨].

والقرآن الكريم بوصفه موعظة: هو كاشف عن أحوال الأعمال حسناتها وسيّئاتها مرغّب في الأولى رادع عن الأخرى ومبيّن للمعارف الحقّة التي هي شفاءٌ لما في الصدور[٢].

فالموعظة هي التعاليم التي تشعِر النفس بنقصها وخطر أمراضها الاعتقادية والخلقية وتزعجها إلى مداواتها وطلب الشفاء منها[٣].

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٥ ص٩٩.

(٢) أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج٤ ص١٥٥.

(٣) رضا، تفسير المنار، ج١١ ص٣٤٤.

وقد أُطلِق على العلم الكافل ببيان ما ينفع المكلف من محاسن الأعمال وما يضرّه من القبائح والترغيب في المحاسن والزجر عن القبائح (بالحكمة العملية) والتي هي الموعظة، فالقرآن الكريم كتابٌ جامعٌ للحكمةِ العملية التي تبيّن أحسن الأعمال وأقبحها فتوطِّن النّفوس وتشوقها إلى محاسن الأعمال وترهّبها بحكمةٍ وذكاء من مقابح الأعمال ومساوئها[١].

والمتأمل في آيات القران العظيم المشتملة على أساليب الترغيب وأساليب الترهيب التي هي عبارة عن رسائل بالدرجة الأولى إلى الأفئدة والقلوب وأعماق النفوس: تحثّها على فعل الخير والتمسك بالحق وتزجرها عن فعل الشرور والتمسك بالباطل، والمتأمل في ذلك ربما يدرك أن هذه الايات تزرع في القلوب الإرادة والعزم والتصميم وتثوّر مخابىء ومكامن الفطرة السليمة الكامنة في أعماق النفس وتزيح كلّ ما رانَ عليها من صدأ وركام وخبَث فتفتح القلوب للحب والخير وتقوّي العزيمة على العمل الصالح والسلوك القويم الرباني بعد أن انغرس في القلوب والعقول فكراً واعتقاداً ومنهجاً.

وقد وصف سبحانه التوراة الإلهية بالموعظة في قوله تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[الأعراف: ١٤٥] فكتب له سبحانه موعظةً من كل نوع أو قسم من أقسام المواعظ التي من شأنها أن تدفع المستجيب للاستمساك بالدين وتعليماته[٢]، ويدخل فيها كل ما ذكره الله تعالى من الأمور التي تؤدي إلى الرغبة في الطاعة والنّفرة من المعصية وما إلى ذلك من الوعد والوعيد وكلّ ما يؤدي إلى ترغيبهم أو ترهيبهم ويؤثر في قلوبهم[٣].

وقوله تعالى: ﴿موعِظَةً وَتَفصِيلاً لكُل شَيّءٍ﴾ بيان منه سبحانه لنوعيةِ هذا الذي كتبه وفرضه في التوراة فكانَ على رأس ذلك كلّ ما يؤدي إلى اتعاظهم والى أخذ العِبَرِ منه

---

(١) انظر: البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج٣ ص٢٠٤.

(٢) الميداني، معارج التفكر، ج٤ ص٥٤٨.

(٣) انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ج٧ ص٢٣٧.

كالحديث عن أصل التكوين وما في التوراة من قصصٍ وأخبار الأنبياء السابقين بالإضافةِ إلى تفصيل أحكام الشرائع وتوضيحها وبيانها[١]، كل ذلك حتى لا يبقى لهم حجةٌ ولا عذر يوم القيامة فهو سبحانه قد أتى على نفوسهم وقلوبهم في التوراة وزلزلها من كل جانب وطريق كتب فيها كل ما يؤدي إلى ترقيق قلوبهم وانفتاحها إلى الحق والصلاح وشفاها من كل أسقامها وأقذارها وطغيان حبّ الشهوة والمادة عليها.

إذاً كلّ ما في التوراة الإلهية كان منهجاً إلهياً متكاملاً للعظة والعبرة والتمسك بالحق والخير وعدم الانحراف وعدم الطغيان وعدم الكبر في الأرض لكن إرادة الإنسان هي التي تختار رضا الله أو غضبه وسخطه عليها!

المطلب السادس

الفرقان

الفرقان: هو الفرق والفصل بين الشيئين وقد يكون ذلك الفرق والفصل حسّياً مادياً كالجدار والسور وقد يكون معنوياً كالحجج والبراهين التي تفرق بين الحق والباطل[٢].

والفرقان كلام الله تعالى لفرقه بين الحق والباطل في الاعتقاد والصدق والكذب في المقال والصالح والطالح في الأعمال وذلك في القرآن والتوراة والإنجيل[٣].

ومن هنا فقد جاء إطلاق أو وصف القران الكريم بالفرقان في العديد من الايات قال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان: ١] وقال سبحانه: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وأغلب العلماء والمفسّرين ذهبوا إلى أنّ إطلاق وصف الفرقان على القرآن العظيم

---

(١) انظر: أبو زهرة، زهرة التفاسير، ج٦ ص٢٩٤٨.

(٢) الطبري، جامع البيان، ج١ ص٥٠.

(٣) الراغب الأصفهاني، معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص٤٢٤.

لأنه كلام فرق بين الحق والباطل[١].

وزاد بعضهم على ذلك معانٍ منها:

أنه مفروقٌ بعضه عن بعض في النزول أو في السور والايات[٢].

أو لفصله بين المحق والمبطل بأعجازه[٣].

أو لأنه الفارق بين كل ملتبس فلا يدع خفاءً ألا بيّنه ولا حقاً إلا أثبته ولا باطلاً ألا نفاه ومحقه، فيه انتظام الحياة الأولى والأخرى فكان قاطعاً على علم منزله..[٤].

أو لأنه يفرّق في العلم والاعتقاد بين الإيمان والكفر والحق والباطل وفي الأحكام بين العدل والجور وفي الأعمال بين الصحيح والفاسد والخير والشر[٥].

وكل ذلك بما فيه من آياتٍ وأدلة وحجج وحدود تجلّي أية شبهة ولا تدع مجالاً لأي تنازع واختلاف في أيّ مجال من مجالات حياة الإنسان. .

وفضلاً عن ذلك يمكن اعتبار القرآن العظيم فرقاناً عالمياً يرسم منهجاً واضحاً للحياة كلها في صورتها المستقرة في الضمير وصورتها الممثلة في الواقع منهجاً لا يختلط بأيٍّ منهج آخر مما عرفته البشرية قبله، ويمثل عهداً جديداً للبشرية في مشاعرها وفي واقعها لا يختلط كذلك بكل ما كان قبله فهو فرقان بهذا المعنى الواسع الشامل فرقان ينتهي به عهد الطفولة ويبدأ به عهد الرشد وينتهي به عهد الخوارق المادية ويبدأ به عهد المعجزات العقلية وينتهي به عهد الرسالات المحلية الموقوتة ويبدأ به عهد

---

(١) انظر: الطبري، جامع البيان، ج١ ص١٥٠. الرازي، مفاتيح الغيب، ج١٢ ص٤٥. تقي الدين ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ/ ١٣٢٨م) الفرقان بين الحق والباطل، تحقيق: حسين يوسف غزال، ط١ دار إحياء العلوم بيروت ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص٣٠-٣٢.

(٢) الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، ج١ ص١٧.

(٣) أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج٥ ص٢٠٠.

(٤) البقاعي، نظم الدرر، ج٥ ص٢٩٢.

(٥) رضا، تفسير المنار، ج٩ ص٥٤١.

الرسالة الشاملة[١] ليكون للعالمين نذيراً.

وقد وصفت التوراة الإلهية بالفرقان كما وصف القرآن العظيم بالفرقان فكلاهما كلام الله وكلاهما قد فرق بين الحق والباطل.

يقول عبد الحميد الفراهي - رحمه الله - : «التوراة والقران كلاهما يسمى بالفرقان لاشتمالهما على تفاصيل الأحكام ولفرقهما بين الحق والباطل والحلال والحرام ولكونهما واضحَين مبيّنَين»[٢] قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٨].

وفي سورة البقرة قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ٥٣] وفيها يقول محمد عبده عن الفرقان: «ذكره بعد الكتاب معطوفاً عليه دليلٌ على أن المراد به ما في الكتاب من الشرائع والأحكام المفرقة بين الحق والباطل والحلال والحرام»[٣].

وقد أُعتبِرت التوراة أول كتابٍ سماوي شامل في العقيدة والشريعة صادرٌ عن الله سبحانه لتكون بذلك أعظم كتاب فارق بين الحق والباطل بعد القرآن الكريم[٤] وقد عدّها سبحانه وتعالى من بين النعم الجمّة التي أنعمها على بني إسرائيل بها يخرُجون من حكم الطاغوت الظالم الذي يسيطر عليه هوى فرعون وأوهامه والذي كان لا يرعي في عذابهم عهداً ولا ذمة ولا خلقاً، يَخرجون من هذا إلى حكم الله بكتاب يتقيّدون بأحكامه حكاماً ومحكومين فلا يفرط عليهم حاكم ولا يطغى كما كان شأن فرعون لعنه الله فكانت التوراة بهذا فارقاً بين الحق والباطل وحكم الله تعالى وحكم فرعون[٥].

---

(١) جاسر خليل أبو صفية، كلمات من القرآن، ط١ (د.ن) ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، ص٢٤١.

(٢) عبد الحميد الفرّاهي (ت ١٣٤٩هـ/ ١٩٣٠م)، مفردات القرآن «نظرات جديدة في تفسير ألفاظ قرآنية» تحقيق: محمد أجمل أيوب الإصلاحي، ط١ دار الغرب الإسلامي ٢٠٠٢م، ص٣٦٨.

(٣) رضا، تفسير المنار، ج١ ص٢٦١.

(٤) انظر: فضل الله، من وحي القرآن، ج١٥ ص٢٣١.

(٥) أبو زهرة، زهرة التفاسير، ج١ ص٢٣٢.

وأرى أن من أهم مقتضيات كون التوراة الإلهية كتاب هداية بالدرجةِ الأولى أن يكون كتاباً شاملاً في التفريق بين الحق والباطل مما يحتاج الناس إليه في شعائرهم وشرائعهم وأخلاقياتهم ليكون منارةً تغنيهم في غياهب الشبهات وتضيء لهم دروب الخير والصلاح مما يثمر زيادةً وبركةً في الإيمان والتقوى.

المطلب السابع

البصائر

والبصيرة: قوةٌ في القلب تُدرك بها المعقولات وقوة القلب المدركة بصيرة(١).

يقول أبو السعود: «البصيرة هي النور الذي به تستبصر النفس كما أن البصر نورٌ به تبصر العين»(٢).

فكل ما يجلّي الحق للنفس ويعين على إدراك القلوب وتبصيرها بالمنهج القيّم المنهج المثالي الصائب فهو بصائر ودلالات ومن هذا المنطلق أطلق على القران العظيم والتوراة الإلهية وصف (البصائر) قال تعالى في بصائر القران العظيم: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٣].

وقال سبحانه وتعالى عن القرآن: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَاۚ﴾ [الأنعام: ١٠٤] ولما كان لفظ البصائر يطلق على الحجج والبراهين بطريق إطلاق اسم المسبب على السبب فإنها أسباب لبصائر القلوب وإدراكها، والقران لاشتماله على دلائل التوحيد والنبوة والمعاد وجميع ما هو الحق والصواب من عقائد المكلفين وأفعالهم وأخلاقهم صار سبباً لبصيرة القلب وإدراكه لتلك المطالب فوصف بأنه بصائر وهادي إلى الطريق المستقيم(٣).

---

(١) الكفوي، الكليات، ص٢٤٧.

(٢) أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج٣ ص١٧٠.

(٣) القوجوي، حاشية محيي الدين شيخ زاده على تفسير البيضاوي، ج٤ ص٣٥٣.

ومن الملاحظ أن صفة (البصائر) للقرآن جاءت في معظم الحالات بصيغة الجمع: وذلك لأنّ في القرآن الكريم أنواعاً من الهدى على حسب النواحي التي يهدي إليها من تنوير العقل في إصلاح الاعتقاد وتسديد الفهم في الدينِ ووضع القوانين للمعاملات والمعاشرة بين الناس والدلالة على طرق النجاح والنجاة في الدنيا والتحذير من مهاوي الخسران[١]، كما أن البصائر تطلق على الحجة والبرهان وتطلق على الشاهد وتطلق على العلم والخبرة وعلى العبرة وعلى كل ما به اتضاح الطريق وتطلق على الرقيب والقرآن فيه من كل هذه البصائر على اختلاف أنواعها[٢].

وكون القرآن بمنزلة البصائر للقلوب متحققة بالنسبة إلى الكل وبه تقوم الحجة على الجميع[٣] كما قال تعالى: ﴿ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحۡمَةٌ لِّقَوۡمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٠] ولا ريب أنّ ذلك من منطلق رسالة القرآن العالمية حيث لم يُبقِ أحداً محروماً من هدايته، خاطب القلوب ولامس المشاعر كما خاطب العقول بكافة أساليب الإقناع والحجج والبراهين.

وبالرغم من أنّ هذه البصائر القرآنية الربانية الهادية موجّهة للناس جميعاً إلا أن هذه البصائر لا تدركها إلا القلوب الحية حيث تعيها وتتفاعل معها وترشد بها وتهدى على أساسها، وهذه البصائر القرآنية الهادية تستقبلها القلوب المؤمنة وتفتح لها منافذها وأصداءها فتزداد إيماناً وهدى واستقامة ويقيناً بينما القلوب الغليظة القاسية الكافرة توصد منافذها أمام هذه البصائر فتزيد هذه القلوب الكافرة كفراً ورجساً وظلاماً وعمى[٤]. قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ ﴾ [التوبة: ١٢٥].

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٥ ص٢٣٨.
(٢) الميداني، معارج التفكر، ج٥ ص١٣٥.
(٣) أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج٣ ص٣٠٩.
(٤) الخالدي، مفاتيح للتعامل مع القرآن، ص٢٩.

ولا شك أن الكثير من هذه الدلالات والمعاني والإيحاءات للبصائر قد يشترك فيها القرآن الكريم مع التوراة الإلهية قال تعالى عن التوراة: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [القصص:٤٣]. إن التوراة كونها بصائر لبني إسرائيل أي أنها أنوارٌ لقلوبهم تبصرها وتزيدها فهماً وإدراكاً وذلك بما فيها من علوم ومعارف وحقائق يستطيعون بها ومن خلالها رؤية الأمور من حولهم رؤية واضحة وبنظرة واعية والتمييز بين كل حق وباطل[١].

إنّ التوراةَ بصائرٌ: لكونها مصابيحَ وأنواراً للناس يُبصرون بها ما يعقل من أمر معاشهم ومعادهم وأولاهم وأخراهم كما أن نور العين يبصر به ما يحسن من أمور الدنيا[٢] كما وجعل كتاب التوراة بصائر باعتبار كثرة ما فيه من بينات ودلائل ولاشتماله على الحجج والبراهين بالإضافة إلى ما فيه من علم يتعظ ويعتبر به الناس مما ينفعهم لدنياهم وآخرتهم[٣].

وما هذه الحجج والدلائل والبراهين والبيّنات إلا مصادر لهذا الضياء ولهذا النور في قلوب أهل التوراة الذين اتبعوها وعملوا بما فيها، حيث لم يبقَ لأحد حجّة ولا عذر فإن كل ما في التوراة الإلهية من حقٍّ وخير قد هيئت له كل الأسباب والسبل التي تؤدي إلى وصوله إلى أهله إلى قلوبهم وعقولهم وجميع مداركهم.

---

(١) انظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج٧ ص١٥.

(٢) البقاعي، نظم الدرر، ج٥ ص٤٩٣.

(٣) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٠ ص١٢٩. الميداني، معارج التفكر، ج٩ ص٤٠٨.

المطلب الثامن

البيّنات

البينة: الدلالة الواضحة عقلية كانت أو محسوسة[١] والبيّنة: ما يتبين به الحق في كل شيء بحسبه كالبرهان في العقليات والنصوص في النقليات والخوارق في الإلهيات والتجارب في الحسّيات والشهادات في القضائيات والاستقراء في أثبات الكليات[٢].

ومن منطلق الرسالة والوظيفة التي تحملها الكتب الإلهية فلابد من اتصافها بالبينات قال تعالى في جانب القرآن الكريم: ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ [الأنعام: ١٥٧] وقال سبحانه وتعالى: ﴿۞ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي﴾ [غافر: ٦٦].

القرآن الكريم مبيّن للحق في العقائد بما فيه من الحجج والدلائل الواضحة ومبين للحق في الفضائل والاداب وأصول الشريعة وأمهات الأحكام بالقدر الذي تصلح به أمور البشر ويحتاجه شؤون المجتمع[٣]، والقرآن الكريم يهدي لطريق الحق ويأتي بالبينات على أن هذا هو الحق وهذا مطّرد في جميع ما هدى إليه القران الكريم من العقائد الإيمانية والأحكام الشرعية والكمالات الخلقية والاداب العامة والخاصة[٤] قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وفضلاً عن الحجج الجلية والبراهين الواضحة والأدلة البينة في القرآن الكريم التي ميّزت وفصلت الحق بجميع دقائقه وتفصيلاته عن الباطل وما يؤدي إليه كان القرآن العظيم بذاته بيّنةٌ عظيمة لأنه جاء مصدّقاً وموافقاً لما في الكتب السابقة من حقّ قال

---

(١) الأصفهاني، معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص٨١.
(٢) رضا، تفسير المنار، ج١٢ ص٤١.
(٣) انظر: رضا، تفسير المنار، ج٨ ص١٨١.
(٤) سراج الدين، هدي القران الكريم الى الحجة والبرهان، ص٨٨.

تعالى: ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴾ [البينة: ٤].

وقال سبحانه: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ [طه: ١٣٣] اعتبرت هذه الآية أنّ بيّنات القرآن آيةٌ على صدقه وإعجازه وصدق المبعوث به ومن بيّناته: أنّه يشهد بأن ما نطقت به الكتب السماوية هو الحق بما فيها من العقائد الصادقة وأصول الأحكام والتشريع التي أجمعت عليها الرسل كافة[١].

وبما أن القرآن الكريم بيان وتبيين لكلّ شيء فإن هذا من شأنه أن يقطع الأعذار ويقيم الحجة على الجميع قال تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: ٨٩] والقرآن الكريم تبيان لأنه سبحانه بيّن فيه أنواع الحق والذي يشتمل دقائق الأمور وتفصيلاتها وكشف أدلته[٢]، وهو تبيان لكل شيء انطلاقاً من مهمته ووظيفته؛ فمهمة القرآن تنحصر في هداية الإنسان وإرشاده ببيان الخطوط العامة والقواعد الأساسية التي ينطلق منها لتكوين حياته ليعيش وفق تلك الرؤى والبصائر النابعة من القرآن، والقرآنُ الكريم من شأنه أن يعطي الإنسان قواعد كيفية التعرف على العلوم ويرشده إلى السبل والطرق والوسائل التي بها يكتشف العلوم[٣]، فكان القران بهذا دستوراً ومنهجاً وهدايةً للجميع في كل ما يتعلق بأمور الدين والدنيا.

وأما ما يتعلق ببيّنات التوراة الإلهية: فقد أخبر سبحانه أنه آتى بني إسرائيل حججاً ظاهرة وعلمهم بواسطة كتبهم وبواسطة علمائهم حجج الحق والهدى التي من شأنها أن لا تترك للشك والخطأ إلى نفوسهم سبلاً ألا سدتها قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ﴾ [الجاثية: ١٦-١٧] فعلّمهُم سبحانه علوماً في أمر دينهم ونظامهم بحيث

---

(١) أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج٦ ص٥١.

(٢) انظر: بدر الدين محمد الزركشي (ت ٧٩٤هـ) البرهان في علوم القرآن، علّق عليه: مصطفى عبد القادر عطا (د. ط) دار الكتب العلمية بيروت ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، ج١ ص٣٥٠.

(٣) عبد الشهيد مهدي الستراوي، القران نهجٌ وحضارة، ط١ مؤسسة الأعلمي بيروت ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م ص٢٠١.

يكونون على بصيرة في تدبير مجتمعهم وعلى سلامة من مخاطر الخطأ والخَطَل[١] والاختلاف والتنازع. وقوله تعالى عن بني إسرائيل: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ بإنزال التوراةِ عليهم فيها بيانُ كلِّ شيء والتفصيل لكلِّ شيء[٢] بحيث يستغنون بها عن كلّ ما سواها في أُمور دينهم ودنياهم.

وقد أُطلقت البينات على كل ما اعتبر حجة ودلالة وارشاد في التوراة، فشمل ذلك ما هو من أصول الشريعة مما يكون دليلاً على أحكام كثيرة، ويشمل الأدلة المرشدة إلى الصفات الإلهية وأحوال الرسل وأخذ العهد عليهم في اتباع كل رسول جاء بدلائل صدق. . لا سيّما الرسول المبعوث في أخوة إسرائيل وهم العرب الذين ظهرت بعثته فيهم[٣] قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩] يقول الزمخشري في قوله تعالى: ﴿مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: «ما أنزلنا في التوراة من الايات الشاهدة على أمر محمد ﷺ»[٤].

ويدخل في بيّنات التوراة ما أخبر عنه سبحانه وخصّص ذكره في آياتٍ أخرى: أحكام الرجم والخبر عن تحويل القبلة[٥] التي كانت مكتوبة في التوراة الإلهية بيّنة واضحة، قال تعالى في وصف التوراة: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ﴾ [الصافات: ١١٧] فهذا الكتاب بكماله في بيان الأحكام وتمييز الحلال عن الحرام كأنه يطلب من نفسه أن يبيّنها ويحمل نفسه على ذلك[٦].

وفي وصفه سبحانه التوراة بشدة البيان وبلوغ الذروة في الوضوح بما فيها من بيّنات

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٥ ص٣٤٥.

(٢) انظر: الطبري، جامع البيان، ج١٣ ص١٩١.

(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢ ص٦٦.

(٤) الزمخشري الكشّاف ج١ ص٢٣٥.

(٥) كما قال تعالى في شأن تحويل القبلة: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: ١٤٤]. انظر: المراغي تفسير المراغي ج١ ص٣١.

(٦) القوجوي، حاشية محيي الدين شيخ زادة، ج٧ ص١٥٥.

يتبين بها الحق من الباطل ويكشف بها عن الهدى والرشاد، وكأنه سبحانه وتعالى يسقط كل عذر وحجة في أسباب الاختلاف والتنازع في التوراة البيّنة وفي نصوصها الإلهية لأنه سبحانه قد هيّأ لأهلها فيها كل ما يؤدي إلى الهداية للصراط المستقيم والدوام على ذلك.

المطلب التاسع

التفصيل لكلّ شيء

والتفصيلُ: التبيينُ والإخلاء من الالتباس[١]. والتفصيل لكل شيء صفةٌ حتمية متلائمة مع علمه تعالى وحكمته ومع كون القرآن الكريم والتوراة الإلهية كتب هداية ونور ورحمة وغايتها تحقيق السعادة للبشرية في دنياهم وأخراهم.

قال تعالى عنِ القرآن الكريم: ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف: ١١١] وقال: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ﴾ [الأنعام: ١١٤] وقال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ٥٢] وفي لسان العرب: كتاب فصْلناه له معنيان: ١-تفصيل آياته بالفواصل ٢-فصّلناه: بيّناه والتفصيل: التبيين[٢].

ومن الحكمة في القرآن الكريم أنه مفصّلٌ بعضه عن بعض (في اللفظ والمعنى والزمن). ففي اللفظ بالفواصل التي حدّت الايات وفي المعنى: فبعضها في بيان صفات الله وبعضها في وعيد للعصاة بالعذاب وبعضها في قصص أحوال الماضين وبعضها أحكام وبعضها مواعظ وأخلاق. وفي الزمن: فنزلت على فترات حسب الحاجة لحكمة التنزيل[٣].

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١١ ص٢٣١.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، ج١١ ص٥٢٤.

(٣) نذير حمدان، حكمة القران والحضارة، ط١ دار الكلم الطيب دار ابن كثير دمشق بيروت ١٤١٦هـ/ =

والتفصيل القرآني قد جاء كافٍ في أمر الدين مغنٍ عن غيره ببيانه وتفصيله وجاء مبيّناً فيه الحق والباطل والحلال والحرام وغير ذلك من الأحكام، لم يبقَ في أُمور الدين شيءٌ من التخليط والإبهام(١) يقول أبو السعود: «وما من أمرٍ ديني إلا وهو يستند إلى القرآن بالذات أو بوسط»(٢) ويدخل في التفصيل أيضاً: ذكر معاني السورة وآياتها في سورٍ متفرقة وآيات متعددة(٣) قال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ﴾ [فصلت: ٣] ومن هذا المنطلق تبرز الحاجة والأهمية لتفسير القرآن للقرآن أو ما يسمى بالتفسير الموضوعي للايات القرآنية الذي يؤول بالمعنى إلى التكامل والشمول باستقصاء جميع عناصره من القرآن كلّه.

كما ويدخل ضمن تفصيل الايات تفصيل مفردات القرآن الكريم: فكل كلمة في القرآن تعطي مع اتصالها بسياقها فصلاً خاصاً بها وحدها لا يتكرر في القرآن كله بعد ذلك ومعنى ذلك: أن كل كلمة في القرآن مدخل لفصلٍ قائم بذاته ولكنه متصل بسياقه القرآني(٤).

ونذكر هنا الوحدة البنائية في القران الكريم وفي سوره وآياته وحتى في مفرداته وألفاظه وحروفه فهو كلٌ لا يمكن تجزئته وكل عنصرٍ فيه يشكل لبنةً في سياقه لا يمكن الاستغناء عنها أو وضع بديلٍ لها(٥).

وكما وصف القرآن وآياته بالتفصيل كانت التوراة الإلهية أيضاً تفصيلاً لكل شيء: قال تعالى: ﴿ ثُمَّ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى

= ١٩٩٥م، ص٩٢.

(١) أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج٣ ص١٧٧.

(٢) أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج٤ ص٣١١.

(٣) القوجوي، حاشية محيي الدين شيخ زاده، ج٤ ص٦١٧.

(٤) محمد العفيفي، القرآن دعوة الحق مقدمة في علم التفصيل القرآني (د. ط) «دار النشر غير معروفة» ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م ص٥.

(٥) انظر: محمود البستاني، المنهج البنائي في التفسير، ط١ دار الهادي بيروت ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، ص١٣.

وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٤] وقوله تعالى: ﴿ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا﴾ أي: آتيناه الكتاب الذي أنزلناه إليه تماماً كاملاً جامعاً لجميع ما يحتاج إليه في شريعته[١] ويقول ابن عاشور: «التفصيل: التبيين و﴿ لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ مراد به أعظم الأشياء أي المهمات المحتاج إلى بيان أحكامها في أحوال الدين[٢] وقال سبحانه في ألواح التوراة: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥].

وقوله تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾: بمعنى ما يحتاج إليه موسى وقومه في دينهم من الحلال والحرام والمحاسن والمقابح[٣] ويقول البقاعي ﴿ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾: «أي يحتاجه بنو إسرائيل وذلك هو العشر الايات التي نسبتها التوراة نسبة الفاتحة إلى القرآن ففيها أُصول الدين وأُصول الأحكام والتذكير بالنعم والأمر بالزهد والورع ولزوم محاسن الأعمال والبعد عن مساويها»[٤] ولعل هذا قريبٌ مما قصده مقاتل[٥] فيما أثر عنه قال: «كُتِب في الألواح أنّي أنا الله الرّحمن الرحيم لا تشركوا بي شيئا ولا تقطعوا السبيل ولا تزنوا ولا تعقّوا الوالدين»[٦].

والتفصيل لكل شيء لما كتبه الله - عز وجل- يشمل أمرين:

أولاً: التنويع بمعنى أنه كتب له فيها من كل نوع من أنواع الهداية والإرشاد وبياناً لكل نوع من أصول الدين وهي أصول العقائد والشرائع والاداب وأحكام الحلال والحرام.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ص٧٣٦.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٨ ص١٧٧.

(٣) الرازي، مفاتيح الغيب، ج٥ ص٣٦٠.

(٤) البقاعي، نظم الدرر، ج٣ ص (١١١).

(٥) هو مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخي(ت ١٥٠هـ/ ٧٦٧م) من أعلام المفسرين. انظر: خير الدين الزركلي، الأعلام، ط١ بيروت دار العلم ١٩٩٢م، ج٧ ص٢٨١.

(٦) أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج٣ ص٢٧٠.

ثانياً: ذكرها - أي هذه الأنواع- معدودة مفصولاً بعضها عن بعض[1].

ويرى الشيخ محمد متولي الشعراوي- رحمه الله -: أن قول الله تعالى ﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ عن التوراة الإلهية: أي أنه مناسبٌ لزمنه أي القيم التي تناسب الوقت الذي يعيشونه فإذا ما جاء سبحانه بتفصيلٍ جديد في القرآن فهو مناسبٌ لوقته وأضاف: أن كل تفصيل مناسبٌ لزمنه وآيات القران مفصّلة جاهزة ومعدّة لكل زمن وللناس جميعاً إلى أن تقوم الساعة[2].

وبناءً على ما سبق استطيع أن أقول: إنّه لمّا كان أصل التفصيل التمييز وفصل الشيء عن الشيء فلابد أن يدخل في المعنى: التفصيل باللفظ وانّ نصوص التوراة الإلهية كانت كالسور والايات في القرآن الكريم مفصولاً بعضها عن بعض بالفواصل والحدود.

وأنّ التفصيل في المعنى لنصوص التوراة: يكون بتمييزها وتبيينها في معانٍ مختلفة ولكل ما يحتاجونه من الحقائق والعلم والعمل.

وأنّ التفصيل لكل شيء في التوراة: يقتضي أنّ نصوص التوراة قد يفسّر ويبيّن بعضها بعضاً ولا تؤخذ معاني ودلالات الألفاظ (عِضِين) مفصولاً بعضها عن سياقه أو عن ما يكمّل ويتمّم معناه المقصود في مواضعِ متفرقة من التوراة الإلهية والله تعالى أعلم.

المطلب العاشر

الذكر والذكرى

الذكر: الحفظ للشيء تذكره والذكر: الشيء يجري على اللسان والذكر: الكتاب الذي فيه تفصيل الدين ووضع الملل وكل كتاب من الأنبياء عليهم السلام ذكر. والذكر: الصلاة لله والدعاء إليه والثناء عليه. والذكر: الشرف والفخر[3].

---

(١) انظر: رضا، تفسير المنار، ج٩ ص١٦٣.

(٢) الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج٧ ص٤٠٠٧.

(٣) ابن منظور، لسان العرب، ج٤ ص٣١٠.

أما الذكرى: فهي كثرة الذكر وهو أبلغ من الذكر[١].

وقد وصف القرآن العظيم بأنه ذكرٌ وذكرى كما وصف سبحانه التوراة الإلهية بأنها ذكرٌ وذكرى. قال تعالى عن القرآن الكريم: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤] وقال جلّ جلاله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] وقال سبحانه: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٢].

واعتبار القرآن الكريم ذكر فأنّ ذلك يحتمل معنيين:

١-هو ذكرٌ لأنّ الله تعالى ذكّر به عباده وعرّفهم ما يريد منهم.

٢-هو ذكر لأنه ذكرٌ وشرفٌ وفخرٌ لمن آمن به وصدّقه واتبعه حقّ الاتباع قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤] يعني شرفٌ لك ولقومك[٢].

والذكر: اسمٌ يجمع معاني الدعاء والوعظ بحسن الأعمال والزجر عن الباطل فالقرآن لهذا: ما هو إلا تذكيرٌ لجميع الناس ينتفعون به في صلاح اعتقادهم وطاعة الله ربّهم وتهذيب أخلاقهم وآداب بعضهم مع بعض والمحافظة على حقوقهم ودوام انتظام جماعتهم وكيف يعاملون غيرهم من الأمم الذين لم يتبعوه[٣] قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٧] وكون القرآن الكريم ﴿ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أن القرآن جعَله الله سبحانه موعظةً يتذكر بها البشر ما غَرز الله في طباعهم وفي فطرهم السليمة من الميل إلى الخير وإنما أنساهم ذلك ما طرأ على طباعهم من ملكات السوء التي تحدثها أمراض المجتمع والقدوة السيئة من حولهم[٤].

ومن لطائف الأسلوب القرآني: بأن وصف ذكر القرآن بأنه ذكرٌ حكيم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ٥٨].

---

(١) الراغب الأصفهاني، معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص٤٣.

(٢) الطبري، جامع البيان، ج١ ص٥٠.

(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٤ ص١٦٥.

(٤) انظر: القاسمي، محاسن التأويل، ج٧ ص٢٧٤.

وهو سبحانه وتعالى جعل هذه الصفة محلاً للقسم فقال: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ [ص: ١] وهذا يدلّل لا محالة إلى عظم شأن هذه الصفة للقران الكريم حيث بها يبيّن وجوه العبر في الإخبار والحكَم في الأحكام فيهدي المؤمنين إلى لباب الدين وفقه الشريعة وأسرار الاجتماع البشري ليتعظ المتعظون ويصل إلى مقام الحكمة العارفون[١].

وقوله تعالى ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ أي: شرف عظيم جداً وموعظة وبيان وقد عبّر عن الشرف بالذكر- كما يقول البقاعي- للتنبيه على أنّ سببه الإقبال على الذكر وعلى ما بيّنه وشرعه والاستمساك به والاعتناء بشأنه[٢].

ولا يخفى دور القرآن العظيم في حياة النبي ﷺ وحياة أصحابه وقومه في إيصالهم إلى منازل الشرف والانقلاب الاجتماعي الذي أحدثه في أمتهم من آثار بركته وحكمته وفضله العظيم عليهم وعلى النبي عليه الصلاة والسلام الذي أمسى المعلم والمربي وولي الأمر الأول.

وقد أُطلق على القرآن الكريم وصف الذكرى كما في قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٢] وذلك لأنه ذكرٌ لأهل الفطر السليمة من المؤمنين ما فطرهم الله تعالى عليه من العبودية والتوحيد[٣] وكونه (ذكرى) فهم يُذكّرونَ به من قبَل المذكّرين وهم يتذكرون به، ثم هو لهم تذكرة إذا قرأوه في المصاحف أو تلوه من حفظهم أو سمعوه ممن يقرؤه أو يتلوه أداةَ تَذكّرٍ[٤].

والتوراة الإلهية أيضاً وُصِفت بالذكر والذكرى كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٨] يقول البيضاوي في

---

(١) رضا، تفسير المنار، ج ٣ ص٢٦٣.

(٢) البقاعي، نظم الدرر، ج٧ ص٣١.

(٣) انظر: الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج١ ص٣٥٢.

(٤) الميداني، معارج التفكر، ج٤ ص٥٥.

قوله: ﴿ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾: «أي الكتاب الجامع لكونه فارقاً بين الحق والباطل وضياءً يُستضاء به في ظلمات الحيرة والجهالة وذكراً يتعظ به المتقون أو ذكر مايحتاجون إليه من الشرائع»[١].

وفي التصاريف لابن سلام قوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ [الأنبياء: ٧] أي أهل التوراة وقال ابن عباس: في قوله تعالى ﴿مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] التوراة ومثلها في سورة النحل: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ [النحل: ٤٣] يعني التوراة والإنجيل كعبد الله بن سلام وأصحابه الذين أسلموا[٢].

وقد وصفت التوراة الإلهية بأنها «ذكرى» كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ۝٥٣ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٥٤﴾ [غافر: ٥٣-٥٤].

ومن لطائف وبدائع الأسلوب القرآني بأنه قرن الهدى والذكرى معاً في الاية وكان ذلك حتماً لوجود علاقة لغوية ومعنوية بينهما:

فالهدى ما يكون دليلاً على الشيء وليس من شرطه أن يذكُرَ شيئاً آخر كان معلوماً ثم صار منسياً أما الذكرى فهي الذي يكون كذلك فكتُب أنبياء الله مشتملة على هذين القسمين: بعضها دلائلٌ في أنفسِها وبعضها مذكّراتٌ لما ورد في الكتب الإلهية المتقدمة[٣] وهذا يعني أن في التوراة: علم ما لم يتعلمه المتعلمون وفيه ذكرى لما علمه أهل العلم منهم. وتشمل الذكرى استنباط الأحكام من نصوص الكتاب وهو الذي يختص بالعلماء منهم من أنبيائهم وقضاتهم وأحبارهم[٤].

---

(١) البيضاوي، أنوار التنزيل، ج٤ ص٩٦.

(٢) انظر: يحيى ابن سلام (٢٠٠هـ/ ٨١٥م) التصاريف: تفسير القران مما اشتبهت اسماؤه وتصرّفت معانيه تحقيق: هند شلبي (د. ط) الشركة التونسية ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م ص١٦٣. الطبري، جامع البيان، ج٧ ص٥٨٧.

(٣) الرازي، مفاتيح الغيب، ج١٤ ص٧٧.

(٤) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١١ ص١٧٠.

وبناءً على ما سبق من وصف القرآن الكريم والتوراة الإلهية بالذكر والذكرى أقولُ ما يلي:

١- من مقتضيات الاشتراك في هذه الصفة: أن كلاً من التوراة والقرآن ذكرى لأصولِ العقائد والشرائع التي كانت في كلّ ملة من منطلق أنّ دين الله واحد وهو الدين الذي فُطِرت عليه البشرية فكانت التوراة والقرآن ذكرى لما اندرس وانطمست معالمه من الدين وأيضاً ذكرى لما في الفِطَرِ التي تراكم على بعضها الرّانَ والصدأ.

٢- أنّ أهل القرآن وأهل التوراة الإلهية كلاهما كان الكتاب شرفٌ وفخرٌ له فأهل القرآن خرجوا به من ظلام الجهل والأُمية إلى أمةٍ ذاتِ شأن وعلم وحضارة.. وأهل التوراة الإلهية انتقلوا بها من ظلام العبودية والوثنية إلى نور العلم والحرية.

٣- وبناءً على أنّ الذكرَ من معانيه: الصلاة وذكر الله تعالى والدعاء إليه والثناء عليه أقول -والله اعلم- أنّ نصوصَ التوراة كانت متعبداً بتلاوتها وقراءتها كالقرآن الكريم وأنّ ذلك كان يُعتبَر قربةً إلى الله تعالى وربّما كانت التوراة تُتلى في الصلاة كما هو القرآن الكريم.

٤- وصف القرآن الكريم والتوراة الإلهية بالذكر والذكرى يدلل على أنّهما يحويان كل ما يحتاجه الناس من أمور دينهم ودنياهم حيث يمكن استنباط معظم الأحكام للقضايا المستجدّة مع ما في هذا الوصف من التحفيز للعلماء إلى الجد والاجتهاد والتفكر والتأمل بهذا الكتاب الكريم ومن قبله التوراة الإلهية في عصرها.

المطلب الحادي عشر

كلام الله وكلماته

الكلام: يقع على الألفاظ المنظومة وعلى المعاني التي تحتها مجموعة، والكلمة هي القضية فكل قضيّة تسمى كلمة سواء كانَ ذلك مقالا أو فعالا[1] وعند الكفوي: أنّ الكلمة: تقع على واحدٍ من الأنواع الثلاثة (الاسم والفعل والحرف) وتقع على الألفاظ

(١) الأصفهاني، معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص٤٩٢.

المنظومة والمعاني المجموعة ولهذا استُعمِلت في القضية والحُكم والحجّة وبجميعها ورد التنزيل[١].

وكلمات الله ما يدل على شيء من علمه تعالى مما يوحي إلى رسله أن يبلغوه فكل معلومٍ يمكن أن يخبر الله به فإذا أخبر به صار كلمة[٢].

ووصف القرآن الكريم بأنه كلام الله ورد في قوله تعالى من سورة التوبة: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ [التوبة: ٦] يقول ابن سلام: «كلام الله يعني كلامه بالوحي وهو القرآن الذي أوحى الله إلى محمد ﷺ»[٣].

والقرآن الكريم هو كلام الله بحروفه ومعانيه وإعرابه حتى ولو قرأه المسلمون بأصواتهم أو كتبوه في المصاحف على أشكال مختلفة يقول ابن تيمية في ذلك: «كلام الله إذا قرأه الناس أو كتبوه بذلك في المصاحف لم يخرج بذلك عن أن يكون كلام الله حقيقةً فإن الكلام إنما يضاف حقيقةً إلى من قاله مبتدئاً لا إلى من قاله مبلِّغاً مؤدّياً. . وهو كلام الله حقيقةً حروفه ومعانيه ليس كلام الله الحروف دون المعاني ولا المعاني دون الحروف»[٤].

وقد عبّر سبحانه عن القرآن بالكلمة والكلمات في العديد من الايات قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥] يقول أبو السعود: «عبّر عن القرآن بالكلمة لأنها الأصل في الاتصاف بالصدق والعدل وبها تظهر الاثار من الحُكم. . وقوله ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾: أي أنّها بلغت الغاية القاصية صدقاً في الأخبار والمواعيد وعدلاً في الأقضية والأحكام لا أحد يبدل شيئاً من ذلك بما هو أصدق وأعدل ولا بما هو مثله»[٥].

---

(١) الكفوي، الكليات، ص٧٥٨.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٧ ص٥٢.

(٣) ابن سلام، التصاريف، ص٣٠٤.

(٤) ابن تيمية، مجموعة الفتاوى، ج٦ ص٣٢٠.

(٥) أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج٣ ص١٧٨. وانظر: الطبري، جامع البيان، ج٥ ص١٣.

وهناك قراءة: ﴿ وَتَمَّتْ كلمات رَبِّكَ ﴾[١] فإطلاقها على القرآن باعتبار ما يشتمل عليه من الجمل والآيات أو اعتبار أنواع أغراضه من أمر ونهي وتبشير وانذار ومواعظ وإخبار واجتماع وإرشاد وغير ذلك، ومعنى تمامها: أن كل غرض جاء في القرآن، فقد جاء وافياً بما يتطلبه القاصد منه[٢].

هذا عن القرآن أما عن التوراة الإلهية فقد عبّر سبحانه عن التوراة بكلام الله في قوله تعالى: ﴿ ۞أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٧٥] قال الزمخشري في الكشّاف: «كلام الله: هو ما يتلونه من التوراة»[٣].

ويؤخذ من الاية الكريمة ما يلي:

١- أنّ إطلاق كلام الله على التوراة الإلهية كان إلى حين التحريف فقط بخلاف القرآن الكريم الذي سيبقى كلام الله إلى يوم الدين.

٢- أنّ سماع كلام الله كان سماع الوحي بواسطة الرسول موسى عليه السلام إن كان الفريق من الذين كانوا زمن موسى. أو بواسطة النقل إن كان من الذين جاءوا من بعده. . أما سماع كلام الله مباشرة فلم يقع إلا لموسى عليه السلام[٤].

والتعبير عن التوراة بكلام الله يدلل لا محالة على شرف ومكانة التوراة العظيم عنده سبحانه وتعالى وشرف وعظمة ما احتوت عليه من التعريف بالله ذاته وصفاته وأفعاله وبيان شرائعه وأحكامه وجميع ما يؤدي إلى سعادة بني إسرائيل في الدنيا وفي الآخرة.

وقد أطلق القران الكريم الكلمات على الكتب السماوية السابقة والتي أعظمها التوراة في قوله تعالى: ﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ

---

(١) انظر: عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة (ت حوالي٤٠٣هـ/ ١٠١٢م) حجّة القراءات، تحقيق: سعيد الأفغاني، ط٢ مؤسسة الرسالة بيروت ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ص٢٦٨.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٨ ص١٩.

(٣) الزمخشري، الكشّاف، ج١ ص١٨٤.

(٤) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١ ص٥٦٨.

وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الأعراف:١٥٨] وقوله: وكلماته: أي ما أُنزِلَ عليه وعلى سائر الرسل من كتبهِ ووحيه[١] ولا شكّ أن التوراة الإلهية هي من أعظم وأشرف الكتب السماوية بعد القرآن الكريم.

وبناءً على كلّ ما سبق... يمكن استنباط ما يلي من فروق ومن مقتضيات الاشتراك بهذه الصفة:

١-كلمات الله أعمّ واشمل من كلام الله وكلام الله جزءٌ من كلماته حيث أن كلمات الله لما كانت تمثل علمه تعالى وإرادته التي قد تنزل وقد لا تنزل فلما أنزلها وعبّر عنها بالألفاظ والكلمات مع المعاني المخصوصة فهي كلام الله. وبالتالي فالقرآن الكريم والتوراة الإلهية هي من آثار علم الله تعالى وإرادته في هذه الأرض عبّر عنها سبحانه بالأقوال دون الأفعال.

٢- القرآن الكريم والتوراة الإلهية «كلام الله تعالى» فلابدّ من تقديسها وتعظيمها واحترامها سواءً كانت مكتوبة أو كانت مسموعة أو قرأها الإنسان شفاهيةً إذ العبرة فيها أنها ألفاظٌ منتظمةٌ في معانٍ واللفظ والمعنى متلازمان في كلام الله.

٣- كلام الله بوصفهِ صفةٌ له تعالى (بقطع النظر عن كون الصفة قائمةٌ بالذات أو كون الصفة غير الذات) يعني: أن في الكلام شيئاً من المتكلم[٢] ومن هنا كانت التوراة الإلهية والقرآن الكريم من أعظم وأقدس الكتب الإلهية بألفاظها ومعانيها وبركتها والخير العميم فيها وقد فاقَ القرآنُ الكريمُ التوراةَ الإلهية بإعجازهِ وديمومتهِ إلى يوم الدين.

---

(١) القوجوي، حاشية محيي الدين شيخ زاده، ج٤ ص٣١١.

(٢) انظر: محمد كريم الكوّاز كلام الله «الجانب الشفاهي من الظاهرة القرآنية» ط١ دار الساقي بيروت ٢٠٠٢م، ص١٢٨.

المطلب الثاني عشر

كتاب الله

الكتاب في الأصل مصدر سمي به المكتوب تسميةً للمفعول باسم المصدر على التوسّع الشائع ويعبّر عن الإثبات والتقدير والإيجاب والفرض والقضاء بالكتابة. . .(١).

والكتاب في التعارف: ضمّ الحروف بعضها إلى بعض بالخط وقد يقال ذلك للمضموم بعضها إلى بعض باللفظ. فالأصل في الكتابة: النظم بالخط لكن يستعار كل واحد للاخر ولهذا سمي كلام الله وان لم يكتب كتاباً(٢) كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢].

وقد أطلق سبحانه وتعالى [الكتاب وكتاب الله] على كلٍّ من القرآن الكريم والتوراة الإلهية. قال سبحانه عن القرآن الكريم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩] وقال تعالى: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٧] وقال: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ [آل عمران: ٣].

ولا شك أنّ إضافة الكتاب في قوله (كتاب الله) إلى الاسمِ الأعظم من بين أسمائه تعالى الجامع لجميع صفات الجمال والجلال لاشك أن فيه من التشريف والتعظيم لشأنه ما لا يحدُّ له حدود.

وقد أورد العلماء عدة أسبابٍ لتسمية القرآن كتاباً وكان معظمها يدور حول أن الكتاب هو الجمع والضمّ لأنه يضمّ الحروف المتفرقة ويجمع بينها.

---

(١) الكفوي، الكليات، ص٧٦٦.

(٢) الراغب الأصفهاني، معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص٤٧٤.

يقول الإمام الطبري: «القرآن كتاب لأنّ حروفه مجموعة في كلماته وكلماته مجموعة في آياته وآياته مجموعة في سوَرِه وسورِهِ مجموعةٌ فيه»[١].

وعند الإمام الزركشي: أن الكتاب مصدر كتب يكتب كتاباً وكتابةً وأصلها الجمع وسميت الكتابة لجمعها الحروف فاشتُقَّ الكتاب لذلك لأنه يجمع أنواعاً من القصص والايات والأحكام والأخبار على أوجهٍ مخصوصة[٢].

ويقول الفخر الرازي: سمّي كتاباً «لأنّه جَمعَ فيه علوم الأوّلين والآخِرين»[٣].

وقيل أُطلِقَ عليه كتاباً: للأمر بكتابة ما ينزل منه لحفظه ومراجعته... يقول محمد عبد الله دراز عن القرآن الكريم: «روعيَ في تسميته قرآناً كونه متلوّاً بالألسن كما روعيَ في تسميته كتاباً كونه مدوّناً بالأقلام فكلتا التسميتين من تسمية الشيء بالمعنى الواقع عليه وفي تسميته بهذين الاسمين: إشارة إلى أنّ من حقهِ العناية بحفظه في موضعين لا في موضعٍ واحد أعني أنّه يجب حفظه في الصدور والسطور جميعاً»[٤].

والقرآن الكريم كتابٌ لكنّه ليس كأيّ كتاب فهو كتابٌ إلهي ذو قيمةٍ عظيمة بما فيه من خصائص ومزايا وهو الكامل في هدايته للناس في كل مجالات العصر وفي كل زمانٍ ومكان[٥]، وهو محلّ التكليفات والشرائع الربانية التي تشكل حلقة وصل بين العبد وخالقه في مجاله الحركي وهو أيضاً ليس كتاب تاريخ عادي يستعرض كل الوقائع والأشخاص والمواقف بل هو كتاب هداية وإرشاد وتوجيه يأخذ من التاريخ في وقائعه وأشخاصه ما يتصل بذلك الهدف ويترك ما عدا ذلك[٦].

---

(١) الطبري، جامع البيان، ج١ ص٥٠.
(٢) الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج١ ص (٣٤٧).
(٣) الرازي، مفاتيح الغيب، ج١٤ ص٩٥.
(٤) درّاز، النبأ العظيم، ص١٢.
(٥) انظر: فضل الله، من وحي القرآن، ج١ ص١٠٣.
(٦) فضل الله، من وحي القرآن، ج٧ ص٥٤٤.

أما فيما يتصل بالتوراة الإلهية فالملاحظ أن التعبير عنها ووصفها بكتاب الله ورد أكثر مما ورد في جانب القرآن وربّما كان ذلك إيماءً منه سبحانه وتعالى إلى أنّ التوراة التي عظّم الله شأنها ونوّه بها ووصفها بما وصف به القرآن الكريم في العديد من الايات هي التوراة الإلهية الأصلية التي نزلت على موسى عليه السلام والتي هي كتاب الله تعالى نزلت منه سبحانه وتعالى، والتي اعتبرها العلماء أوّل كتاب سماوي يحوي على الشريعة والأحكام وتأتي في المرتبة الثانية بعد مرتبة وشرف وعِظَم القرآن الكريم.

يقول تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٠١] وفيها يقول أبو السعود: «عبّر عن التوراة بكتاب الله تشريفاً لها وتعظيماً لحقها وتهويلاً لما اجترءوا عليه من الكفر بها»[١] وقال تعالى في موضع آخر: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَـٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٣] جاء في نظم الدرر للبقاعي- في هذه الآية-: «أنه سبحانه أظهر الاسم الشريف ولم يقل إلى كتابهم احترازاً عما غيّروا وبدّلوا وهم إنما دُعُوا إلى كتاب الله الذي أنزل على موسى»[٢].

وأيضا أضاف سبحانه وتعالى التوراةَ إلى اسمه الجليل في قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ﴾ [المائدة: ٤٤] وقد عبّر الله عن التوراة بكتاب الله لتفخيمها وإجلالها ذاتاً وإضافةً وتأكيد إيجاب حفظها والعمل بما فيها. أيضاً إيرادها بعنوان الكتاب في هذه الاية للإيماء إلى إيجاب حفظها عن التغيير من جهة الكتابة[٣].

---

(١) أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج١ ص١٣٦.

(٢) البقاعي، نظم الدرر، ج٢ ص٤٩.

(٣) أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج٣ ص٤٠.

ومن الملاحظ على سياق هذه الايات الثلاث أنها أتت في سياق الذم لأهل التوراة لعدم العمل بما فيها أو الحكم بما فيها بما شرعه الله تعالى ولعل ذلك -والله اعلم- إيماءً منه سبحانه إلى أنّ جميع أحكامه وأوامره ونواهيه وما دعاهم إلى القيام والعمل بما فيه في التوراة الإلهية كله تحقيقاً لمصالحهم وأسباب سعادة وخير لهم لأنّها من ربهم الذي خلقهم وهو أعلم بما يحقق الخير والصلاح لهم وما يوافق فطرَهم وما يتلاءم مع طبائعهم ونفسياتهم.

وكان من فرائد التعبير القرآني عن التوراة الإلهية إضافتها إلى موسى عليه السلام كما جاء قوله تعالى: ﴿ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ﴾ [الأحقاف: ١٢] ولعل ذلك فيه من التذكير بأنه كتاب أُنزِلَ على بشر كما أُنزِلَ القرآن على محمد ﷺ تلميحاً إلى مثارِ نتيجةِ قياس القرآن على كتاب موسى بالمشابهةِ في جميع الأحوال[١].

والتعبير عن التوراة بالكتاب كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ٥٣] تذكيراً بنعمة نزول الشريعة التي بها صلاح أمورهم وانتظام حياتهم وتأليف جماعتهم مع الإشارة إلى تمام النعمة -وهم يَعدُّونها شعار مجدهم وشرفهم- لسعة الشريعة المنزّلة لهم حتى كانت كتاباً فكانوا به أهل كتاب أي أهل علم تشريع[٢].

ومن الملاحظ على الأسلوب القرآني أنه حيثما يذكر الله تعالى أهل الكتاب فإنما يريد بالكتاب التوراة والإنجيل أو إياهما معاً[٣]، وهذا إن دلّ فإنه يدل على الحميمية في العلاقة بين التوراة والإنجيل الإلهي وكونه مكمّلاً ومصدقاً للتوراة وأيضاً أن كلاهما نزل لنفس القوم وهم بنو إسرائيل، وأيضا دلالة ذلك على كونهما كتابين إلهيّن كلاهما نزل من عند الله تعالى. يقول أبو السعود في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [الأنعام: ١١٤] «التعبير عن التوراة والإنجيل باسم

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢٦ ص٢٣.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١ ص٥٠٢.

(٣) الراغب الأصفهاني، معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص٤٧٤.

الكتاب إيماءً إلى ما بينهما وبين القرآن من المجانسة المقتضية للاشتراك في الحقية والنزول من عنده تعالى مع ما فيه من الإيجاز»[١].

وبناءً على ما سبق أقول:

وصف القرآن الكريم والتوراة الإلهية بكتاب الله تعالى فيه دلالة على وحدة مصدرها كما أنّ إضافتها إليه سبحانه يدلل على أنها ليست كأيّ كتاب ذي حروف وألفاظ مجموعة لكنها كتبٌ ربّانية كتبٌ هادية مُرشدة ذات رسالة وهدف من خالق هذا الكون ومدبّره، كتبٌ أُنزِلت من أجلِ أسمى هدف وهو التعريف به سبحانه وتعالى التعريف بأسمائه وأوصافه وأفعاله وتكاليفه كانت حلقة وصل أمينة بين الخالق وبين عباده في مهمّتهم ووظيفتهم بإعمار الأرض وإفرادهِ بالعبادة، فساهمت هذه الكتب التي تمثّل(كتاب الوحي) مع (كتاب الكون) في الوصول بهذا الإنسان إلى برّ الأمان وشاطىء السعادة بتوحيد الله تعالى والنجاةِ يوم الدين.

المطلب الثالث عشر

القَسم

القَسَم: اسمٌ من الإقسام وهو أخصّ من اليمين والحلف الشامِلَين للشرطيّة الآنيّة[٢].

وقد أقسمَ اللهُ سبحانه وتعالى بالقرآن الكريم وأقسمَ بالتوراة الإلهية وجعلَهُما محلاً للقسم وهذا لا شك له دلالاتٍ شتّى ومعانٍ عظيمة.

وأصل القسم: الإشهاد ومعناه: ضمُّ المُقسَم بهِ مع المقسَم عليه كالشاهد على قولهِ وتبرز أهمية القسم في القرآن الكريم: من باب التنوّع والتفنُّن في إيراد الأدلةِ على الكلام، فالأقوال والأخبار التي يُراد إثبات أنّها حقٌّ وصدقٌ قد يؤتى بالمقْسَم به كشاهدٍ ودليلٍ على ذلك، ولابدّ أن يكون هناكَ مناسبة بين المُقسَم به والمُقسَم عليهِ في القرآن

---

(١) أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج٣ ص١٧٧.

(٢) الكفوي، الكليّات، ص٧٢٥.

الكريم ولماذا اختاره الله سبحانه دونَ غيره[١].

ولكن لماذا يُقسم سبحانه وتعالى؟ وما معنى القسم منه؟ وهو أصدق الصادقين ومجرد الكلام منه عز وجل أعظم حجة وأعظم بيّنة؟!

نقل الزركشي في البرهان عن الإمام (أبو القاسم القشيري) قوله: «إنّ الله ذكر القسم لكمال الحجة وتأكيدها وذلك أنّ الحُكم يُفصل باثنين: إما بالشهادة وإما بالقسم فذكر تعالى في كتابه من النوعين حتى لا يبقى لهم حجة»[٢].

وإذا تأمّلنا فيما أقسم الله به كالقرآن الكريم والتوراة الإلهية وجدناها أموراً عظيمة ذات شأنٍ عند الله وعند البشر وتدلّل على أدلة وآيات جليلات يريد سبحانه وتعالى تأكيدها وإبرازها، يقول الإمام محمد عبده رحمه الله: «إذا رجعت إلى جميع ما أقسم الله به وجدته إما شيئاً أنكره بعض الناس أو احتقره بغفلته عن فائدته أو ذهل عن موضعِ العبرة فيه وعمى عن حكمة الله في خلقه أو انعكس عليه الرأي في أمره فاعتقد فيه غيرَ الحق الذي قرر الله شأنه عليه فيقسم الله به إما لتقرير وجوده في عقل من ينكره أو تعظيم شأنه في نفس من يحقره أو تنبيه الشعور إلى ما فيه عند من لا يذكره أو تقليب الاعتقاد في قلب من أضله الوهم أو خانه الفهم»[٣].

وقد كان من لطائف الأسلوب القرآني أن جاء القسم بالقرآن الكريم وبالتوراة الإلهية في أوائل السور أو في مطالعها ولا شك أنّ ذلك له دلائله: فمنها أنّ وقوع القسم في ابتداء السور له أثرٌ قويّ على النّفوس لإنّ النّفسَ عادةً تستشعر أنّ القسَم شيءٌ عظيمٌ ويُصاحب ذلك شيءٌ من الرهبة والخشوع لما سيُلقى عليه فتتهيأُ نفسه للقَبول ويُصبح أشدّ تأثراً بما يسمع[٤].

---

(١) انظر: عبد الحميد الفرَاهي(ت ١٣٤٩هـ) إمعان في أقسام القرآن، (د. ط) دار المصنِّفين- القاهرة ١٣٤٩هـ ص٤٢-٥٤.

(٢) الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ص٣-٤٦.

(٣) محمد عبده، تفسير جزء عمّ د. ط دار مكتبة الهلال - بيروت ١٩٨٥، ص١٨.

(٤) انظر: عبد الوهاب محمود حمودة، أسرار القسم في القرآن، د.ط دار المعارف القاهرة ١٩٦٠م ص٢٤.

وقد أقسم سبحانه بالقرآن العظيم في العديد من الايات ومعظم الأقسام كانت في أوائل السور كما قال تعالى: ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ [ص: ١] يقول القرطبي رحمه الله: «أقسم بالقرآن تنبيهاً على جلالة قدره فإنّ فيه كل شيء وشفاءٌ لما في الصدور معجزةً للنبي ﷺ»[١].

وفي اللباب لابن عادل: أنّ هذا ليس مجرد الحلف بل دليلٌ خَرَجَ في صورة اليمين لأن القرآن معجزة ودليل كونه ﷺ مرسَلاً هو المعجزة والقرآن كذلك[٢].

وقد عدّ ابن القيم الجوزيه في التبيان أنّ قوله تعالى: ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ [ق: ١] من أنواع القسم الذي يكون في المُقسَم به ما يدل على المقسَم عليه ولا يحتاج إلى جواب القسم بمعنى أنه اتحد المقسم به والمقسَم عليه وهو القرآن فأقسم بالقرآن على ثبوته وصدقه وأنّه حقّ من عنده، ولذلك حذف الجواب ولم يصرّح به لما في القسم من الدلالة عليه أو لأنّ المقصود نفس المقسَم به[٣].

وأيضاً في قوله تعالى: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾ [يس: ١-٢] فأراد سبحانه هنا أن يُقسم بالقرآن الحكيم الذي كان المشركون ينكرونه ورسالة النبي ﷺ للإيماء بأنه يمثل الحقيقة الثابتة التي تستمد الحقائق الأخرى دلائله منها فإذا كانوا يطلبون الدليل على رسالة النبي ﷺ فإن القرآن يؤكد ذلك[٤].

وبالنسبة للتوراة الإلهية: فقد أقسم سبحانه وتعالى بالتوراة في مطلع سورة الطور ولا شك أنّ القسم بها وفي بداية السورة له معانٍ ودلالات وإيماءات يشترك بها مع القرآن الكريم والقسم به في مطالع السور قال تعالى: ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣﴾ [الطور: ١-٣].

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج٨ ص١٤٤.

(٢) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب، ج١٦ ص ١٦٨.

(٣) ابن قيّم الجوزيّة، التبيان في أقسام القرآن، تحقيق: عادل بن أحمد حامد (د. ط) دار القيمة دار الإيمان - الإسكندرية ٢٠٠٢م، ص٣٦٢.

(٤) فضل الله، من وحي القرآن، ج١٩ ص١٢٧.

والطور: اسم الجبل الذي كلّم الله عليه موسى عليه السلام أقسم الله به كشرف له وتكريماً وتذكيراً لما فيه من الآيات[١].

وقوله تعالى: ﴿ وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ۝٢ فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ ۝٣ ﴾: هي التوراة كتاب موسى عليه السلام وإجراء الوصفين عليه لتمييزه بأنّهُ كتابٌ مشرّف مرادٌ بقاؤه مأمور بقراءته إذ المسطور هو المكتوب... وقد أقسمَ بحال نشره لقراءته وهي أشرف أحواله لأنّها حالة حصول الاهتداء به للقارى والسامع[٢].

والفائدة من قوله تعالى: ﴿ فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ ﴾ أي وعظمة الكتاب بلفظه ومعناه لا بخطه وورقه فقط[٣] بمعنى كونه مكتوباً مقروءًا معمولاً بما فيه.

وكان من مناسبة القسم بالتوراة في سورة الطور - وهي سورة مكية كانت في سياق تأكيده سبحانه وتعالى لمشركي قريش على وقوع العذاب بهم لتكذيبهم بالقرآن- أنّها الكتاب الإلهي المعروف الذي فيه ذكر الجزاء وإبطال الشرك وللإشارة إلى أنّ القرآن الذي أنكروا أنّه من عند الله ليس بدعاً فقد نزلت قبله التوراة[٤].

وبناء على كل ما سبق... فإنّ اشتراك القرآن الكريم والتوراة الإلهية لتكون محلاً لقسم الله سبحانه وتعالى بها قد يحمل في طياته العديد من الدلالات والمعاني أذكُر منها:

١. قسم الله سبحانه وتعالى بهذين الكتابين فقط يدلل أكثر ما يدلل على التعظيم والتنويه لقدرهما عنده سبحانه وتعالى، وربما حبّه الشديد سبحانه وتعالى للقرآن الكريم والتوراة الإلهية.

٢. القسم بهذين الكتابين فيه من التنبيه للعلماء و حثّ للباحثين إلى مزيدٍ من الاجتهاد والبحث والدراسة في سبيل خدمة هذه الكتب الإلهية واكتشاف أسرارها وما

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج٩ ص٥٨.
(٢) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢٧ ص٣٨.
(٣) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب، ج٢٨ ص٢٤٠.
(٤) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢٧ ص٣٨.

فيها من هداية في كافة المجالات، ولا شك أنّ القرآن الكريم المعجزة الخالدة الذي لا تنقضي عجائبه يجب أن يكون على رأس هذه الدراسة أما بالنسبة للتوراة الإلهية فلا شك أنّ القرآن العظيم الذي أتى مصدقاً لما بين يديه قد حوى كل ما اشتملت عليه التوراة وزاد عليها مع بعض الفروق التشريعية، وأيضاً إخباره عن التوراة الإلهية المبثوثة بين الايات والسور القرآنية هو محلّ وأرضٌ خصبة لدراسة هذه التوراة الأصلية أو على الأقل استخراج الملامح الرئيسية والرسالة التي كانت التوراة الإلهية تحملها والتي أرى أنّ القرآن الكريم قد خلّدها، وما زالت التوراة الإلهية إلى اليوم لكنها مبثوثة بين ثنايا القرآن العظيم بحاجة لمزيد من الكشف والدراسة والبيان. . والله تعالى أعلم.

٣. استخدامه سبحانه وتعالى أسلوب القسم للإشهاد أو كدلائلٍ على ما يقسم به أو عليه وجعلَه القرآن الكريم والتوراة الإلهية محلاً لذلك القسم يمكن اعتباره منهجاً تعليمياً ومنهجاً دعوياً لأصحاب الشأن من المعلمين والدعاة حيث استعمال عنصر التشويق وتليين القول وتأليف القلب قبل الموعظة وقبل الكلام بما فيه نصيحة وإقناع وأن يكون ذلك مصحوباً بما يتمّم الحجة من الأدلة العقلية ووسائل الإقناع.

٤. من الملاحظ أنّ بعض الصفات المصاحبة للمُقسَم به من التوراة الإلهية والقرآن الكريم (كالحكمة والنشرِ للتوراة) هي صفات عملية تطبيقية، وكأنّها تحثّ على العمل بما في هذه الكتب الإلهية لا أن تكون مجرد ألفاظ وحروف منظومة بل أن تصبح منهج حياة وتطبيق سلوكي في واقع الإنسان وحياته كما أراد وقدّر لها سبحانه وتعالى أن تكون والله تعالى أعلم.

المبحث الثاني

ما اشترك به القرآن الكريم مع التوراة الإلهية في أصول العقائد

شرع الله سبحانه وتعالى للإنسان الذي هو موضوع الخطاب في هذه الأرض من العقائد وأصولها ما هو متلائم ومتناسب مع وظيفته في العبادة والإعمار ومن منطلق علمه سبحانه وتعالى بمخلوقاته وما هو أنفع وأرشد لهم، حيث كان غرس العقيدة في النفوس من أنجع الوسائل والأساليب التي اتبعها القرآن الكريم ودعت إليها التوراة الإلهية لإيجاد أفراد صالحين ومجتمعاتٍ ناجحة تمارس دورها في هذه الحياة على أكمل وجه وبما يتلاءم مع فطرتها وطاقتها.

المطلب الأول

الدعوة إلى عبادة الله ووحدانيته

أمر الله سبحانه وتعالى جميع الرسل منذ آدم عليه السلام بدعوة البشرية إلى عبادة الله وحده وتوحيده وعدم الإشراك به شيئاً فهذا هو أعظم حقوقه تعالى على خلقهِ وقد خُلقوا أساساً لهذه الغاية قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]. وقال: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] والتوحيد الذي دعت إليه الرسل ونزلت بهِ الكتب هو توحيد الألوهية وهو عبادة الله تعالى وحده وعدم الإشراك به شيئاً[(١)]، فهو وحده الذي يستحق العبادة وهذا هو ما فطر الله عليه الخلق.

ولم يكن القرآن الكريم بدعاً من تلك الكتب السابقة في دعوتهِ إلى التوحيد فالقرآن الكريم كلّه في التوحيد وحقوقه وجزائه وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم[(٢)]. قال تعالى مخاطباً أمة محمد ﷺ: ﴿۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ [النساء: ٣٦]

---

(١) انظر: ابن أبي العزّ الحنفي، شرح العقيدة الطحاوية، حققها: جماعة من العلماء خرّج أحاديثها: محمد ناصر الدين الألباني، ط٩ المكتب الإسلامي ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ص٨١.

(٢) ابن أبي العز، شرح العقيدة الطحاوية، ص٨٩.

وقال: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ١٦٣] فلا إله إلا الله ولا يُعبد إلا الله وحده ولا يشرك في عبادته عبادة أحد سواه ولا بأيّ نوع من أنواع العبادة فليس هناك شركاء لله في الألوهية أو الربوبية فلا شريك له في الخلق ولا شريك له في تصريف الأمور ولا يتدخل في تصريفه للكون والحياة أحد ولا يرزق الناس معه أحد ولا يضرّ أو ينفع غيره أحد ولا يتم شيء في هذا الوجود صغيراً كان أو كبيراً إلا ما يأذن به ويرضى[١].

وكما هو القرآن الكريم فالتوراة الإلهية أيضاً غنيةٌ بما فيها من دعوة إلى التوحيد المحض البعيد عن كل شائبة من شوائب الوثنية وقد جاءت بتفاصيل العبادة التي لا تنبغي إلا لله وحذّرت من صور الشرك وبواثق الوثنية[٢]، وكان التوحيد هو أول ما كلّم الله به موسى عليه السلام في طور سيناء قال تعالى مخاطباً له: ﴿ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ۝١٣ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ [طه: ١٣-١٤] وقوله ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي ﴾ كما يقول الطبري: «أي إنني أنا المعبود الذي لا تصلح العبادة إلا له لا إله إلا أنا فلا تعبد غيري فإنه لا معبود تجوز أو تصلح له العبادة سواي»[٣] فاختصاص الألوهية به سبحانه وتعالى يلزم منه تخصيص العبادة به عز وجل.

وقد أخذ سبحانه وتعالى العهود والمواثيق على بني إسرائيل في التوراة الإلهية بعبادته وحده وعدم الإشراك به شيئاً. قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ[٤] بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ [البقرة: ٨٣]. يقول البغوي: «هذا الميثاق مأخوذٌ عليهم في التوراة»[٥] وقوله ﴿ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ﴾: يتضمن كل ما يؤدي إلى عبادة الله وحده فيدخل فيه كل ما تشتمل عليه علوم الشريعة كعلم الفقه والأحكام وغيرها التي لا

---

(١) قطب، في ظلال القرآن، م٣ ص٣٤١.

(٢) انظر: هرّاس، دعوة التوحيد، ص١٦٩.

(٣) الطبري، جامع البيان، ج٨ ص٤٠٣.

(٤) والميثاق: العهد الشديد المؤكد وهو قسمان: ١-عهد خلقه وفطرة ٢- عهد نبوة ورسالة وهو المراد هنا. المراغي، تفسير المراغي ج١ ص٥٨.

(٥) البغوي، معالم التنزيل، ج١ ص ٥٦.

تتأتى العبادة إلا معها[١] فهو يدل على تمام ما لا بدّ منه في الدين لأنه تعالى لما أمر بعبادة الله ونهى عن عبادة غيره، لا شك أن الأمر بعبادته والنهي عن عبادة غيره مسبوق بالعلم بذاته سبحانه، وجميع ما يجب ويجوز ويستحيل عليه، بالعلم بوحدانيته وبرائته عن الأضداد والأنداد والبراءة عن الصاحبة والأولاد، ومسبوق أيضاً بالعلم بكيفية تلك العبادة التي لا سبيل إلى معرفتها إلا بالوحي والرسالة[٢] وقد أكدت التوراة الإلهية على التوحيد الخالص البعيد عن شوائب الإشراك والوثنية وهو المفهوم من قوله تعالى عن أهل الكتاب: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾ [البينة: ٥]. يقول الألوسي: أي ما كلّفوا في كتابهم بما كلّفوا به لشيء من الأشياء إلا لأجل عبادة الله تعالى جاعلين دينهم خالصاً له تعالى فلا يشركون به عزّ وجل وقوله ﴿ حُنَفَآءَ ﴾: أي مائلين عن جميع العقائد الزائفة إلى الإسلام[٣].

ويؤكد هذا الكلام استنكارُ سيدنا موسى عليه السلام على قومهِ حينما مرّوا على قومٍ يعكفون على عبادة الأصنام ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾ [الأعراف: ١٣٨-١٤٠].

فلا إله إلا الله ولا اعتماد إلا على الله وحده ولا اتكال في جميع الشؤون إلا عليه سبحانه وتعالى لا على صنم ولا على وثن ولا على أيّ مخلوق من مخلوقاته، فالخلق كلهم مفطورون على الانقياد إليه والإقبال عليه وهذه المعاني ذُكرت في التوراة الإلهية كما ورد في قوله تعالى: ﴿ وَءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَٰهُ هُدٗى لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلٗا ﴾ [الإسراء: ٢]. فقد بيّن سبحانه في هذه الاية أن أعظم الهدى في التوراة هو ما فيها من الدعوة إلى توحيده تعالى والاتكال في الأمور عليه وحده يقول الفخر الرازي: «إن التوراة إنما كان هدى لاشتماله على النهي عن اتخاذ غير الله وكيلاً

---

(١) انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ج٢ ص١٧٧.

(٢) الرازي، مفاتيح الغيب، ج٢، ص١٧٧.

(٣) الألوسي، روح المعاني، ج١٥ ص٤٢٩.

وذلك هو التوحيد فلا درجة أشرف ولا منقبة أعظم من أن يصير المرء غارقاً في بحر التوحيد وأن لا يعوّل في أمرٍ من الأمور إلا على الله تعالى فإن نطق نطق بذكر الله وإن تفكّر تفكّر في دلائل تنزيه الله تعالى وإن طلب طلب من الله فيكون كله لله وبالله»[١].

وبناء على ذلك نُدرك أنّ الدعوة إلى التوحيد الخالص لله تعالى وعبادته وحده وتنزيهه عما لا يليق بجلاله تعالى وعدم التّوجه والاتكال إلا إليه وعليه سبحانه لأنه إلهٌ واحد لا شريك له، لا نظير ولا مثيل له كلّ ذلك قد فُطر على الاعتقاد به جميع البشر. لذلك فإنّ الدعوة إلى الاعتقاد بهِ والحثُّ عليه ليصير منهجاً وسلوكاً ظاهرياً أمرٌ قد اشترك في الدعوة إليه كلٌ من القرآن الكريم الذي كان جلُّه في ذلك والتوراة الإلهية في ذلك العصر.

المطلب الثاني

الدعوة إلى الإيمان برسل الله وكتبه

اعتبر القرآن الكريم أن الإيمان بالرسل وما بُعثوا به من كتب ووحي سماوي وعدم التفرقة بينهم هو أصلٌ من أصول الدعوة في كلٍّ من القرآن الكريم والتوراة الإلهية وذلك أنْ جميع الأنبياء والرسل - عليهم الصلاة والسلام- هدفهم واحد ودعوتهم واحدة ومصدر كل ما أتوا به من كتب ووحي واحدٌ وهو الله تعالى.

وإن معرفة الله تعالى على وجهها الصحيح وفهم ما يريده لعباده ويطالبهم به إنما تكون عن طريقهم وحدهم والارتباط بالوحي الذي شرّفوا به والأسوة التي تؤخذ منهم[٢]، وغير ذلك العديد من الأسباب التي جعلت ذلك من أصول الدين في هذين الكتابين الكريمين.

وفي القرآن الكريم جعل الله سبحانه وتعالى التصديق برسله كلهم ركناً من أركان الدين واعتبر الإيمان بهم وبكتبهم متمماً للإيمان بالله تعالى قال تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ

---

(١) الرازي، مفاتيح الغيب، ج٧، ص٢٩٨.

(٢) الغزالي، عقيدة المسلم، ص٢٢٧.

بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٢٨٥] وقوله تعالى: ﴿قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٍ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٤] يقول سيد قطب: «والإيمان بالله يقتضي الاعتقاد بصحة كل ما جاء من عند الله وصدق كل الرسل الذين يبعثهم الله ووحدة الأصل الذي تقوم عليه رسالتهم وتتضمنه الكتب التي نزلت عليهم... ومن ثمّ لا تقوم التفرقة بين الرسل في ضمير المسلم فكلهم جاء من عند الله بالإسلام في صورة من صوره المناسبة إلى القوم الذين أرسل إليهم حتى انتهى الأمر إلى خاتم النبيّين محمد ﷺ فجاء بالصورة الأخيرة للدين الواحد لدعوة البشرية كلها إلى يوم القيامة»[١].

أما في التوراة الإلهية فكانت الدعوة إلى الإيمان بالرسل ونصرتهم وتأييدهم هو من أهم المواثيق التي أُخذت على بني إسرائيل قال تعالى: ﴿۞ وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَبَعَثۡنَا مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗاۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمۡۖ لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّكُمۡ جَنَّـٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ﴾ [المائدة: ١٢]. يقول محمد رشيد رضا: «يقسم الله تعالى أنّه قد أخذ العهد الموثّق على بني إسرائيل ليعملن بالتوراة التي شرعها لهم..»[٢] ومن ذلك الإيمان برسله تعالى ونصرتهم فقوله: ﴿وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ﴾ يقول الزمخشري: «أي الإيمان برسل الله جميعاً دون تفريق بينهم فكلّهم جاء من عند الله تعالى، وعدم الكفر بأحدٍ منهم لأن الكفر بأحدهم كفرٌ بهم جميعاً وكفرٌ بالله تعالى الذي بعثهم... ويلحق الإيمان بهم قوله: ﴿وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ﴾: أي نصرتموهم من أيدي العدوّ[٣]».

---

(١) قطب، في ظلال القرآن، م١ ص٣٤٢.

(٢) رضا، تفسير المنار، ج٦ ص٢٣٤.

(٣) الزمخشري، الكشاف، ج١ ص٦٤٩.

وقد أضاف سبحانه الرسل إليه في قوله: ﴿ بِرُسُلِي﴾ إشارةً إلى أنّ الإيمان برسل الله تعالى جميعاً واجب إضافةً إلى ما في هذه الإضافة من تشريفهم وتكريمهم وتعظيم شأن رسالاتهم(١).

ويُستنبط من الاية الكريمة ما يلي:

أولاً: أنهم كانوا مأمورين في التوراة بالإيمان بموسى عليه السلام وبكتابه وطاعته وتصديقه بكل ما أتى به ومساندته والمساهمة معه في الدعوة إلى الله ونصر دينه.

ثانياً: أن أهل التوراة الإلهية كانوا مأمورين فيها بالإيمان برسل الله تعالى وأنبيائه من قبل موسى عليه السلام ومن بعده وتصديقهم فيما أتوا به من وحي سماوي وأنه من عند الله تعالى.

ثالثاً: أنّ الغاية الأولى والهدف الأسمى لبعثة الرسل وإنزال الكتب في أيّ زمن كان هو سنةٌ أرادها سبحانه وتعالى لنشر دينه والانتصار له، وجعلهم وما أتوا به من كتب حلقة وصل بين الخالق ومخلوقاته في وظيفتهم على هذه الأرض.

وفي الوقت الذي دعت فيه التوراة الإلهية إلى الإيمان بجميع رسل الله تعالى وكتبه فقد أكّدت على أهلها مراراً وجوب الإيمان برسالة خاتم المرسلين سيدنا محمد ﷺ ووجوب الإيمان بكتابه الكريم وأنه خاتم الكتب الإلهية ومصدقها ومهيمنٌ عليها قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [الأعراف:١٥٧]. وقوله: ﴿يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا﴾: أي مكتوباً باسمه ونعوته الشريفة بحيث لا يشكّون أنه هو(٢).

ويقول الفخر الرازي عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام:١١٤]: من الأدلة على نبوته ﷺ: اشتمال التوراة والإنجيل على الايات الدالة على أنّ محمداً ﷺ رسولٌ حقّ وعلى أنّ القرآن كتابٌ حقّ

---

(١) انظر: طنطاوي، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، ج٤ ص٨١.

(٢) الألوسي، روح المعاني، ج٤ ص٧٦.

من عند الله تعالى[١].

ومن فضله سبحانه وتعالى على أصحاب النبي ﷺ أهل القرآن ومن نصروا دين الله تعالى ونشروه بين أصقاع الأرض أن ذكر وصفهم في التوراة الإلهية بمعية النبي عليه الصلاة والسلام كما قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ﴾ [الفتح: ٢٩]. وقوله: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ﴾: أي هذا وصفهم الذي وصفهم الله به مذكورٌ بالتوراة هكذا[٢].

ولا بد من الإشارة هنا أنه وبجانب الإيمان بالكتب الإلهية التي أنزلها سبحانه على رسله والتي ذكر بعضاً منها في القرآن الكريم كالتوراة والإنجيل والزبور فقد دعا القرآن الكريم إلى الإيمان الجازم بتحريف التوراة والإنجيل وأنّ هذا الإيمان جزءٌ متممٌ لهذا الأصل من أصول الإيمان[٣]. قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٨].

المطلب الثالث

الدعوة إلى الإيمان باليوم الاخر

لم يُخلق الإنسان في هذه الأرض عبثاً ولم يُترك هملاً وإنما خُلق لغاية الخلافة والعبادة التي تقتضي الامتحان والاختبار قال تعالى. ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ﴾ [الملك: ٢] ومن مقتضيات العدل الإلهي أن الامتحان والابتلاء لا بد له من جزاء وإلا كان عبثاً من غير حكمة وهو محال عليه سبحانه وتعالى ومن هنا جاءت

---

(١) الرازي، مفاتيح الغيب، ج٥ ص١٢٤.

(٢) عبد الرحمن بن ناصر السعدي(ت ١٣٧٦هـ) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان، تحقيق: محمد زهري النجار ط٢ عالم الكتب ١٤٠٤هـ/ ١٩٩٣م، ج٥ ص٦٦.

(٣) محمد عبد الله الشرقاوي، الإيمان حقيقته وأثره في النفس والمجتمع، ط٢ دار الجيل بيروت ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، ص٢٣٣.

حتمية أن يكون هناك يوماً لما بعد الموت وانتهاء الحياة[١] وكان وجوب الإيمان به أصل دعت إليه جميع الشرائع السماوية والكتب الإلهية ومنها القرآن الكريم والتوراة الإلهية.

بينت نصوص القرآن الكريم أنّ التوراة الإلهية أشارت إلى العديد من مفردات يوم القيامة من البعث والحشر والحساب وكان البعث والحساب والجزاء من أهم وأول الأسس الذي قام عليه الدين الذي أُوحي إلى موسى عليه السلام. حيث قال سبحانه في سياق خطابه لموسى: ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ﴾ [طه: ١٥-١٦] يقول ابن عاشور أن قوله تعالى: ﴿إن الساعَةَ ءاتِيَةٌ﴾: «من أصول الدين وهو إثبات الجزاء، والساعة علمٌ بالغلبة على ساعة القيامة أو ساعة الحساب»[٢]. وهي الموعد المرتقب للجزاء الكامل العادل الذي تتوجه إليه النفوس فتحسب حسابه وتسير في الطريق وهي تراقب وتحاسب وتخشى الانزلاق والله سبحانه يؤكد مجيئها وأنه يكاد يخفيها، فعلمُ الناس بها قليل لا يتجاوز ما يطلعهم عليه من أمرها بقدر ما يحقّق حكمته من معرفتهم ومن جهلهم[٣].

والمعاني والمفردات ليوم القيامة في هذه الايات أشار إليه القرآن الكريم في العديد من المواضع الأخرى كقوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [الحج: ٧]. وقوله: ﴿ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣].

وفي قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الأنبياء: ٤٨-٤٩] يقول سبحانه أنه آتى موسى وهارون الكتاب الجامع لهذه الأوصاف ليكون هداية للمتقين الذين يخشون ربهم بالغيب ويخافونه وهم لم يروه، وهم خائفون وجلون من الساعة

---

(١) انظر: الميداني، العقيدة الإسلامية وأسسها، ص٥١١.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٦ ص٢٠٣.

(٣) قطب، في ظلال القرآن، م٤ ص٢٣٣٢.

التي أخبرهم الله سبحانه عنها وما يقع فيها من حساب دقيق شامل فيستعدون ويعملون لها[١].

فالخوف من الساعة ووقوعها وأثر ذلك في زيادة الخوف من الله وخشيته وتقواه كما ذُكر في التوراة الإلهية أيضاً أشار إليه القرآن الكريم في مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١].

إن البعث من القبر وعودة الروح إلى الجسد مرّة أخرى كان من أبرز وأهم النقاط التي أنكرها الملاحدة والكفرة عبر تاريخ الرسل لذلك قرّر سبحانه وتعالى في القرآن الكريم والتوراة الإلهية أن البعث مطلبٌ فطري وضرورةٌ عقلية قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الروم: ١١]. وقال: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ۝١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ۝١٨﴾ [نوح: ١٧-١٨] فالإنسان بفطرته يحس أنّ حياته ليست جسداً فقط ينتهي بالموت بل إن له مع الجسد روحاً لا تفنى ولكنها تنتقل إلى مكان آخر تسعد فيه أو تشقى وتنعم بأعمالها أو تعذّب هذا الإحساس الفطري عند الناس كان أساساً اعتمدته جميع الرسالات السماوية[٢].

وقد أشارت الايات من سورة النجم إلى العديد من مفردات يوم القيامة التي ذُكرت في التوراة الإلهية والتي ذكرها وتحدّث عنها القرآن الكريم قال تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ۝٣٦ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ۝٣٧ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۝٣٨ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ۝٤٠ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ۝٤١ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝٤٢﴾ [النجم: ٣٦-٤٢] يقول الفخر الرازي عند تفسير قوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ﴾: أصول الدين كلها مذكورة في الكتب بأسرها ولم يُخلِ الله كتاباً عنها ولهذا قال لنبيه ﷺ ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾.. فكأنه يقول هنا - أم لم ينبأ بالتوحيد

---

(١) انظر: طنطاوي، التفسير الوسيط، ج٩ ص٢١٩.

(٢) أحمد أحمد غلوش، الدعوة الإسلامية أصولها ووسائلها، ط٢ دار الكتب الإسلامية دار الكتاب المصري القاهرة دار الكتاب اللبناني بيروت ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ص١٦٣ ١٦٥.

والحشر وغير ذلك وهذه أمورٌ مذكورة في صحف موسى[١].

ويقول سيد قطب: «أن هذا الدين قديمٌ موصولةٌ أوائله وأواخره ثابتةٌ أُصوله وقواعده يصدّق بعضه بعضاً على توالي الرسالات والرسل وتباعد المكان والزمان فهو في صحف موسى وهو في ملة إبراهيم قبل موسى»[٢].

وصحف موسى: هي التوراة[٣].

فقوله تعالى: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۝٣٨ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩﴾ إشارة إلى الحساب العادل يوم القيامة فكل نفس ظلمت نفسها بكفر أو شيء من الذنوب فإنما عليها وزرها لا يحمله عنها أحد[٤] كما قال تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [فاطر:١٨] وقوله: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾: بمعنى أنه: كما لا يحمل عليه وزر غيره كذلك لا يحصل من الأجر إلا ما كسب هو لنفسه[٥]. وهذا قريب منه قوله تعالى﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

أما قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ إشارة إلى العرض يوم القيامة كما يقول المراغي أنّ: «عمله سيُعرض يوم القيامة على أهل المحشر ويطّلعون عليه فيكون في ذلك إشارة بفضل المحسنين وتوبيخ المسيئين»[٦]. ولا شك أن محل أعمال الإنسان يوم القيامة هي صحيفته وميزانه ففيها يظهر إحسان المرء وإساءته وما قدّمه في هذه

---

(١) الرازي، مفاتيح الغيب، ج١٠ ص٢٧٦.

(٢) قطب، في ظلال القرآن، م٦ ص٣٤١٤.

(٣) انظر: ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج١٤ ص١٢١. أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج٦ ص١٦٠. صديق ابن علي القنوجي (ت ١٣٠٧هـ) فتح البيان في مقاصد القرآن، راجعه: عبد الله الأنصاري (د.ط.) إدارة إحياء التراث الإسلامي قطر ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م، ج١٣ ص٢٧٠. الشوكاني، فتح القدير، ج٥ ص١٣٢.

(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ص٤٣٠.

(٥) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ص٤٣٠.

(٦) المراغي، تفسير المراغي، ج٢٧ ص٦٦.

الحياة الدنيا، ووجدت أقرب ما يعبّر عن هذا المعنى في التوراة قوله تعالى: ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥].

أما قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴾: قد تكون دلالة على ما أعدّ الله للمحسنين من نعيم وجنة وبالمقابل: للمسيئين بالعذاب والنار بحسب أعمالهم وقريبٌ منه قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥] أو قوله: ﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [إبراهيم: ٥١].

أما قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾ : إشارة إلى الحشر والمنتهى أي انتهاء الخلق ورجوعهم إليه لا إلى غيره سبحانه استقلالاً لا اشتراكاً والمراد بذلك: رجوعهم إليه سبحانه يوم القيامة حين يُحشرون[1]. وقد تكون إشارة إلى الإيمان بحتمية الموت وأنه فطرة أو سنة كونية.

ومما يلحق الإيمان باليوم الاخر وما فيه من أمور يجب الاعتقاد أيضاً أن هذه الحياة الدنيا فانية زائلة وأن الاخرة هي خاتمة المطاف بالإنسان وإليها تنتهي الغاية والمقصد من خلق الإنسان، وطبيعة الحياة فيها من نعيم أو جحيم مرتبطة بما قدّم الإنسان لنفسه في الحياة الدنيا فالدنيا ممرٌ وطريق للاخرة التي هي دار البقاء والخلود.

ومعظم هذه المعاني قد ذكرت في التوراة الإلهية كما أفاض القرآن الكريم في ذكرها. قال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾ [الأعلى: ١٤-١٩]. يقول الميداني: «والمشار إليه باسم الإشارة (هذا) ما في السورة مما يدرك الفكر أنّ الرسالات السابقة مشاركةٌ فيه لخاتمة الرسالات الربانية وهو ما يتعلق بعذاب الأشقى وفلاح من تزكّى وبيان إيثار الحياة الدنيا مع أن الاخرة خيرٌ وأبقى»[2].

---

(١) الالوسي، روح المعاني، ج١٤ ص٦٥.

(٢) الميداني، معارج التفكير، ج١ ص٤٦٤.

المطلب الرابع

الدعوة إلى الإيمان بالقدر خيره وشرّه

الإيمان بقدر الله تعالى وقضائه يقتضي التصديق بأن الله عزّ وجلّ علم أزلاً بما تكون عليه المخلوقات في المستقبل ومن ثمّ التصديق بأنّ المخلوقات جميعاً أوجدها الله سبحانه وسيّرها بإرادته على قدرٍ مخصوص ووجهٍ معين أراده وعلى وفق ما سبق من علمه الأزلي(١).

وجلُّ هذه المعاني للقضاء والقدر والدعوة للإيمان به مبثوثةٌ بين آيات القرآن الكريم وبين ثنايا التوراة الإلهية . . . وقد قسّم العلماء القضاء والقدر إلى مراتب من لم يؤمن بها جميعها لم يؤمن بالقضاء والقدر . . وهي كالتالي(٢):

١- علم الرب سبحانه بالأشياء قبل كونها.

٢- الكتابة: كتابته السابقة تدل على علمه بها قبل كونها.

٣- المشيئة: دلّ عليها إجماع الرسل من أوّلهم إلى آخرهم وجميع الكتب المنزلة من عند الله والفطرة التي فطر الله عليها خلقه وأدلة العقول والعيان، وليس في الوجود موجب ومقتضٍ إلا مشيئة الله وحده فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

٤- خلق الله سبحانه الأعمال وتكوينه وإيجاده لها وهذا أمرٌ متفقٌ عليه بين الرسل صلوات الله عليهم وعليه اتفقت الكتب الإلهية والفطر والعقول والاعتبار.

فلا يقع شيء إلا وقد علمه الله تعالى وكتبه وشاءه وخلقه كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ

---

(١) انظر: إبراهيم بن محمد البيجوري (ت ١٢٧٧هـ) تحفة المريد شرح جوهرة التوحيد، ط١ دار الكتب العلمية بيروت ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، ص١٢٧. قحطان عبد الرحمن الدوري ورشدي محمد عليان، أصول الدين الإسلامي، ط١ دار الفكر عمان ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، ص١٦٢.

(٢) انظر: ابن قيّم الجوزية (ت ٧٥١هـ) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، تحقيق: عصام الحرستاني خرّج أحاديثه: محمد إبراهيم الزغلي ط١ دار الجيل بيروت ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م، ص٨٣-١٣٧.

رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠] وقال في الكتابة: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: ٥١]. وقال في المشيئة: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]. وفي الخلق: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦].

والدعوة إلى الإيمان بالقضاء والقدر كانت من موسى عليه السلام في بدايات الدعوة حيث أُتهم موسى عليه السلام ومن معه من المؤمنين بأنهم مصدر القحط والشدائد قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٣١] فرد الله عليهم بأنّ حظهم ونصيبهم الذي قُدّر لهم من الخير والشر عند الله تعالى[١]. بمعنى أن كل ما يصيب الإنسان هو من قضاء الله وقدره الذي سبق في الأزل، فهو تعالى قد جعل لكل شيءٍ قدراً من حسنة وسيئة: بمعنى أنه وضع لنظام الكون سنناً تكون فيها المسببات على قدر الأسباب ولكلّ منها حكم فبمقتضى هذه السنن والأقدار ينزل البلاء عليهم[٢] من باب الاختبار والامتحان للبشر وبمقتضى وظيفتهم على هذه الأرض.

وقوله تعالى لموسى عليه السلام في بدايات الدعوة إليه: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٤٠] فهذه الاية هي من الايات التي يستشهد بها مثبتوا القدر فقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ قَدَرٍ﴾ -كما يقول الزمخشري- أي «سبق في قضائي وقدري أن أكلمك واستنبئك وفي وقتٍ بعينه قد وقّته لذلك، فما جئت إلا على ذلك القدر غير مستقدم ولا مستأخر»[٣]. ولا شك أن هذه المعاني هي من أصول دعوته عليه السلام ولا محالة أنه قد بلغها لقومه واحتواها كتابه.

ومن الايات القرآنية التي تشهد أن القضاء والقدر والدعوة إلى الإيمان به كان مبثوثاً

---

(١) ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل، ج١ ص٢٩٩.

(٢) رضا، تفسير المنار، ج٩ ص٧٥.

(٣) الزمخشري، الكشاف، ج٣ ص٦٦.

بين ثنايا التوراة الإلهية ومن أهم الأصول التي دعت إليه كمثل قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ [الإسراء: ٤]. ففي ذلك الكتاب الذي آتاه الله لموسى ليكون هدًى لبني إسرائيل أخبرهم بما قضاه عليهم من تدميرهم بسبب إفسادهم في الأرض، وتكرار هذا التدمير مرتين لتكرار أسبابه من أفعالهم وهذا القضاء إخبارٌ من الله تعالى لهم في كتابهم بما سيكون منهم حسب ما وقع في علمه الإلهي من مآلهم لا أنه قضاءٌ قهري تنشأ عنه أفعالهم إنما يعلم الله ما سيكون علمه بما هو كائنٌ فما سيكون - بالقياس إلى علم الله- كائنٌ وإن كان بالقياس إلى علم البشر لم يكن بعد ولم يُكشف عنه الستار[١].

ومن الأحاديث الصحيحة التي اعتبرت أصولاً لأهل الحق في إثبات القدر وأنّ الله تعالى علم وقضى وقدر الأعمال، وكلٌّ يصير لما قدِّر له وبما سبق في علم الله تعالى: الحديث الذي تحاجّ فيه آدم وموسى عليهما السلام.

حيث قال النبي ﷺ: احتجّ آدم وموسى عليهما السلام عند ربّهما فحجّ آدم موسى، قال موسى: أنت آدم الذي خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته وأسكنك في جنته ثم أهبطت الناس بخطيئتك إلى الأرض. فقال آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالته وبكلامه وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شيء وقرّبك نجياً فبكم وجدت الله كتب التوراة قبل أن أُخلق؟ قال موسى: بأربعين عاماً قال آدم فهل وجدت فيها: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١] قال: نعم قال: أفتلومني على أن عملتُ عملاً كتبه الله عليّ أن أعمله قبل أن يخلُقني بأربعين سنة؟ قال رسول الله ﷺ: فحج آدم موسى»[٢].

والمفهوم من هذا الحديث الشريف أن الأمر المقدّر لا بدّ من وقوعه ولو اجتمعت كل الخلائق على ردّه لم تستطع ومع ذلك علّمنا سبحانه أن نأخذ بالأسباب ومن ثم

---

(١) قطب، في ظلال القرآن، ج٤ ص٢٢١٣.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب القدر باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام، برقم (٢٦٥٢) ج٤ ص٢٠٤٣.

نتوكل عليه وحده لا عليها.

وقد رجّح الفخر الرازي على أنه ليس المراد من هذه المناظرة: الذم على المعصية ولا الاعتذار منه بعلم الله - بل موسى عليه السلام سأله عن السبب الحامل له على تلك الزلة حتى خرج بسببها من الجنة فقال آدم عليه السلام: أن خروجي من الجنة ما كان بسبب تلك الزلة بل كان بسبب أن الله كان قد كتب عليّ أن أخرج إلى الأرض وأكون خليفة فيها[1]: وهذا المعنى كان مكتوباً في التوراة[2].

---

(١) ويؤيد هذا قوله تعالى في القرآن الكريم: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة: ٣٠].

(٢) فخر الدين بن عمر الرازي (ت ٦٠٦هـ) القضاء والقدر، علق عليه: محمد البغدادي ط٢ دار الكتاب العربي بيروت ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، ص١٨٩.

المبحث الثالث

ما اشترك به القرآن الكريم مع التوراة الإلهية في أصول الشرائع

العبادة هي الهدف الأول من إرادة الله تعالى من خلقه وحكمته من إيجادهم قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦] وأصول الشرائع في القرآن الكريم والتوراة الإلهية وإن اختلفت في بعض صورها وأشكالها إلا أن روحها وغايتها تسيران في اتجاهٍ وهدفٍ واحد.

العبادات هي غذاء روحي تلبي ما في داخل الإنسان من فطرة العبودية والخضوع والانقياد لله رب العالمين وهي ترجمة فعلية عن العقيدة الواحدة الأصيلة في الكتب الإلهية وهي مادة الابتلاء والاختبار للالتزام والطاعة لله رب العالمين تطهر النفوس وتنقيها وتعين الفرد والجماعة على إحسان صلتهم بالخالق والمخلوق في هذه الحياة الدنيا.

المطلب الأول

الدعوة إلى إقامة الصلاة

اعتبرت الصلاة من أجلِّ العبادات قدراً وأشرفها منزلةً بين أوليّات الفرائض التي فُرضت على البشر وكانت تشريعاً مشتركاً في جميع الشرائع الإلهية مما يكشف لنا أنها من الاحتياجات البشرية الأولى في كل الظروف والأجيال لأنها تنبع من طبيعة ثابتة في الوجدان البشري وطبيعة ثابتة في الظروف الحياتية على الأرض من ضرورة وعي الإنسان لخالقه وكونه ومستقبله ولابديّة تملّي هذا الوعي في عملٍ يومي موقوت(١).

ومن هذا المنطلق من أنها تلبي حاجة فطرية في النفس وهي وسيلةٌ لصلة العبد بربّه فقد أكّد القرآن الكريم وأكّدت التوراة الإلهية على فرضية الصلاة ووجوبها مهما كانت الظروف والأحوال.

---

(١) علي محمد كوراني، فلسفة الصلاة، (د.ط.) دار إحياء التراث العربي (د.ت.)، ص٤٠.

ومن الملاحظ أن الأمر بالصلاة في كل من الكتابين الكريمين كان أمراً بإقامة الصلاة. . . ولا شك أن ذلك له العديد من المعاني والدلالات قال تعالى مخاطباً أمة محمد: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ١١٠] والإقامة للصلاة: لا يكون إلا بتمام ركوعها وسجودها والتلاوة والخشوع والإقبال عليها فيها، والمداومة عليها في أوقاتها وأن يستوفي الفرد كافة أركانها وهيئاتها وشروطها وآدابها(١).

ويدخل في إقامة الشيء أيضاً: تحقيق وجودٍ بارز له بحسب ما يناسبه من وجود فهي مسألةٌ اجتماعية وليست فردية. . . فمعنى الأمر بإقامة الصلاة - على حسب ذلك - تكليف الناس أن يقيموا لهذه الفريضة وجوداً اجتماعياً بحيث يكون أداؤها والاهتمام بشؤونها ظاهرةٌ واضحة من ظواهر مجتمعهم(٢).

وقد كان الأمر بإقامة الصلاة من أول التكاليف التي أوجبها سبحانه على بني إسرائيل في التوراة الإلهية وأخذ عليهم العهد الموثّق للوفاء بذلك. كما قال تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ الزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ١٢].

أيضاً قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَٰمَىٰ وَالْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: ٨٣].

وقال سبحانه في خطابه لبني إسرائيل مذكراً إياهم بضرورة الوفاء بما عاهدوا الله عليه: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّٰكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣].

وكانت إقامة الصلاة من أصول الدين الذي أوحي إلى موسى في بداية الدعوة حيث

---

(١) انظر: الطبري، جامع البيان، ج١ ص٤٣١. طنطاوي، التفسير الوسيط، ج١ ص١١٠.

(٢) كوراني، فلسفة الصلاة، ص٢٩ ١٣٠.

قال تعالى مخاطباً موسى عليه السلام : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾ [طه : ١٤] وفيها يقول الشهاب الخفاجي في حاشيته : «الأمر بها يستفاد منه كتابتها في الكتب الإلهية»(١).

والإقامة : الإتيان بالشيء مقوّماً كاملاً وهي في الصلاة التوجه إلى الله تعالى بالقلب والخشوع بين يديه والإخلاص له في الذكر والدعاء والثناء فهذا هو روح الصلاة الذي شُرعت لأجله، وهذا الروح لا يتغير فهو واحدٌ لم يختلف فيه نبي ولم يُنسخ في دين(٢). وإقامة الصلاة لا مجرد أداء الصلاة. . . أي إقامتها على أصولها التي تجعل منها صلة حقيقية بين العبد والرب وعنصراً تهذيبياً وتربوياً وفق المنهج الرباني القويم وناهياً عن الفحشاء والمنكر، حياءً من الوقوف بين يدي الله بحصيلة من الفحشاء والمنكر(٣). ولا يكون ذلك إلا بإقامتها مستكملةً شروطها وأركانها وركوعها وسجودها وخشوعها(٤).

فالصلاة التي أُمر بها في التوراة الإلهية هي التي تحقق الهدف والغاية من تشريعها، وهي التي يكون فيها الإنسان متوجّهاً إلى ربه جسماً وعقلاً وروحاً بحيث يكون كله لله لا يشغله عنه شاغل. وهي أيضاً تحقق أثرها على الجماعة كما تحققه على الفرد بالاجتماع لها في صفوف واحدة وأوقات واحدة متجهين بكليّتهم إلى ربهم ظاهراً وباطناً مستحضرين عظمته والرهبة منه، مما يجعلهم كأفرادٍ وجماعات في حذرٍ دائم من عصيان أوامره أو مخالفة شرائعه فهم في مراقبةٍ دائمة لربهم في السر والعلن فتصلح نفوسهم وتتهذب أخلاقهم وأرواحهم فيصلح المجتمع كله وتتحقق السعادة والأمان.

والصلوات الواردة على ألسنة الرسل أعمال مكرّرة في مواعيد ثابتة وتحتاج إلى تدبّر وتذكر وخشوع كما يدلّ على ذلك لفظ (إقامة) الذي أسندت إليه الصلاة(٥)، وهي في

---

(١) الخفاجي، حاشية الشهاب المسماة «عناية القاضي وكفاية الراضي» ج٦ ص٣٣٦.

(٢) رضا، تفسير المنار، ج١ ص٢٤٢.

(٣) قطب، في ظلال القرآن، م١ ص٦٧٦.

(٤) قطب، في ظلال القرآن، م٢ ص٨٥٧.

(٥) غلوش، الدعوة الإسلامية، ص١٥٧.

الغالب الأغلب مراسيم من طهارةٍ وركوعٍ وسجود[١]. ويؤكد ذلك قوله تعالى في سياق خطابه لبني إسرائيل: ﴿ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣] أيضاً ورد ذكر السجود والركوعِ في قوله تعالى واصفاً النبي محمد ﷺ وأصحابه في التوراة الإلهية: ﴿ مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ﴾ [الفتح: ٢٩].

وورد ذكر استقبال القبلة في شريعة التوراة في قوله تعالى: ﴿ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوۡمِكُمَا بِمِصۡرَ بُيُوتٗا وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ[٢] وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ﴾ [يونس: ٨٧] وكما يقول القرطبي رحمه الله: إنْ القبلة في الصلاة كانت شرعاً لموسى عليه السلام ولم تخلُ الصلاة عن شرط الطهارة وستر العورة واستقبال القبلة فإنْ ذلك أبلغ في التكليف وأوفى للعبادة[٣].

أما بالنسبة لعدد الصلوات المفروضة في اليوم والليلة فالغالب أنه مختلف في شريعة التوراة الإلهية عنه في القرآن الكريم فهو أقل من خمس صلوات في اليوم والليلة، فقد ورد في الصحيح من حديث إسرائه ﷺ وعروجه إلى السموات العلى فيما دار من حوار بين سيدنا محمد ﷺ وموسى عليه السلام بشأن فرضية الصلاة على أمة محمد ﷺ ومما جاء فيه: «... فلم يزل يردّده موسى إلى ربه حتى صارت إلى خمس صلوات ثم احتبسه موسى عند الخمس فقال: يا محمد والله لقد راودتُ بني إسرائيل قومي على أدنى من هذا فضعفوا فتركوه فأمتك أضعف أجساداً وقلوباً وأبداناً وأبصاراً وأسماعاً فارجع إلى ربّك فليخفف عنك»[٤] وفي رواية أخرى للحديث: «فارجع إلى

---

(١) محمد إسماعيل إبراهيم، الصلاة كما وردت في الكتاب والسنة وعلى المذاهب الأربعة، (د.ط.) دار الفكر العربي ١٩٧٧م، ص١٢١.

(٢) اختلف المفسرون في الجهة التي أمروا باستقبالها والتوجه إليها في الصلاة وهي لا تُعلم إلا بنص ولا نص، رضا، تفسير المنار، ج١١ ص٣٩٦.

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج٤ ص٣٧٢.

(٤) جزء من حديث طويل أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد باب قوله: ﴿وكلم الله موسى تكليماً﴾ برقم (٧٠٧٩)، ج٦ ص٢٧٣١.

ربك فاسأله التخفيف فإنّه فرض على بني إسرائيل صلاتين فما قاموا بهما»[١].

ومهما يكن من أمر فإن المطلوب في الكتابين الكريمين هو الإقامة للصلاة وليس مجرد الأداء، الصلاة التي تقرب العبد من ربه سبحانه وتعالى وتحقق للنفس البشرية الراحة والسعادة والأمان.

المطلب الثاني

الدعوة إلى إيتاء الزكاة

إيتاء الزكاة الركن المالي الاجتماعي جعله الله تعالى من أركان الدين الواحد في شريعة كل الأنبياء، وكأنه تعالى يريد للسائرين على منهجه في كل زمان أن يكونوا أخوة مترابطين كالجسد الواحد وكأنه يريد لكل نفس مؤمنة أن تتحرر من عبودية المادة وحب المال وأن تخلص لله تعالى وحده ولذا فإن الدعوة إلى الزكاة وفي جميع الشرائع الإلهية كان دعوة إلى إيتاء الزكاة قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ [الأنبياء: ٧٣].

وفي الكليات للكفوي أن (آتينا): «يُقال فيمن كان منه قبول والإيتاءُ: أقوى من الإعطاء، والإتيان في أكثر مواضع القرآن فيما له ثبات وقرار»[٢].

وقد حاولت أن استنبط بعض الأُسس العامة لإعطاء الزكاة والتي اشترك بها كلٌّ من القرآن الكريم والتوراة الإلهية كما يلي:

أولاً: إيتاء الزكاة يجب أن يكون ثابتاً بوقت، مستمراً لا ينقطع، ما دام في الشخص حياة وما دام قادراً على إيتائها.

ثانياً: لا يشترط رضى المزكّي في إخراج زكاة أمواله بل قد تؤخذ منه بالقوة وهذا ما استدللت عليه من قول الكفوي: إن الإيتاء أقوى من الإعطاء وقد يعود ذلك إلى أن النفس البشرية جُبلت على حب الاستزادة من الأموال فإذا تُركت وما جبلت عليه

---

(١) أخرجه النسائي في سننه، كتاب الصلاة باب فرض الصلاة برقم (٤٥٠)، ج١ ص٢٢٢.

(٢) الكفوي الكليات ص٢١٢.

تأصّلت هذه الجبلة فيها فاستعصي علاجها وتعذر استئصالها فتسعى إلى توفير المال ولو على حساب الغير وقد جعل الله سبحانه إيتاء الزكاة وسيلةً من وسائل علاجها(١)، والعلاج قد يكون ثقيلاً على النفس لكنه مفيدٌ في النهاية.

ثالثاً: يجب أن يصل مال الزكاة إلى مستحقيه وأن يتحرز الشخص بقدر المستطاع أن تذهب أمواله لمن يستحقها وينتفع بها.

رابعاً: الوجوب والفرضية لإيتاء الزكاة يدلل بأن الشخص لا بدّ له من السعي والأخذ بالأسباب لتحصيل الأموال لتجب عليها الزكاة وهذا ما أشار إليه ابن اطفيش في هميان الزاد تعليقاً على قوله تعالى في بيان صفات المؤمنين: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴾ [المؤمنون: ٤] فقوله ﴿ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴾: ليس معناها مجرد أداء زكاة بل تعني أن يتحركوا في الحياة بغرض أن يتحقق لهم فائض يُخرجون منه الزكاة وإلا فما الفارق بين المؤمن والكافر(٢).

خامساً: تدلل كلمة الإيتاء أن المال المُزكى حقٌّ لمستحقيه لا يُعطى بمنّة ولا تفضُّل من أحد عليهم لأن المال مال الله تعالى وحقاً له ابتداءً، اقتضت حكمته وسنته تعالى في هذه الحياة أن يجريه على أيدي البعض دون الاخرين تحقيقاً لسنة الابتلاء والاختبار ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الملك: ٢] فإيتاء الزكاة يحول دون أن يكون المال دولةً بين الأغنياء ويقوّي أواصر الألفة والمحبة والتكافل الاجتماعي بين أفراد الأمة مما يزيدها وحدةً وترابطاً وصلابة(٣).

وهذه الدلالات والمعاني وغيرها الكثير - مما لا يسع المجال لذكرها - من المؤكد أنها مشتركة بين الدعوة إلى إيتاء الزكاة في التوراة الإلهية وبين الدعوة إلى

---

(١) أحمد بن محمد الخليلي، جواهر التفسير أنوار من بيان التنزيل، (د.ط.) مكتبة الاستقامة ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م، ج٣ ص١٩١.

(٢) محمد بن يوسف «ابن اطفيش»، هميان الزاد إلى دار المعاد، (د.ط.) (د.ن) ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ج٥ ص٢٩٩٩.

(٣) انظر: قطب، في ظلال القرآن، م٢ ص٢٧٦.

إيتائها في القرآن الكريم حيث إن معظم الايات التي تدعو إلى الزكاة كانت تدعو إلى إيتائها في الكتابين الكريمين. قال تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ﴾ [الانبياء:٧٣] وقال: ﴿ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾ [التوبة: ٧١].

وفي التوراة الإلهية كانت الدعوة إلى إيتاء الزكاة في المرتبة الثانية بعد إقام الصلاة قال تعالى جواباً على دعاء موسى عليه السلام بأن يرحمه وقومه: ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف:١٥٦] . يقول الميداني: مع أن التقوى تستلزم فعل كل الواجبات ومنها أداء الزكاة فقد خصّ الله - جلّت حكمته - إيتاء الزكاة بالذكر اهتماماً بشأن هذه الفريضة التي فرضها على بني إسرائيل كما فرضها في الرسالة الخاتمة وفي سائر الرسالات التي أنزلها على رسله لأن النفس الإنسانية يحرّضها الشح فيها على التهاون بإيتاء الزكاة[١] .

وإيتاء الزكاة كان من أهم التكاليف التي أخذ الله على بني إسرائيل العهد والميثاق ليعملُنّ بها قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [البقرة:٨٣]. فالتوراة كانت قد أرشدتهم بالمحافظة على أداء الزكاة بسخاء وطيب خاطر، ولعظم شأن هاتين العبادتين البدنية والمالية ذكرتا على وجه خاص بعد الأمر بعبادة الله تفخيماً لشأنهما وتوكيداً لأمرهما[٢] .

إنّ إيتاء الزكاة مفروض في التوراة فرضاً مؤكداً[٣]، وبقطع النظر عن مصارفها والأصناف التي تستحقها ومقاديرها فإن العبرة بوجوب إعطاء المال أو نحوه للمحتاج معونةً ومساعدةً له وما ينجم عن ذلك من آثار ونتائج عظيمة على الفرد والجماعة.

---

(١) الميداني، معارج التفكر، ج٤ ص٦١٠.

(٢) طنطاوي، التفسير الوسيط، ج١ ص٢٤٤.

(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٣٠ ص٤٨٠.

ومن ناحية أُخرى فقد حثّهم التوراة الإلهية على إخراج الصدقات التي هي ليست بفرض وواجب كما حثّ القرآن الكريم على إخراجها لما لها من الاثار العظيمة والتقرب إلى الله، قال سبحانه وتعالى في جانب القرآن الكريم: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: ١٨]. وقال سبحانه: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ [المزمل: ٢٠]. وفي التوراة الإلهية قال تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [المائدة: ١٢] يقول سيد طنطاوي: والمراد بالقرض الصدقات غير المفروضة التي يبذلها القادرون عليها في وجوه الخير المتنوعة بدون رياء أو أذًى في التعبير، وقوله تعالى: ﴿وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾: تأنيس للقلوب وترغيبٌ للنفوس في البذل والعطاء حيث شبه ما يُعطى للمحتاج رغبةً في الثواب بالقرض الذي سيكافيء الله تعالى صاحبه بأضعافه من الخير والنعم[1].

فكل ما يخرجه الشخص من حلال ماله وخياره محبةً لله ورغبةً في الأجر العظيم لا يريد سمعةً ولا رياءً ولا يكدر صدقاته بالمن والأذى لا شك أنه محفوظٌ عنده تعالى يجده أضعافاً مضاعفة يوم القيامة.

المطلب الثالث

الدعوة إلى الصيام

الصيام عبادة تهذيب النفس وضبط الإرادة، قرّرها الله عز وجلّ وأكد فرضيتها في جميع الشرائع الإلهية وجعلها بما رتّب عليها سرّاً بينه وبين عبده الصائم.

والصيام تشريع عظيم لا يصدر إلا عن حكيم خبير سبحانه وفي القرآن الكريم العديد من الايات التي تبين فرضية الصوم وأحكامه وأحواله وآثاره كما قال تعالى:

---

(١) طنطاوي، التفسير الوسيط، ج٤ ص٨١.

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ [البقرة: ١٨٥].

والصيام ركنٌ من أركان دين الله الواحد دين الأنبياء جميعاً فلم يكن فرضه في القرآن الكريم بدعاً من تلك الكتب الإلهية قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۚ ﴾ [البقرة: ١٨٣-١٨٤] وقوله ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ أي فرض عليكم مثل الذي فرض على الذين من قبلكم[١] ودلالة الاية واضحة على أنّ بني إسرائيل قد فُرض عليهم الصيام ولا ريب أن الفرض قد كُتب في التوراة الإلهية إذ هي مصدر التشريعات والأحكام.

و(الصيام): هو الإمساك عن المفطر من طلوع الفجر إلى غروب الشمس بالنّية[٢] ولا بد من الصيام حتى يتحقق أن يترك الصائم جميع أصناف الأكل والشرب ولا يُعدّ صائماً من امتنع عن بعض الأصناف دون البعض الاخر[٣].

فظاهر الاية وما فيها من تشبيه يدلل على أنّ الصيام في جميع الرسالات هو إمساك عن الطعام والشراب - وربما عن الجماع-[٤] في وقت معلوم هو في الغالب من طلوع الفجر إلى غروب الشمس ويقوّي ذلك ما ورد عن النبي ﷺ قوله: «إنا معشر الأنبياء أُمرنا أن نُؤخر سحورنا ونعجل فطورنا وأن نمسك بأيماننا على شمائلنا في صلاتنا»[٥] وكقوله ﷺ وهو يصف عبادة داود عليه السلام والذي كان متعبداً بشريعة التوراة: «أحبُّ الصيام إلى الله صيام داود كان يصوم يوماً ويفطر يوماً وأحبّ الصلاة إلى الله

---

(١) الطبري، جامع البيان، ج٢ ص١٣٤.

(٢) البقاعي، نظم الدرر، ج١ ص٣٣٨ وانظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج١ ص٢٤١.

(٣) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢ ص١٥٥.

(٤) ذكر ابن عاشور أن الإمساك عن الجماع في نهار الصوم من مستحدثات شريعة القرآن. انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢ ص١٥٥.

(٥) أخرجه ابن حبان في صحيحه، باب صفة الصلاة برقم (١٧٧٠) ج٥ ص٦٧ وقال الهيثمي في مجمع الزوائد، كتاب الصلاة باب وضع اليد على الأخرى: «رجاله رجال الصحيح» ج٢ ص١٠٥.

صلاة داود كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه»[١].

وقول تعالى: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾: يدلّ على أنّ مدّة الصيام المكتوب على الأمم هي مدّة قليلة غير متطاولة[٢]، وهي في القرآن الكريم مدّة شهر رمضان المبارك أما في التوراة الإلهية فلم أجد ما يحدّد عدد الأيام الواجب صيامها على بني إسرائيل، وقد قيل: أنّ الله تعالى قد فرض صيام شهر رمضان على كلّ أمّة ومنها بني إسرائيل[٣] ولكن هذا الرأي كما يقول سيد طنطاوي: «ليس له دليل»[٤] وقيل: أن الصوم المفروض على بني إسرائيل هو صيام يوم عاشوراء[٥] وربّما أن المستند في ذلك هو ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لما قدم النبي ﷺ المدينة فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء فقال: ما هذا قالوا: هذا يومٌ صالح هذا يوم نجى الله بني إسرائيل من عدوّهم فصامه موسى قال: فأنا أحقّ بموسى منكم فصامه وأمر بصيامه»[٦].

إن النقطة الأساسية الأهمّ هي الغاية والمقصد الأول من تشريع الصيام وفرضه في كل من القرآن الكريم والتوراة الإلهية، فالصيام الذي هو إمساك عن معظم ما تشتهيه الأنفس ليس امتحاناً فقط ولا مشقة ليس من ورائها قصد بل هو رياضة وتربية وإصلاح وتزكية ومدرسة خلقية يتخرج فيها الإنسان فاضلاً كاملاً زمامه بيده يملك نفسه وشهواته ولا تملكه، لقد استطاع الإضراب عن المباحات والطيبات فهو أقوى على ترك الممنوعات والمحرّمات ومن يترك الماء الزلال الحلال والطعام الزكيّ الهنيء لأمر ربّه فكيف يقرب السحت الحرام والرجس النجس من المطاعم والمشارب والمعايش[٧]،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء باب أحبّ الصلاة إلى الله صلاة داود وأحب الصيام إلى الله صيام داود برقم (٣٢٣٨)، ج٣ ص١٢٥٧.

(٢) انظر: الألوسي، روح المعاني، ج١ ص٤٥٥.

(٣) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج١ ص٢٧٤.

(٤) طنطاوي، التفسير الوسيط، ج١ ص٣٨٠.

(٥) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج١ ص٢٧٥.

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم باب صيام يوم عاشوراء برقم (١٩٠٠)، ج٢ ص٧٠٤.

(٧) أبو الحسن علي الحسني الندويّ، الأركان الأربعة: الصلاة - الزكاة- الصوم - الحج في ضوء =

فلم يكن جانب الحرمان من الطعام والشراب هو الهدف الذي قُصد بافتراض الصوم.. وإنما هو مظهرٌ ماديّ للصوم تكمن وراءه حكمته الحقيقية: وهي غرس خُلق المراقبة وخلق الصبر في نفوس المؤمنين، وبهما تصدُق النيّة وتقوى العزيمة فيثبتون لحوادث الدهر وما يعترضهم من عقبات[1].

إن فرض وكتابة الصيام على أهل القرآن الكريم وأهل التوراة الإلهية كان عن حكمةٍ عظيمة من الخالق وعن علم بمن خلق، ذلك أن أغلب أسباب الفساد والانحراف للأفراد والمجتمعات هي نتيجة لعدم الضبط والتحكم بالشهوات - بكافة أنواعها - التي هي غرائزٌ في النفس البشرية قدّر الله سبحانه وتعالى إيجادها لحكمةٍ منه تعالى وابتلاءٍ وامتحانٍ ذي حدّين...

فجعل سبحانه الصيام مدرسةً تربويةً عملية لقهر هذه النفس وكبح جماحها وإعادة التوازن لها من فترةٍ لأخرى على حسب الفطرة السليمة التي فطرها الله عليه لتقوم بوظيفتها المعهودة على هذه الأرض إعماراً وعبوديةً واستخلافاً، ولمّا كان القرآن الكريم والتوراة الإلهية كتب هداية وإرشاد وإصلاح لا شك كان الصيام وفرضيته من أهم وأعظم ما دعت إليه ورغّبت فيه.

المطلب الرابع

الدعوة إلى الجهاد في سبيل الله

اشتركت التوراة الإلهية مع القرآن الكريم في فرضية ووجوب الجهاد والقتال في سبيل الله تعالى وأن ذلك ليس له ثواب إلا الجنة في أعلى درجاتها ومنازلها. قال تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ

= الكتاب والسنة مقارنة مع الديانات الأخرى، (د. ط.) دار القلم (د. ت.)، ص٢١٠.

(١) محمود شلتوت، الإسلام عقيدة وشريعة، ط١٦ دار الشروق ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، ص١٠٩.

﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١] يقول البغوي قوله: ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ﴾ يعني «أن ثواب الجنة لهم وعدٌ حقّ وأن الله عزّ وجلّ وعدهم هذا الوعد في هذه الكتب وفيه دليلٌ على أن أهل الملل كلهم أمروا بالجهاد على ثواب الجنة»[1].

فهذه البيعة وهذا الوعد الذي وعده سبحانه وتعالى للمؤمنين المضحين بأنفسهم وأموالهم في سبيله بأنّ لهم الجنة وعدٌ ثابتٌ في القرآن الكريم والتوراة الإلهية، وهي بيعةٌ مع الله لا يبقى بعدها للمؤمن شيءٌ في نفسه ولا في ماله يحتجزه دون الله ودون الجهاد في سبيله لتكون كلمة الله هي العليا وليكون الدين كله لله، إن الجهاد في سبيل الله بيعةٌ معقودةٌ بعنق كل مؤمن، كل مؤمن على الإطلاق منذ كانت الرسل ومنذ كان دين الله، إنها السُّنة: التي لا تستقيم هذه الحياة بدونها ولا تصلح الحياة بتركها[2] قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١].

فلا إعمار لهذه الأرض إلا بأن يكون الحق وما أراده الله هو الأقوى وهو المهيمن والمسيطر ولا يكون ذلك إلا بتضحية وبذل للأنفس وللأموال.

فالحياة الإنسانية لا تستقيم إلا بتطبيق شرع الله ومنهجه وهذا لا يكون إلا إذا كانت فريضة الجهاد مستمرة إلى يوم القيامة بحيث لا تتوقف فريضة الجهاد حتى تتوقف الحياة الإنسانية نفسها، فالغاية التي ينتهي عندها الجهاد في سبيل الله أو يتوقف هي يوم القيامة، ذلك أنّ الصراع بين الحق والباطل، بين الشرك والإيمان بين الضلال والهدى قائمٌ مستمرٌ ما دام على الأرض حياةٌ إنسانية: أي إلى يوم القيامة[3].

قال سبحانه وتعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ

---

(١) البغوي، معالم التنزيل، ج٢ ص٢٧٧.

(٢) قطب، في ظلال القرآن، م٣ ص١٧١٤.

(٣) حسن البنا، ركن الجهاد أو الركن الذي لا تحيا الأمة إلا به، تحليل وشرح: علي عبد الحليم محمود، ط١ دار التوزيع والنشر الإسلامية ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، ص١٦٢.

لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٣٩-٤٠] بمعنى أنه لولا ما شرعه الله تعالى للأنبياء والمؤمنين من قتال الأعداء وإقامة حدود الأديان لاستولى أهل الشرك على مواضع العبادة وهدموها[١].

فالهدف الأساسي من الجهاد في سبيل الله هو إعلاء كلمة الله في الواقع الإنساني الذي مُنح فيه الإنسان حرية الاختيار لحكمة الابتلاء في الحياة الدنيا، وكلمة الله التي يطالب المؤمنون بالجهاد في سبيل إعلائها: هي ما جاء في شريعته لعبادهِ من أوامرٍ ونواهٍ وتجمعها كلمة لا إله إلا الله[٢] بكل ما يترتب عليها وبكل ما تعنيهِ.

وبناءً على كل ما سبق من دلالات ومعانٍ وأهداف وغايات للجهاد في سبيل الله أصبح بالإمكان استشعار أو تلمُّس الحكمة من اشتراك الكتب الإلهية في فرضية الجهاد سواء الجهاد بالنفس أو الجهاد بالمال.

ولا يخفى على أحدٍ أن القرآن الكريم حوى آيات عديدة فيها دعوة للجهاد بالنفس وبالمال وترغيبٌ فيه ووعدٌ إلهي بالنصر في الدنيا والجنة في الآخرة، والحث على الثبات في المعارك وعدم الانهزام قال تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٤١]. وقال: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾ [التوبة: ٨٨-٨٩].

وقد حذّر سبحانه وتعالى من الانهزام والهروب من المعارك ودعا إلى الثبات حتى النصر أو الشهادة. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا

---

(١) المراغي، تفسير المراغي، ج١٧ ص١١٩.

(٢) حسن حبنكة الميداني، مفهومات يجب تصحيحها، ط١ مؤسسة الريان ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، ص١٣٣.

تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ [الأنفال: ١٥].

وهناك تطبيقات من قصص القرآن الكريم تدل على أن الجهاد في سبيل الله كان فرضاً في التوراة الإلهية، أمر به موسى قومه في تلك الحقبة من تاريخ بني اسرائيل التي كان الحكم فيها بشريعة التوراة وأحكامها.

فقد طلب موسى عليه السلام من بني إسرائيل أن يباشروا الجهاد في سبيل الله ضد عدوّهم الوثني لتكون كلمة الله هي العليا ويدخلوا الأرض المقدسة. قال تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٢١].

فقوله: ﴿ٱدْخُلُوا ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ﴾: أمرٌ لهم أن يدخلوا الأرض المطهّرة المباركة التي حكم الله أن يطهِّرها بأنبيائه ورسلهِ من نجس الشرك وضر المعاصي والإفك ويبارك فيها عن طريق قتال أعداء الله والجهاد في سبيله[١].

وقد حذّرهم مما يوجب الانهزام فقال: ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا﴾: لأن ارتداد الجيش على الأعقاب من أكبر أسباب الانخذال[٢]، فيجب الثبات والصبر حتى النصر أو الشهادة.

---

(١) انظر: البقاعي، نظم الدرر، ج٢ ص٤٢٥.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٤ ص١٦١.

المبحث الرابع

ما اشترك به القرآن الكريم مع التوراة الإلهية في مكارم الأخلاق

(أصول الإحسان)

اشتركت التوراة الإلهية مع القرآن الكريم في الدعوة إلى مكارم الأخلاق وكان من أبرز ما ذكر في القرآن من ذلك: الدعوة إلى أصول الإحسان كالإحسان إلى الوالدين ثم الإحسان إلى ذوي القربى ومن ثم اليتامى والمساكين فسائر الناس.

والإحسان: اسم عام يشمل كل ما يكون فيه رضا لهم وبرّ بهم وعطفٌ عليهم وعلى أحوالهم وشؤونهم، ولذلك أُبهم ليشمل كل مسمّى الإحسان جليله وحقيره ولتذهب النفس في تفسيره أيّ مذهب فإنها ستبر بذلك[١].

ولما كان الإنسان الذي هو أفرادٌ وجماعات هو محل التكليف ومحل الخطاب والمستخلف في هذه الأرض فإنه لا ريب كانت الحاجة ملحّة إلى الاهتمام بشأنه وهدايته إلى كل ما يهذِّب نفسه ويحميها من شهواتها وأهوائها وهدايته إلى كل ما يجعل حياته مليئة بالطمأنينة والفضائل والإصلاح في محيطه وفي مجتمعه، فغاية الأخلاق إيجاد مجتمع خيِّر يسوده العدل والأمن، والتعاون على صيانة الحياة من الفساد والمظالم وكل ما يشقيها ويرهقها والمسير بها إلى طريق الكمال والفضيلة وإصلاح الجماعة بملازمة الصراط المستقيم في السلوك[٢]، فهي دعوةٌ لإصلاح الأفراد ليؤدي ذلك إلى إصلاح الجماعات ومن ثم جميع الأمة.

هي دعوةٌ واقعية منطقية حكيمة لا تصدر إلا عن عالمٍ خبير بمن خلق سبحانه وتعالى... ومن هذا المنطلق ومن هذه الدلالات والمعاني اشترك القرآن الكريم مع

---

(١) أحمد بن عبد العزيز بن قاسم الحدّاد، أخلاق النبي ﷺ في القرآن والسنة، ط٢ دار الغرب الإسلامي بيروت ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م، ج٢ ص٧٦٢.

(٢) محمد عقلة، النظام الأخلاقي في الإسلام، ط١ مكتبة الرسالة الحديثة عمان ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م، ص٩١.

التوراة الإلهية في الدعوة إلى مكارم الأخلاق وأصول الإحسان إلى الغير حسب الأولويات الأقرب فالأقرب.

المطلب الأول

الإحسان إلى الوالدين

اشترك القرآن الكريم مع التوراة الإلهية في الدعوة إلى الإحسان للوالدين، والوالدان اللذان هما الأصل في وجود الإنسان هما الأقرب والأحق من غيرهما من الأرحام في الإحسان لما لهما من فضل الولادة والعطف والرعاية والتربية. وكانت الدعوة إلى الإحسان لهما في التوراة الإلهية مباشرة بعد الأمر بعبادة الله تعالى. قال تعالى﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة: ٨٣] يقول الخفاجي: «أخذ الميثاق بإنزال التوراة وقبولهم أحكامها المشترك بين السلف والخلف»[١].

وقوله: ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾: أي وصّيناهم بالوالدين إحساناً: برّاً بهما وعطفاً عليهما ونزولاً عند أمرهما فيما لا يخالف أمر الله تعالى»[٢] والإحسان نهاية البر: فيدخل فيه جميع ما يجب من الرعاية والعناية، وقد أكد الله الأمر بإكرام الوالدين في التوراة، وأعظم علة في وجوب هذا الإحسان إلى الوالدين هي: العناية الصادقة التي بذلاها في تربيته والقيام بشؤونه أيام كان ضعيفاً عاجزاً جاهلاً لا يملك لنفسه نفعاً ولا يقدر أن يدفع عنها ضرراً إذْ كانا يحوّطانه بالعناية والرعاية ويكفلانه حتى يقدر على الاستقلال والقيام بشأن نفسه[٣].

ويقول القوجوي: «عقّب سبحانه تكليفهم بتخصيص العبادة به تعالى بالتكليف بالإحسان إلى الوالدين لأن نعمة الله تعالى على العبد أعظم النعم فلا بدّ من تقديم

---

(١) الخفاجي، حاشية الشهاب المسماة «عناية القاضي وكفاية الراضي» ج٢ ص٣١٣.

(٢) البغوي، معالم التنزيل، ج١ ص٥٦.

(٣) رضا، تفسير المنار، ج١ ص٢٩٩.

شكره على شكر غيره ثم إنّ أعظم النِّعم بعد نعمة الله تعالى: هي نعمة الوالدين عليه لأن الوالدين هما الأصل في وجود الولد ولا يقطعان إحسانهما بإساءة الولد والنّعم كلها وإن كانت فائضةً من خزانة لطف الله ورحمته إلا أن الوالدين أعظم الوسائط والأسباب الظاهرة»[١].

وفي القرآن الكريم النصيب الأوفر من التوصية بالوالدين وبرّهما والأمر بإسداء المعروف ورده لهما وخفض جناح الذلّ لهما والرأفة بهما والدعاء بالخير لهما، وقد قرن الله سبحانه وتعالى حقهما بحقهِ وأمر ببرّهما بعد الأمر بعبادته في آيات عديدة كمثل قوله تعالى: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ [الإسراء: ٢٣] وقوله: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ﴾ [الأحقاف: ١٥] وقال: ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ [الإسراء: ٢٤].

إن الاهتمام بأمر الوالدين وتعظيم شأنهما من المؤكد أن له من الحكم والدلالات ما تفيض السطور بذكرها إذ هما المنبع الأول الذي ينهل منه البشر علومهم ودينهم ومعرفتهم بخالقهم ورازقهم سبحانه فصلاحهم لا شك أنه صلاحهم وهما البؤرة الأولى في محيط الصلاح والتقوى الذي يجب أن يحيط بكل فرد.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿ ۞ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ [النساء: ٣٦] إن بر الوالدين والإحسان إليهما جعلته هذه الاية الكريمة العنصر الثاني بعد توحيد الله تعالى في رباط الجماعة الذي ينبت في الأسرة وتُبنى على وحيهِ ثم يشعّ نوره ويتّصل أثره بجميع الصلات البشرية فتقوى به عوامل الألفة والمحبة والتعاون وتشعر الأمة بوحدةٍ لا تعرف التفرق وتكافل لا يعرف التخاذل[٢].

---

(١) القوجوي، حاشية محي الدين شيخ زاده على تفسير البيضاوي، ج٢ ص١٣٣.

(٢) محمود شلتوت، من توجيهات الإسلام، ط٧ دار الشروق بيروت القاهرة ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص١٩٧.

المطلب الثاني

الإحسان إلى ذي القربى

ذوو القربى: هم الذين يدلي إليهم بنسب من قبل الأم أو الأب ويُعبّر عنهم بذوي الأرحام، والإحسان إليهم واجبٌ ديني في كل الشرائع المنزّلة لأنه داعية الترابط الأسري المؤدي إلى الترابط الاجتماعي فإنّ من حكمة الله سبحانه أن جعل النوع الإنساني يتميّز عن جميع أنواع خلقه بضرورته إلى التعايش الاجتماعي إذ لا يمكن لفرد منه أن يستقل بمصالحِهِ عن مجتمعهِ والمجتمعات إنما تتكوّن من الأسر بل الأسرة في حقيقتها مجتمعٌ أصغر والمجتمع أسرةٌ كبرى فإذا انحلّت الروابط الأُسرية تلاشت بالأحرى النظم الاجتماعية[1]، فلم تخل التوراة الإلهية والقرآن الكريم من الدعوةِ إلى صلة الرحم والإحسان إليهم وبرّهم.

ففي التوراة الإلهية كان الإحسان إليهم وصلتهم إحدى التكاليف -بعد برّ الوالدين- التي أخذت على بني إسرائيل فيها العهود والمواثيق على التمسك به قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [البقرة: ٨٣].

إنّ لصلة القربى والإحسان إليهم شأنٌ عظيم فيه في القرآن الكريم وتأتي في المرتبة الثانية أيضاً أحقيتهم بالبر والصلة بعد بر الوالدين والإحسان إليهم قال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [النساء: ٣٦].

وهم أولى الناس بالبر والعطف وإهداء الأموال قال تعالى﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقال: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾ [النساء: ١].

فصلة الأرحام والإحسان إليهم مما فُطر عليه البشر وأجرها عظيم عنده سبحانه وتعالى فإذا كانت كل أُسرة قويةٌ فيما بينها كانت الأمة (أو المجتمع) قويةٌ صلبة يصعب

---

(١) الخليلي، جواهر التفسير، ج٣ ص٥١٨.

أو يتعذّر على الأعداء تجاوزها أو اختراق صفّها والنيل من عزّتها وكرامتها[١].

المطلب الثالث

الإحسان إلى اليتامى

واليتامى : هم من البشر الذين مات عنهم آباؤهم قبل البلوغ وقد حضّت الشرائع على مراعاتهم والإحسان إليهم بحسن التربية والتوجيه السليم ومواساتهم بالمال مع الاحتياج والمحافظة على أموالهم والعناية بجميع مصالحهم حتى يبلغوا رشدهم[٢]. .

وشريعة بني إسرائيل قوم موسى التي هي شريعة التوراة الإلهية أيضاً حضت على الإحسان إلى اليتامى والعطف عليهم والرعاية لهم قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ ﴾ [البقرة : ٨٣].

ولا شك أن أخذ الميثاق والعهد الموثّق عليهم بالإحسان إلى اليتامى يدل على كمال عنايته سبحانه وتعالى بهم وتدل على عظيم أمر الأيتام عند الله تعالى لأنهم ضعاف لا يملكون لأنفسهم حولاً ولا قوة فكانت نصرة الله تعالى وعنايته بهم جابرة لضعفهم بين أبناء جنسهم بحيث أصبحوا ناؤون إلى ركنٍ شديدٍ[٣].

وقد أراد الله تعالى وهو أرحم الراحمين بما أكّد من الوصية بالأيتام أن يكونوا من الناس بمنزلة أبنائهم يربّونهم تربيةٍ دينية دنيوية لئلا يفسدوا ويفسد بهم غيرهم فينتشر الفساد في الأمة فتنحل انحلالاً، فالعناية بتربية اليتامى هي الذريعة لمنع كونهم قدوة سيئة لسائر الأولاد والتربية لا تتيسّر مع وجود هذه القدوة فإهمال اليتامى إهمالٌ لسائر أولاد الأمة[٤].

---

(١) وهبة الزحيلي، أخلاق المسلم - علاقته بالمجتمع، ط٢ دار الفكر دمشق ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م، ص١٠٠.

(٢) الخليلي، جواهر التفسير، ج٣ ص٥١٨.

(٣) الحدّاد، أخلاق النبي ﷺ في القرآن والسنة، ج٢ ص٨٥٧.

(٤) رضا، تفسير المنار، ج١ ص٣٠٠.

وفي القرآن الكريم العديد من الآيات الكريمة التي تحثّ على الإحسان لليتامى مادياً ومعنوياً وقد نهت عن قهر اليتيم وشدّدت الوعيد على أكل ماله تشديداً خاصاً وبيّنت أنه لصغره وخلوّه عمن يقوم بمصالحه يستحق الإحسان إليه أولى من غيره كما قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٢٢٠] ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ [الضحى: ٩] وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ [النساء: ١٠].

إن ظاهرة وجود اليتامى في المجتمع شيءٌ لا بد منه نظراً لسنة الله في خلق الموت والحياة وسنة الابتلاء والاختبار وسنة الضعف والقوة وسنة الفقر والغنى وغير ذلك مما هو من حكمة الله وإرادته لما خلق، لكنّ القاعدة الأساس والأصل أن المجتمع بكل أفراده وحدةٌ واحدة متكاتفة متعاونة يسوده العطف والرحمة.

المطلب الرابع

الإحسان إلى المساكين

والمسكين: هو من يعجز عن كسب يكفيه[1]، أو من لا يفي كسبه بنفقاته الضرورية وهم أهل السكون والعفة من الفقراء فإنّهم لما قعد بهم العجز عن كسب ما يكفيهم وسكنت نفوسهم للرضى بالقليل عن مدّ كف الذل وجبت مساعدتهم ومواساتهم على المستطيع[2] لذلك كلٌّ بحسب حاله وقدرته.. مساهمة في الاحتفاظ لهم بكرامة نفوسهم وصيانةً لهم من البوار وإشعارهم بالتضامن والتكافل في محيط الجماعة المسلمة التي لا يهمل فيها فرد ولا يضيع فيها عضو[3]، حتى يتكافل المجتمع كله ويذهب الحقد والبغض بين أفراد الأغنياء والفقراء تحقيقاً للوحدة والأخوة والتعاطف بين أفراد الأمة التي هي كالجسد الواحد لا فضل لأحد على آخر لا بمال ولا بسلطان

---

(١) رضا، تفسير المنار، ج١ ص٣٠٠.

(٢) رضا، تفسير المنار، ج٢ ص٩٣.

(٣) قطب، في ظلال القرآن، م٢ ص١٦٠.

ولا بأصل ولا بنسب إلا بالتقوى والعمل الصالح. لذلك فقد دعا الله سبحانه وتعالى إلى الإحسان إلى المساكين في كلٍّ من التوراة الإلهية والقرآن الكريم وفي كل ما تحمله هذه الكلمة من دلالات ومعاني. قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [البقرة: ٨٣].

وفي القرآن الكريم العديد من الايات التي تدعو إلى الإحسان للمساكين والظاهر أن أبرز مظاهر الإحسان إليهم هي الإعانة بالمال والإطعام. كما قال تعالى: ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨].

والمساكين هم إحدى الفئات التي أمر المؤمنين إيتاءهم المال على حبه والاعتزاز به قال تعالى: ﴿ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

المطلب الخامس

الإحسان إلى سائر الناس

اشترك القرآن الكريم مع التوراة الإلهية في الدعوة إلى معاملة جميع البشر بالحسنى سواءً بالكلمة الطيبة أم بالنصيحة الخالصة أم بغير ذلك مما لا يكلف شيئاً.

وفي التوراة الإلهية تتمثل الدعوة في قوله تعالى: ﴿ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ [البقرة: ٨٣]. وهو مما أخذ عليهم العمل به في التوراة، يقول الألوسي: «الظاهر أن هذا الأمر من جملة الميثاق المأخوذ على بني إسرائيل»[١].

ففي قوله تعالى: ﴿ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾: جعل الإحسان لسائر الناس بالقول لأنه القدر الذي يمكن معاملة جميع الناس به وذلك أن أصل القول أن يكون عن اعتقاد فهم إذا قالوا للناس حسناً فقد اضمروا لهم خيراً وذلك أصل حسن المعاملة مع الخلق[٢]، وهذا القول الحسن الذي هو من الإحسان العام الذي لا يكلفه عناءً ولا يحتاج إلى إنفاق، يغرس في النفوس المودّة ويؤلف النافر ويدني البعيد وهو ترجمةٌ لحسن الطويّة

---

(١) الألوسي، روح المعاني، ج١ ص٣٠٨.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١ ص٥٨٣.

ومرآةً لصفاء النفس وقد يسّره الله لجميع الناس فلذلك فرضه على جميعهم لجميعهم(١).

ويدخل في الإحسان إلى سائر الأمة فضلاً عن الكلمة الطيبة والمعاملة الحسنة: النصيحة لهم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيهم، فالحسن: هو النافع في الدين أو الدنيا(٢). ولا شك أن القيام بذلك هو إصلاح للأمة كلها وهذا السر في هذا الأمر.

واعتبر الطباطبائي في الميزان إن قوله: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾: كنايةٌ عن حسن المعاشرة مع الناس كافرهم ومؤمنهم، ولا ينافي حكم القتال لأن مورد القتال غير مورد المعاشرة فلا ينافي الأمر بحسن المعاشرة كما أنّ القول الخشن في مقام التأديب لا ينافي حسن المعاشرة(٣).

والمتأمل في المعاني الانفة الذكر مما دعت إليه التوراة الإلهية يلحظ أنها جميعها قد دعا إليها القرآن الكريم بل قد زاد عليها فمعاملة الناس بالكلمة الطيبة والنصيحة الخالصة لهم وحسن معاشرتهم وغير ذلك مما يدخل في الحسن كلها معانٍ خُلقية تدلّل عليها آياتٌ جمّة في القرآن الكريم.. فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]. وقوله: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤]. وقوله تعالى: ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

---

(١) الخليلي، جواهر التفسير، ج٣ ص٥٢٠.

(٢) رضا، تفسير المنار، ج١ ص٣٠١.

(٣) الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج١ ص٢١٩.

الفصل الثالث

أوجه اتفاق القرآن الكريم مع الإنجيل الإلهي

إن اتفاق القرآن الكريم مع الإنجيل الإلهي يقع ضمن إطار العلاقة القوية القائمة بين القرآن الكريم والكتب الإلهية السابقة (التوراة والإنجيل).

فمن خلال حديث آيات القرآن الكريم عن الإنجيل الإلهي فقد أعترف به ككتاب إلهي مستقلّ وتحدّث عنه مبيناً بعض أوصافه وسماته التي تعرّفنا به وتُدلل على قيمته وأهميته وتكشف عن طبيعة المَهمّة ورسالة الإنجيل الإلهي وما إلى ذلك من دلالاتٍ ومعانٍ اشترك بها مع القرآن العظيم.

تحدّث القرآن الكريم عن الرسالة التي يحملها الإنجيل الإلهي وما فيه من المبادى والأصول في العقائد والشرائع والأخلاق وما كان على لسان عيسى عليه السلام من أُصول الدعوة، وهذا بلا شك إثباتٌ لوحدة المصدر ووحدة الدين في الكتابين الكريمين وأن القرآن الكريم أتى مصدّقاً مقرّاً معترفاً ومؤكّداً لما فيه من هذه الأصول والمبادى وأنه لم يكن بدعاً من الكتب الإلهية دعا إلى ما دعت إليه وجاء مُغنياً عنها وزاد على الحق الذي فيها.

المبحث الأول

الأوصاف التي اشترك بها القرآن الكريم مع الإنجيل الإلهي.

إن الكتب الإلهية (القرآن - التوراة - الإنجيل) قد جعلها الله سبحانه منهج حياة وشريعة حكم كلّها جاءت لتؤدي رسالة واحدة، وقد وصفها سبحانه بأوصافٍ تعرّف بطبيعة هذه الرسالة وتكشف عن الأهداف والغايات من إنزالها للبشرية.

والتعرُّف على الأوصاف المشتركة بين القرآن والكتب السابقة (التوراة والإنجيل) يؤدي إلى زيادة اليقين لدى المسلم بمصدر هذه الكتب وصدقها فيزداد إيمانه ومعرفته بها وبالأهداف والغايات والمقاصد التي من أجلها أُنزلت وأيضاً يزداد يقينه بالقرآن الكريم وأنه لم يكن بدعاً من تلك الكتب أتى بما أتت به واتصف بما وُصفت به.

المطلب الأول

وحدة المصدر

اشترك القرآن الكريم مع الإنجيل الإلهي في وحدة مصدر كلٍّ منهما قال تعالى في حق القرآن: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩] فهو سبحانه الذي أنزل هذا الذكر، وهذا القرآن هو من عند الله تعالى قطعاً لا من عند غيره لأنّ غير الله تعالى لا يقدر على الإتيان به ولا يستطيع أن يأتي بمثله نصّاً ولا إعجازاً ولا إحكاماً لآياتهِ ولا إحكاماً لشريعتهِ ولا إخباراً عن المغيبات ولا عن العوالم العلويّة والسفلية ولا إحاطة ببعض تلك العلوم والمعارف التي جاء بها هذا الكتاب الكريم[١].

وقد سمّي القرآنُ تنزيلاً لأنّه منزّل من عند الله تعالى على نبيّه عليه الصلاة والسلام بوساطة جبريل[٢]، فليس لجبريل في هذا القرآن الكريم سوى حكايته للرسول ﷺ وإيحائه إليه وليس للرسول ﷺ في هذا القرآن سوى وعيه وحفظه ثم حكايته وتبليغه ثم بيانه وتفسيره ثمّ تطبيقه وتنفيذه[٣].

والقرآن الكريم بلفظه ومضمونه ومعناه صادرٌ منه سبحانه وتعالى، والإيمان به يقتضي أن كلّ ما فيه مما يشكل للناس منهج حياة ويستقون منه أحكامهم وشرائعهم وأنظمة حياتهم كلّه مصدره واحدٌ لا يتعدد قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ ﴾

---

(١) سراج الدين، هدي القرآن الكريم إلى الحجة والبرهان، ص٢١٦.

(٢) انظر: الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ص٣٥٢.

(٣) الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، ج١ ص٤٤.

[النساء: ١٣٦]. فالإيمان بالكتاب الذي نزّل على رسوله يربطهم بالمنهج الذي اختاره الله لحياتهم وبيّنة لهم في هذا الكتاب والأخذ بكل ما فيه بما أنّ مصدره واحد وطريقه واحد[١].

أما بالنسبة لمصدر الإنجيل: فالإنجيل الإلهي كتابٌ واحد أُنزل من عند الله تعالى على سيدنا عيسى عليه السلام. قال سبحانه على لسان عيسى عليه السلام: ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾ [مريم: ٣٠] وقال: ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ﴾ [المائدة: ٤٧] وقال سبحانه: ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾ [الحديد: ٢٧].

وقد عبّر سبحانه بـ (الإنزال) إلى جانب الإنجيل الإلهي كما هو في التوراة مما استنبط العلماء منه أنه أُنزل جملةً احدة من عنده تعالى وإلى سيدنا عيسى عليه السلام لا إلى أحدٍ غيره قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ [آل عمران: ٣] يقول أبو السعود: أي أنزلهما جملةً واحدة على موسى وعيسى عليهما السلام وإنما لم يُذكرا - يقصد موسى وعيسى- لأن الكلام في الكتابين لا فيمن أُنزلا عليه[٢].

وإلى جانب التعبير بالإنزال للإنجيل فقد عبّر سبحانه وتعالى عن الإيحاء به مرةً بالإيتاء ومرةً بالتعليم.

أما التعبير (بالإيتاء) منه سبحانه كقوله تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾ [المائدة: ٤٦] ومن العلماء من اعتبره بمعنى الإنزال كما فسّره البقاعي بقوله: أي «أنزلناه بعظمتنا عليه كما أنزلنا التوراة على موسى»[٣] وفي الكليات للكفوي أنّ (آتينا): «يُقال فيمن كان منه قبول والإيتاء: أقوى من الإعطاء إذ لا مطاوع له.. والإتيان في أكثر مواضع القرآن فيما له ثبات وقرار: كالحكمة والسبع المثاني والمُلك الذي لا يؤتى إلا لذي قوة»[٤]

---

(١) قطب، في ظلال القرآن، م٢ ص٧٧٨.

(٢) أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج٢ ص٤.

(٣) البقاعي، نظم الدرر، ج٢ ص٤٦٩.

(٤) الكفوي، الكليات، ص٢١٢.

ويمكن أن نستشف من كلام الكفوي السرّ في التعبير بالإيتاء في جانب الإنجيل دون غيره كالإعطاء مثلاً - ما يلي:

أولاً: من باب تأكيد الإعطاء: وذلك من قوله: «إن الإيتاء أقوى من الإعطاء». فمن الملاحظ أن عيسى عليه السلام قال في المهد طفلاً: ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ [مريم: ٣٠] فعبّر بالإيتاء حتى لا يشُكّ مَنْ يستمع لهذا الطفل في إعطاءه الكتاب.

ثانياً: التعبير بالإيتاء لأمرٍ يتعلق بمميزات وأوصاف الإنجيل والرسالة التي يحملها: وذلك من قوله أنّ الإتيان فيما له ثبات وقرار كالحكمة، فالإنجيل قد وصف بالحكمة، وأيضاً من معاني الإنجيل: البشارة أي بالنبي ﷺ وبكتابهِ وهذا مما نلمس آثاره إلى يومنا هذا حيث تحقّق ما بشّر وأخبر به - والله تعالى أعلم-.

ثالثاً: عبّر بالإيتاء إشارة منه - سبحانه وتعالى- إلى أنّ ما أُوحي إلى عيسى عليه السلام كان مكتوباً، له وجود يمكن الرجوع إليه والنظر فيه وليس وحياً شفهياً أُمر بتبليغه فحسب[١].

وإلى جانب التعبير بالإنزال والإيتاء عبّر سبحانه وتعالى عن الإيحاء بالإنجيل إلى عيسى عليه السلام (بالتعليم) كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ [المائدة: ١١٠] وقوله: ﴿ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ [آل عمران: ٤٨] وفي كلتا الايتين نسب الله سبحانه وتعالى التعليم إلى نفسه الجليلة ولا شك أنّ هذا يدلّل على عظم شأن الرسول والكتاب وأنه تعليمٌ من الله تعالى، وتعليم الله تعالى التوراة والإنجيل لعيسى عليه السلام إما بالإلهام وإما بالوحي وإما بالتوفيق والهداية للتعلم[٢]، وقد كان عيسى عليه السلام حافظاً للتوراة والإنجيل عن ظهر قلب وقد عرّفه الله تعالى وأطلعه على كل ما فيها من أسرار عقلية وشرعية فكان يفقه ويعلم ما فيها من أحكام وشرائع وحكم ومواضع البشارة

---

(١) رضا، تفسير المنار، ج١ ص٣٩١. .

(٢) انظر: أبو حيان، البحر المحيط في التفسير، ج٣ ص١٥٨. الألوسي، روح المعاني، ج٢ ص١٦٦.

بمحمد ﷺ(١).

وكل ذلك -الإنزال والإيتاء والتعليم- يدخل في مصبّ الإيحاء إليه ولا يدلّل إلاّ على مصدر الإنجيل الإلهي وأنّه وحيٌ من الله تعالى وحده قال سبحانه وتعالى: ﴿ ۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ ﴾ [النساء: ١٦٣] وهذه هي المرة الوحيدة التي ورد فيها ذكر الوحي صريحاً إلى عيسى عليه السلام في القرآن، ومن المعلوم أنّ استعمال اسم الوحي مقتصرٌ في القرآن على ما كان (إلهاماً وقذفاً في النفس أو ما كان بواسطة الملَكْ)(٢). على أنه لم يرد في القرآن الكريم بيان كيفية نزول الإنجيل على عيسى عليه السلام ككتاب إلهي أو كيفية الإيحاء به إليه بشكلٍ واضحٍ أو تفصيلي(٣).

المطلب الثاني

الهدى

والهدى له معنيان: الإرشاد والبيان(٤)، وقد كانت الغاية العظمى والهدف الأسمى من إنزال الكتب الإلهية هي الدلالة إلى الحق وبيانه والرشاد إلى الصراط المستقيم صراط الله الذي لا فلاح ولا سعادة لمن لا يسلكه.

فكان الهدى من أبرز ما اتصف به القرآن الكريم والإنجيل الإلهي قال سبحانه وتعالى في جانب القرآن الكريم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٥٧] وقال: ﴿ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾ [الأنعام: ١٥٧] وقد جعل سبحانه وتعالى الهدى من أهم ملامح عظمة وأهمية هذا الكتاب الكريم فهو نعمة عظيمة لكونه هدىً بذاته وباشتماله على

---

(١) انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ج٤ ص٤٥٩. ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ص٣٦٦. رضا، تفسير المنار ج٧ ص٢٠٢.

(٢) انظر: الأعرجي، الوحي ودلالاته في القرآن الكريم والفكر الإسلامي، ص٩٩.

(٣) انظر: الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج٥ ص٣٤٦.

(٤) ابن جزّي، التسهيل لعلوم التنزيل، ج١ ص٣٧.

الهدى في كافة الاتجاهات والأُطر ولكافة مستويات البشر، قال تعالى في فاتحة الكتاب: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة: ٦].

والهداية إلى الصراط المستقيم من أعظم حاجات الإنسان وأعزّ مطالبه وهي التي بُعث لها الأنبياء وأنزل لها الصّحُف وخُتمت بأعظم الكتب رحمة للعالمين[١] هادياً من الضلالات والبدع مقيماً للأدلة والحجج مرشداً إلى سبيل الحق في الاعتقاد وفي العمل.

أما بالنسبة لهدى الإنجيل الإلهي قال تعالى: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ٣-٤] وقد اعتبر العلماء أن الإنجيل كتاب هدى كونه اشتمل على الهدى وهو الدلالة الحق على تنزيه الله تعالى ووحدانيته وأنه مستحقٌ للعبادة وحده وأنه ليس بوالد ولا ولد وأن عيسى هو ابن مريم وحدها ونسبه إليها وحدها وليس له لله تعالى نسبةً: إلا أنّه خلقه بكلمة كن فهو بهذا المعنى كلمة الله تعالى وقد ألقاها إلى مريم وروح القدُس وهو جبريل الذي بلغها وفيه بيان أنّ عيسى عليه السلام رسولُ الله تعالى وقد خلت من قبله الرُّسل[٢].

وقد كان من بدائع التعبير القرآني في قوله تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة: ٤٦] إعادة ذكر الهدى إلى جانب الإنجيل فذكر تارةً أن الإنجيل فيه هدى والمرة الثانية وصف أنه بذاته هدى، وقد تفاوت بيان العلماء لهذا السر في التكرار فاعتبر البقاعي: أنّ الإنجيل فيه من المُحكم الذي يفهمه كل أحد ويهتدي به كل أحد سمعه إلى صراط مستقيم، والمتشابه الذي لا يفهمه إلا أفرادٌ من خُلّص العباد ولا يقف بعد فهمه عند حدوده إلا المتقين[٣] فظاهر قوله تعالى: ﴿ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ هو المتشابه الذي يحتاج إلى استنباط

---

(١) انظر: أبو الحسن علي الندوي، دراسات قرآنية، إعداد: سيّد عبد الماجد الغوري، ط١ دار ابن كثير دمشق ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، ص١٢٩.

(٢) أبو زهرة، زهرة التفاسير، ج٤ ص٢٢٢٠.

(٣) البقاعي، نظم الدرر، ج٢ ص٤٦٩.

وبيان العلماء لمعانيه بدون غلوّ ولا تجاوز.

ومن ناحية أخرى يرى الفخر الرازي أن الإنجيل الإلهي فيه هدى أي فيه بشارة بالنبي محمد ﷺ وبكتابه وأنّ اشتماله على البشارة بنبوّته عليه الصلاة والسلام وبالقرآن الكريم قد حوى لذلك على أبرز وأهمّ سبب لاهتداء الناس للإيمان به وتصديقه واستمرار هداهم وهذا يؤدي إلى اعتبار الإنجيل مصدر الرشاد والدلالة ومرجعيته[١].

أما الطباطبائي في الميزان فقد أرجع الهدى في الإنجيل إلى نوعين من المعارف: المعارف الواجب على الجميع الوصول لها وتطبيقها وتدخل في باب الاعتقادات (كالتوحيد والمعاد) ممكن اعتبار أنها تمثّل الحد الأدنى من الهداية.

أما الهدى المذكور ثانياً: يمثّل المعارف مما كان زائداً على الواجب الذي يحرص عليه من أراد الزيادة والتقوى في الدين (كالمواعظ والنصائح)[٢].

وعلى الرغم من هذا التباين الشديد في التميز بين الهديين في الاية الكريمة فبالإمكان القول: إنّ الإنجيل كونه هدى فقد اشتمل على كلّ ما ينقذ بني إسرائيل أو من نزل فيهم من الضلال والانحراف في العقائد والمسلكيات ويعيدهم إلى جادة الحق والصواب سواءً بالدعوة إلى توحيد الله وتنزيهه وتعظيمه أو مما فيه من بشارةٍ وتصديقٍ بمن بعده من رسولٍ وكتاب أو ما احتواه من أوامرٍ ونواهٍ ومواعظٍ تقرّبهم إلى خالقهم وتزيد وتقوّي صلتهم به سبحانه وتعالى.

المطلب الثالث

النُّور

النُّور: هو الجوهر المضيء.. والنور من جنسٍ واحدٍ لا يتعدد[٣] والنُّور في القرآن على وجهين: ١-الإيمان: وهو يقابل ظلمات: الشرك. ٢- النهار وهو يقابل

(١) انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ج٦ ص٩.

(٢) انظر: الطباطبائي، الميزان، ج٥ ص٣٤٧.

(٣) الكفوي، الكليات، ص٩٠٩.

ظلمات: الليل[1].

ونور القرآن ونور الإنجيل كلاهما نورٌ إلهي نورٌ معقولٌ بعين البصيرة نورٌ مصدره الله الذي اتّصف بالنور: ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [النور: ٣٥]. نورٌ يجلي الظلام ويضيء الحوالك من السبل فيهدي إلى الصراط المستقيم، صراط الله الذي أفاض به نعمةً عظيمة على كلّ من اختاره سبيله وطريقه ولم يكن من الضالين الذين ضلّوا وانحرفوا في مهاوي الغلوّ والطغيان..!

قال سبحانه في نور القرآن: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ ﴾ [الشورى: ٥٢] وقال: ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

ومن دلالات ومعاني إطلاق النور على القرآن الكريم ووصفه به:

١- أنّه بيّن لهم المحجّة الواضحة والسبل الهادية إلى ما فيه النجاة من عذاب الله تعالى وأليم عقابه إنّ سلكوها واستناروا بضوئها[2].

٢- كان سبباً لوقوع نور الإيمان في القلب ولأنه يتبيّن به الأحكام كما يتبين بالنور الأعيان[3] ويُدركُ به غوامض الحلال والحرام[4].

٣- كشف ظلمات الشرك وكل ما يؤدي إلى ذلك، وكشف ظلمات الشبه والشكّ وأبان ما كان خافياً عن الناس في ذلك.

٤- أنّه ظاهر الإعجاز في بيانه ومضامينه[5].

---

(١) ابن سلام، التصاريف، ص٢٠٩.
(٢) الطبري، جامع البيان، ج٤ ص٥٢.
(٣) القوجوي، حاشية محيي الدين شيخ زاده، ج٣ ص٤٥٧.
(٤) الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج١ ص٣٥٠.
(٥) انظر: الزمخشري، الكشاف، ج١ ص٦٥١.

وكلٌ ذلك يصبُّ في بوتقةٍ واحدة كالمنارة التي تكشف الظلمات وتنير السُّبل فالقرآن الكريم نورٌ بذاته في إعجازه وفصاحته وبلاغته نورٌ بكل ما يشتمل عليه من نواحٍ فكرية عقديّة نورٌ بما يحوي من شعائر وشرائع وأخلاق نورٌ وبركة لكل من يقرؤه ويتدبّره ويجعله منهجاً فكرياً ومنهجاً عملياً في حياته نورٌ للجماعات والأمم ينظم حياتهم ويُراعي مصالحهم وشؤونهم نورٌ في الدنيا يُترجم إلى نورٍ في الاخرة تُرى آثاره نعيم وخلودٌ وجنة عدن.

أما بالنسبة [النور الإنجيل الإلهي]: فقد قال تعالى عن عيسى عليه السلام: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ [المائدة: ٤٦] فقوله نور: أي حُسن بيان كاشف للمشكلات لا يدع بذلك الصراط لبساً[١]؛ بمعنى أنه مشتمل على نور بما احتوى عليه من الدلائل والأمثال والفضائل والاداب وغير ذلك مما يُبصر به طالب الحق الطريق التي توصله إلى الحق من أقصر السبل وأيسرها[٢].

والإنجيل الإلهي مرشد موجِّهٍ هادٍ، وهذه الخاصية - كما أشار أبو زهرة - مُثبتة لأمر يتعلق بالمستقبل: وهو أنه يضيء وينير لتمييز الحق من الباطل ويبّن ما جاءت به رسالة المسيح من دعوة البشر إلى الخير وإلى صراط مستقيم[٣].

وأضاف - رحمه الله - : بأن الإنجيل وبإضافة هذه الخاصيّة - أي النور- إلى سابقتها - أي الهدى - يكون مشتملاً على أمرين:

١- تقرير للحقيقة الثابتة الخالدة وهي وحدانية الله تعالى في الإنشاء والتكوين والذات والعبادة.

٢- أنه مرشد إلى مكارم الأخلاق ومنير العقول لإدراك المستقبل ويدخل في ذلك بشارته بالنبي[٤] ﷺ كما قال تعالى: ﴿ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾ [الصف: ٦].

---

(١) البقاعي، نظم الدرر، ج٢ ص٤٦٩.

(٢) انظر: رضا، تفسير المنار، ج٦ ص٣٣٢.

(٣) أبو زهرة، زهرة التفاسير، ج٤ ص٢٢٢٠.

(٤) أبو زهرة، زهرة التفاسير، ج٤ ص٢٢٢٠.

وكأني بالإمام أبي زهرة قد جمع في حديثه كل ما عمي عنه أهل الإنجيل في الماضي وأغمضوا أعينهم عن أن يروا نوره من توحيد الله تعالى وتنزيهه والدعوة إلى محاسن الأخلاق والبشارة بخاتم الرسل عليه الصلاة والسلام فحرمهم سبحانه من هداه ونوره وزادهم عمىً على عماهم.

فلا حجة ولا عذر لمن لم يفسح المجال لعقله وقلبه وحياته من أن يصل إليها النور والضياء سواءً في الإنجيل أو في ما سواه من الكتب الإلهية فهي لم تأت إلا من أجل أن تُعطي الإنسان النور لعقله وقلبه وإحساسه وحياته فكراً وعقيدة وسلوكاً عملياً، تضيء له ظلمات الطريق ولا تبقيه متخبطاً في الشكّ والشبهة والضلال فلا مشكلة إلا ولها حلٌ فيها ولا شبهة إلا ولها مزيلٌ لديها[١]. ولا غرو في ذلك فنور الله في هذه الكتب الإلهية هو نور الوحي نورٌ دائمٌ إلى يوم الدين لا يأبه ولا يتأثر بمن أعرض عنه، ومتى فقد الإنسان نور الوحي - الذي لا يتعدّد أصله- تعدّدت عليه الظلمات وتداعت من كل حدبٍ وصوب حتى لا يُحصى لها عدداً، ويواجه على كل شعبٍ من شعاب الحياة وعلى كل دربٍ من دروبها ظلاماً فوق ظلام[٢]، وهذا ما لمسناه ونلمسه في كل أمةٍ أعرضت عن نور الوحي نور الله الذي ارتضاه لخلقه وعبيده.

المطلب الرابع

الموعظة

الموعظة: هي الوعظ، والعظة: التذكير بالعواقب: سواءً أكان بالزجر والتحذير والتخويف والترهيب أم بالاستمالة والترغيب وتليين القلوب وترقيقها[٣] والوعظ: أي الوصية بالحق والخير واجتناب الباطل والشر بأساليب الترغيب والترهيب التي يرقّ لها

---

(١) انظر: فضل الله، من وحي القرآن، ج٨ ص١٩٢.

(٢) الندوي، دراسات قرآنية، ص٧٥.

(٣) انظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج٣ ص٢٥١.

القلب فتبعث على الفعل والترك[١].

وقد كانت الموعظة وما زالت من طرق إصلاح النفوس البشرية وقد اعتبرها القرآن الكريم واحدةٌ من أنجع السّبل للدعوةِ والإرشاد قال تعالى مخاطباً نبيه ﷺ: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾ [النحل: ١٢٥] وقد قيّدها سبحانه بالحسنة ليراعي الداعي حالة المدعو لأن الموعظة في الغالب ردعٌ وزجر عما يخلّ ويُسيء إلى محاسن الاداب فلربما أدى ذلك إلى غلظةٍ من الواعظ فيحصل انكسار في نفس الموعوظ، فكان الإرشاد لتوخيّ أن تكون الموعظة حسنة لتحقق غرضها وغايتها وهي إقبال القلوب على الدعوة وتفتح الأفئدة للهداية[٢].

وكأن القرآن يقدّم أسلوب الترغيب والاستمالة وتليين القلوب وترقيقها على الترهيب والتخويف.. وهكذا كان القرآن الكريم موعظة ربانية حكيمة هدفها الأوّل والأخير هو الهداية هو التعريف بالله ووحدانيته وإخلاص الطاعة والعبودية له وليس الهدف الترهيب والتخويف وإفزاع النفوس. يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧] وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [النور: ٣٤].

ويمكن الاستنباط من هذه الآيات الكريمة أنّ الموعظة في القرآن الكريم وكلُّ ما يؤدي إلى إصلاح الظاهر وإصلاح الباطن والنفوس وما يمكن أن يحصل عليه الإنسان ويتعظ به قد يكون في آيةٍ واحدة أو قد تكون الموعظة في جملةٍ منه أو حتى في كلمةٍ أو كلمتين كما يكثر ذلك في فواصل الآيات، وأشار لذلك البقاعي في قوله عن القرآن الكريم: «هو موعظةٌ بما فيه من الأحكام والفواصل المُنبئة عن العلل المذكّرة بما يقرّب من الله زُلفى وينوّر القلب ويوجب الحب والأُلفة ويُذهب وحر[٣] الصدر»[٤].

---

(١) رضا، تفسير المنار، ج١١ ص٣٤٤.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٤ ص٣٢٩.

(٣) الوحر: الغيظ والحقد. انظر: ابن منظور، لسان العرب، ج٥ ص٢٨٠.

(٤) البقاعي، نظم الدرر، ج٥ ص٢٦٣.

فالعبرة والعظة في القرآن الكريم في كلِّ صغيرةٍ وكبيرة وقد تكون ظاهرة واضحة للجميع وقد تكون لأُولي الألباب بحاجة إلى تدبّرٍ واستنباطٍ وتمحيص.

ولا شكّ أنّ الاشتراك في وصف الموعظة بين القرآن الكريم والإنجيل الإلهي يؤدي إلى الاشتراك في معاني ودلالات وإيحاءات هذا الوصف مع الإنجيل الإلهي أيضاً. قال تعالى واصفاً الإنجيل بالموعظة: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة: ٤٦] وقد وُصف الإنجيل بأنّه موعظة: لاشتماله على النصائح والمواعظ والزواجر البليغة المتأكدة[1].

وهو موعظة يليّن ويرقّق القلوب ويصفّي النفوس ويقوّم السلوك يتلاءم مع طبيعة مَنْ نزل فيهم من بني إسرائيل وسيطرة المادة والشهوة على عقولهم وقلوبهم، نهلَ منه المتّقون الذين امتلأت نفوسهم بالخوف من الله تعالى فقرّبهم منه وبعّدهم عن الشيطان ووجّههم إلى الحياة الروحية والتهذيب النفسي من غير تركٍ لحظوظ الدنيا المباحة التي لا تستغرق النفس ولا تؤدي إلى الغلوّ والطغيان[2].

والإنجيل موعظة أتى مصدّقاً للتوراة داعياً إلى إحياء أحكامها وأنّ ما فيها من أوامرٍ ونواهٍ ما زالت نافذة باقية في شريعته - إلا بعض ما عدّله منها - ولا شكّ أنّ ذلك بحاجةٍ إلى مزيدٍ من التذكير والتحذير والترهيب من مغبةِ عدم الاستجابة والقبول، وأيضاً إلى الكثير من الترغيب وتليين القلوب وترقيقها واستمالتها إلى المداومة والاستمرار في التمسُّك بأحكام وشرائع التوراة التي لن تندثر بمجيء هذا الكتاب الجليل - والله تعالى أعلم-.

---

(١) الرازي، مفاتيح الغيب، ج٦ ص٩.

(٢) انظر: أبو زهرة، زهرة التفاسير، ج٤ ص٢٢٢٠. من وحي القرآن، ج٨ ص١٩٢.

المطلب الخامس

الحكمة

الحكمة: إصابة الحق بالعلم والعقل، والحكمة من الله تعالى: معرفة الأشياء وإيجادها على غاية الإحكام ومن الإنسان: معرفة الموجودات وفعل الخيرات[١] والحكمة: اسمٌ للقوة التي منها ينشأ القضاء بالحق[٢] كما قال تعالى في نعت داود عليه السلام ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٠].

وإطلاق الحكمة على القرآن الكريم والإنجيل الإلهي واعتبار هذه الكتب الإلهية مصدراً ومنبعاً للحكمة ورد في العديد من الايات الكريمة قال سبحانه واصفاً القرآن: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ [يونس: ١] وقال: ﴿يس ۝ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ۝﴾ [يس: ١-٢] وقال تعالى عن القرآن: ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ [القمر: ٥].

والقرآن الكريم حكيم لفظاً ومضموناً ومقصداً وتتجلّى حكمة القرآن في حسن اختيار ألفاظه وعباراته وجمله، وهو حكيم من حيث تناسب الصيغ اللفظية مع المحتوى المعنوي وهو حكيم من حيث التناسب والتناسق بين السور والايات وموقع كلِّ آيةٍ في السورة وهو حكيم في مضمونه ومعانيه وتشريعاته ومناهجه التربوية الشاملة التي تتدرّج من أعماق الذات البشرية إلى تنظيم العلاقات الإنسانية للوصول به بحكمة إلى السعادة والفلاح في الدار الاخرة[٣].

والحقيقة أننا مهما تكلمنا عن حكمة القرآن حتماً لن نوفّيها حقّها فحكمته نابعة من علم الله تعالى بكل شيء ونابعة من تسميته سبحانه الحكيم فحكمة القرآن لا ريب من آثار حكمة الله تعالى وإرادته.

---

(١) الراغب الأصفهاني، معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص١٤٢.

(٢) الفرّاهي، مفردات القرآن، ص١٧٨.

(٣) انظر: حمدان، حكمة القرآن والحضارة، ص٥ و ٦٦.

وأرى أنها صفةٌ متجددة عملية يلمس الإنسان آثارها واقعاً ومستقبلاً فمثلاً حينما بيّن سبحانه في كتابهِ الكريم علل الأحكام والشرائع وأسرارها ومنافعها والباعث على العمل فيها فإنّ هذا -ولا شك- يُنير للإنسان المؤمن دروب الحكمة والمعرفة ويوسّع له الأُفق لكنه لا يوقن يقيناً كاملاً بذلك إلا إذا تلمّس آثاره واقعاً عملياً حركياً واكتشف بنفسه الحكم الجليلة من هذا التشريع، ولا شك أنّ هذا يصبّ في بوتقة المهام العُظمى والمقاصد العليا للقرآن الحكيم وهي هداية البشرية وإخراجها من الظلمات إلى النور، يقول الدكتور صلاح الخالدي: «وصف الله تعالى كتابه بالحكمة - هو وصف عجيب- يدلّ دلالة واضحة على مهمّته العملية الحركية والحكمة من صفات العقلاء ولهذا القرآن صفات العقلاء إنه عليٌّ حكيم يربّي بحكمة ويتصرّف بحكمة ويقود الأمة بحكمة ويؤدي رسالته بحكمة بهذه الحكمة القرآنية عمل القرآن ما عمل في حياةِ الصحابة، بهذه المهمة العملية الحركية أخرج الصحابة إخراجاً من العدم إلى القيادة ومن الموت إلى الحياة»[1] وما زال وسيبقى القرآن إلى يوم الدين منهج حياة ومنهج حكمة.

وقد اشترك الإنجيل الإلهي مع القرآن الحكيم في وصف الحكمة قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ [الزخرف: ٦٣] وقوله: ﴿ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ﴾: أي الإنجيل والشرائع[2].

والإنجيل حكمة لغلبة اشتماله على الهدى والنور والدلائل والمواعظ كما قال تعالى فيه: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة: ٤٦] فكل ما يؤدي إلى عبادة الله وطاعته والالتزام بصراطه المستقيم واجتناب معاصيه وكل ما يؤدي إلى تقويم سلوك الإنسان باطناً وظاهراً بالإمكان أن يدخل تحت مفهوم الحكمة للإنجيل[3] وقريب من ذلك ما نحاه الرازي

---

(١) الخالدي، مفاتيح للتعامل مع القرآن، ص٧٧.

(٢) الزمخشري، الكشاف، ج٤ ص٢٦٥.

(٣) انظر: الفراهي، مفردات القرآن، ص١٧٨. الميداني، معارج التفكّر، ج٣ ص٣٥٩.

=

في بيانه لمعنى الحكمة في قوله تعالى: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ﴾ وأنّها معرفة ذات الله وصفاته وأفعاله[١].

وربما اختار الرازي -رحمه الله- أعظم وأبرز ما ضلّ بسببه أهل الإنجيل في الماضي وعدم الحكمة في تعاملهم مع نصوص الإنجيل وكيفية تأويلها وبيانها، وأيضاً فإن معرفة الله تعالى بذاته وصفاته وأفعاله هي أُمّ المعارف وكل المعارف الفرعية لا بدّ أن توصل إلى هذه المعرفة إذا تعامل الإنسان معها بحكمة في كل جوانبها وحيثياتها، ومعرفة الله تعالى هي الغاية والهدف الأسمى من إرسال الرسل وإنزال الكتب الإلهية ومنها الإنجيل الإلهي.

وأرى أنّ قول عيسى عليه السلام: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ﴾ وتخصيصه لهذه الصفة بالذات للتعبير بها عن الإنجيل لا ينمّ إلا عن حكمةٍ منه عليه السلام - ولا غرو في ذلك فإنّ عيسى عليه السلام هو أكثر الأنبياء وصفاً بالحكمة-[٢] وكأنه عليه السلام بعد ذكر البيّنات والدلائل الواضحات يقول لهم: إنّ الحكمة وحدها هي التي توصلكم إلى الهداية والصواب والحقّ، فالدلالات واضحة والنصوص واضحة وكلّ ما أدعوكم إليه من توحيد الله وعبادته وأحقيّته وحده بالطاعة والعبادة بيّناً واضحاً لكنّكم لا تحتاجون إلا إلى الحكمة واختيار الصواب بتحكيم الفِطَر والعقول السليمة الصافية.

المطلب السادس

البيّنات

والبينات جمع بيّنة والبيّنة كما يقول الحرّالي[٣]: «ما ظهر برهانه في الطبع والعلم

---

(١) الرازي مفاتيح الغيب ج١٤ ص٢٢٣.

(٢) كما قال تعالى عنه: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ﴾ [المائدة: ١١٠] انظر: حمدان حكمة القرآن والحضارة ص١٢٤.

(٣) هو الإمام المفسّر العلاّمة المتفنن أبو حسن علي بن أحمد بن الحسن التجيبي الأندلسي الحرّالي، عالم في تفسير القرآن، توفي سنة ٦٣٧هـ. شمس الدين محمد الذهبي (ت١٣٧٤هـ) سير أعلام النبلاء تحقيق: شعيب الأرناؤوط ط١ مؤسسة الرسالة بيروت ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، ج٢٣ ص٤٧.

والعقل بحيث لا مندوحة عن شهود وجوده[١]» والبينة: هي الحجة والدليل[٢].

وقد اشترك القرآن الكريم مع الإنجيل الإلهي في وصف البيّنات كما قال تعالى في جانب القرآن الكريم: ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٠٩] يقول البقاعي: البيّنات: «أي بهذا الكتاب الذي لا ريب فيه[٣]». والقرآن الكريم بيّنةٌ في نصوصه وآياته حيث هي نصوصٌ لا تحتمل غير مدلولاتها، وهي بذلك دلائلُ من شأنها الصدّ عن الاختلاف في مقاصد الشريعة[٤].

والملاحظ على الايات التي تحوي لفظ البينات أنها في سياق الذم للتنازع والاختلاف في ما جاء من عند الله تعالى ومنها الكتب السماوية وما فيها من حقّ كما قال تعالى في موضع آخر: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وقد أُمر النبي ﷺ أن يخبر كفار قريش بأنه نُهي عن عبادة ما يعبدون من دون الله من وثنٍ أو صنم لما جاءته البيّنات وهي نصوص وآيات القرآن الكريم قال سبحانه وتعالى: ﴿۞ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى﴾ [غافر: ٦٦] وقوله ﴿لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾: أي لما جاءني الايات الواضحات من عند ربي وذلك آياتُ كتاب الله الذي أنزله[٥]، وقد كانت هذه الايات التنزيلية - التي تنهى عن عبادة غير الله - مؤيِّدة لأدلة العقل ومفسّرة للايات التي في الأكوان والأنفس حيث كل ذلك يدلّل على وحدانية الله تعالى واستحقاقه العبادة ونبذ ما لا يضر ولا ينفع من وثنٍ أو صنم[٦].

---

(١) البقاعي، نظم الدرر، ج٢ ص١.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢ ص٣١٠.

(٣) البقاعي، نظم الدرر، ج١ ص٣٨٨.

(٤) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢ ص٣١٠.

(٥) الطبري، جامع البيان، ج١١ ص٧٥.

(٦) انظر: المراغي، تفسير المراغي، ج٢٤ ص٩١.

وجملة القول في بيّنات القرآن أنها من شدة الوضوح بمكان بحيث لا تدع مجالاً للحيرة والشك أن ينفذ إلى القلوب والعقول، فهو كاشفٌ لكل مُشكل موضّح لكل مُلبس مما كان ومما هو كائنٌ من الأحكام والدلائل في الأصول والفروع والنكت والإشارات والمعارف[١].

ولما كانت البيّنات هي الدلالات والبراهين والحجج العقلية أو النقلية فلا غرابة أن يُطلق سبحانه وتعالى على الإنجيل الإلهي وصف البيّنات فالإنجيل الإلهي كان من الوسائل التي كان عيسى عليه السلام يبيّن به الحق لبني إسرائيل وكان من جانب آخر دليلاً على نبوّته ورسالته قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [البقرة:٨٧].

وفي البينات - كما يقول البيضاوي - وجوه:

أولها: المراد المعجزات الواضحات من خلق الطير وإحياء الموتى ونحوهما من إبراء الأكمه والأبرص والإخبار بالمغيبات.

ثانياً: المراد الإنجيل.

ثالثاً: وهو الأقوى: أن الكل يدخلُ فيها لأن المعجز يبيّن صحة نبوّته كما أنّ الإنجيل يبيّن كيفية شريعته فلا وجه لتخصيصها بالبعض[٢].

وفي سورة الزخرف قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ [الزخرف:٦٣] قال قتادة[٣]: «البينات هنا الإنجيل[٤]».

---

(١) البقاعي، نظم الدرر، ج٥ ص٤٠٦.

(٢) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج١ ص٣٥٧.

(٣) هو قتادة بن دعامة بن عزيز أبو الخطاب السدوسي البصري (ت ١١٨هـ/ ٧٣٦م) مفسّر حافظ ضرير أكمه. انظر: الزركلي، الأعلام، ج٥ ص١٨٩. وانظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٥ ص ٢٦٩.

(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج٨ ص١٠٨.

وفي موضع آخر قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ ﴾ [البقرة: ٢٥٣] وفي البيّنات يقول الطبري: «إنّ الله آتاه الحجج والأدلة على نبوّته: من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى وما أشبه ذلك مع الإنجيل الذي أنزله إليه وبيّن فيه ما فُرض عليه»[١].

والملاحظ من أقوال العلماء: أنهم اعتبروا كل ما يتبيّن به الحق ويدلّل على طريق الصواب ويجلّي الحقائق ويمنع من التنازع والاختلاف فهو بيّنةٌ أو بيّنات لذلك فإنّهم جمعوا معجزات عيسى عليه السلام الماديّة التي هي أكبر برهان على نبوّته وصدق رسالتهِ مع الإنجيل الذي هو نصوصٌ إلهية، وكلّ ما فيهِ من حكمةٍ وإصابة الحق والملائمة مع الفِطر السليمة وموافقته لما جاء في الرسالات السابقة فإنّه ولا ريب يدلّل أيضاً على صدق مصدره وصدق المبعوث به رحمة لبني إسرائيل.

وكما أُطلق البينات على الإنجيل كبيّنةٍ ودلالة أيضاً أطلق على ما احتوى عليه من دلالات:

فقد تُطلق البينات على ما في الإنجيل من البشارة بمحمد ﷺ وصفته[٢]، وقد تطلق البينات على آيات الإنجيل أو الشرائع الواضحات[٣]، أو المراد بها ما دعا إليه عيسى عليه السلام من أحكام التوراة بشكل خاص[٤].

ولا شك أنّ كلاً من الإنجيل الإلهي والقرآن الكريم حججٌ ودلائل بيّنة واضحة بآياتها ونصوصها وشرائعها وكل ما يدلل على الحق فيها من منطلق الرسالة التي أُلقيت على عاتقها والوظيفة المناطة بكل كتاب، وقد فاق القرآن الكريم الإنجيل الإلهي بإعجازه الذي هو أعظم بيّنة ودلالة واستمرار كونه بيّنة إلى يوم الدين.

---

(١) الطبري، جامع البيان، ج٣ ص٤.

(٢) الطبري، جامع البيان، ج٢ ص٧٢.

(٣) أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج٦ ص٤١.

(٤) انظر: رضا، تفسير المنار، ج١ ص٣٧٧.

المطلب السابع

الرُّوح

يقول الراغب الأصفهاني: الرَّوْح والرُوح واحد وجعل الرُّوح اسماً للنفس وذلك لكون النفس بعض الروح، كتسمية النوع باسم الجنس وجعل الروح اسماً للجزء الذي به تحصل الحياة والتّحرك واستجلاب المنافع واستدفاع المضار وهو المذكور[1] في قوله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥] وحقيقة الروح وماهيّتها ومفهومها من أمر الله تعالى لا يعلم حقيقتها إلا هو سبحانه وتعالى.

وإطلاق الرُّوح على القرآن الكريم ووصفه به كما وُصف به الإنجيل الإلهي لابدّ أنّ له دلالاتٍ ومعانٍ لا يجليها إلا كلامه سبحانه قال تعالى في روح القرآن﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ ﴾ [الشورى: ٥٢] يقول الزركشي في البرهان: القرآن يملأ القلوب بِشراً ويبعث القرائح عبيراً ونشراً، يُحيي القلوب بأوراده ولهذا سمّاه روحاً لأنه يؤدي إلى حياة الأبد ولولا الرّوح لمات الجسد فجعل هذا الروح سبباً للاقتدار وعلماً على الاعتبار[2].

والقرآن الكريم روحٌ تحيى به القلوبُ الميّتة كما تحيى الأرض بوابل المطر تحيى به القلوب المجدبة فتستنير بعد ظلامها وتستقيم بعد نكستها وزيغها فكما أنّ الجسد لا حياة له ولا بقاء إلا بالروح فكذا القلب والنفس والبدن لا حياة طيّبة ولا حياة سعيدة إلا بالإيمان بالقرآن والعمل به[3]. قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةًۖ ﴾ [النحل: ٩٧].

---

(١) الراغب، الأصفهاني، معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص٢٣١.

(٢) الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج١ ص٣٥٠.

(٣) صالح بن إبراهيم البليهي، الهدى والبيان في أسماء القرآن، ط١ (دار النشر غير معروفة) ١٣٩٧هـ، ص٢٧٥.

ولا شك أنّ لروحانية القرآن الربّانية تأثيراً عجيباً على النفوس الإنسانية واللذة القلبية والانشراح في الصدور التي يُحدثها الاستماع والتدبّر لهذا الكتاب الكريم ولا يخفى في هذه المناسبة أن نذكر الانقلاب الاجتماعي الهائل الذي أحدثه القرآن الكريم في الأمة الأميّة الجاهلية وما آلت إليه إلى أمةٍ ذات علم وحكمة وقيادة للعالم.

وقد أُطلق الروح على الوحي الإلهي وهو كلام الله تعالى في مثل قوله تعالى: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾ [النحل: ٢] يقول الفخر الرازي: «القرآن والوحي به تكمُل المعارف الإلهية والمكاشفات الربانية وهذه المعارف بها يشرق العقل ويصفو ويكمل، والعقل به يكمُل جوهر الروح، والروح به يكمل حال الجسد وعند هذا يظهر أن الروح الأصلي والحقيقي هو الوحي والقرآن؛ لأنه به يحصل الخلاص من رقدة الجهالة ونوم الغفلة وبه يحصل الانتقال من حضيض البهيمة إلى أوج الملكيّة»[(١)].

وإذا كان الوحي الإلهي هو الروح الذي يُعطي للحياة معناها في قلب الإنسان وعقله وواقعه فلا غرابة أن يوصف الإنجيل الإلهي أيضاً بالروح لا سيّما وأنّ عيسى عليه السلام نفسه قد وصف بأنّه كلمة الله وروحٍ منه قال تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَيَّدْنَـٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ [البقرة: ٨٧] يقول البيضاوي في قوله سبحانه ﴿ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾[(٢)]: «أراد به جبريل أو روح عيسى وصفها به لطهارته من مس الشيطان أو لكرامته على الله تعالى ولذلك أضافها إلى نفسه تعالى أو لأنه لم تضمّه الأصلاب ولا الأرحام الطوامث . . . أو الإنجيل أو اسم الله الأعظم الذي كان يُحيي به الموتى»[(٣)].

وسمي الإنجيل بالروح لأنه يحيى به القلب كما تحيى الأجساد بالأرواح[(٤)] يقول

---

(١) الرازي، مفاتيح الغيب، ج١٠ ص٢٢٠.

(٢) والجمهور على أن المراد بروح القدس: «الملك المسمى جبريل الذي ينزل على الأنبياء ومنه يستمدون الشرائع عن الله تعالى» انظر: رضا، تفسير المنار، ج١ ص٣٧٧ وانظر: ما أخرجه البخاري في صحيحه كتاب التفسير باب تفسير سورة النحل ج٤ ص١٧٣٩.

(٣) البيضاوي، أنوار التنزيل، ج١ ص١٣٥٧.

(٤) القوجوي، حاشية محيي الدين شيخ زاده، ج٢ ص١٤٧.

الخفاجي: «إطلاق الروح على الإنجيل لأنه أُطلق على الوحي الذي به الحياة الأبدية»[(١)] ويقول الرازي: سمي كل واحد من هذه الثلاثة - يعني جبريل والإنجيل وعلى الاسم الأعظم - بالروح على سبيل التشبيه من حيث أنّ الروح كما أنه سببٌ لحياة الرجل فكذلك جبريل سببٌ لحياة القلوب بالعلوم والإنجيل سببٌ لظهور الشرائع وحياتها[(٢)].

ولا شك أن إطلاق الروح على الإنجيل له صلةٌ وعلاقة قويّة بطبيعة عيسى عليه السلام الذي كان ميلاده أمراً خارقاً وطبيعة الرسالة الإلهية التي كان يدعو إليها عليه السلام من تركيزها على الأمور الروحانية وزكاء النفس ومكارم الأخلاق.. فسواءً أُطلق الروح على عيسى عليه السلام أو على الإنجيل فالمراد من الكل سواء[(٣)].

وبناءً على ما سبق يمكن أن نستنبط بعض الدلالات والمعاني:

١- إن الإنجيل الإلهي عندما أتى يدعو إلى إحياء أحكام التوراة والعمل بما فيها من عقائد وشرائع أوحى ذلك أن أحكام التوراة وشرائعها كانت مُهملةً مهجورة غير مكترث بها وكأنّها كانت في سُبات وبالدعوة إلى إحيائها كأنّ الحياة والروح انبعثت فيها من جديد.

٢- كان الإنجيل روحاً من باب العمل والاستجابة لكلّ ما دعا إليه من حِكم ومواعظ ودلائل وأحكام تسوق إلى الحياة الحقيقية التي يرتضيها سبحانه في الدنيا وما فيها من حياة الاطمئنان والسعادة، وفي الاخرة وما فيها من الحياة والسعادة الأبدية كما قال سبحانه في جانب القرآن الكريم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤].

٣- إن الإنجيل الإلهي أكثر الكتب الإلهية تبشيراً بالنبي محمد ﷺ وبكتابه الكريم

---

(١) الخفاجي، حاشية الشهاب، ج٢ ص٣٢١.

(٢) الرازي، مفاتيح الغيب، ج٢ ص١٧٧.

(٣) انظر: رضا، تفسير المنار، ج١ ص٣٧٧.

ومن هنا قيل سُمي بالبشرى[١] وهذه البشرى قد صدّقها مجيء القرآن الكريم والنبي ﷺ كما جاء فيها، فكأنّ هذه البشرى تحولت من مجرد كلمات مكتوبة إلى واقعٍ حيّ ومستمرٍّ أيضاً إلى يوم الدين.

٤- قد يكون هناك علاقةٌ حميمة بين روح الإنجيل الإلهي وبين عيسى عليه السلام الذي كان خَلقه بكلمة من الله وروحٍ منه تعالى... ولا بدّ أن ذلك سينعكس على رسالته وفحوى دعوته التي اشتهر عنها أنها كانت تركز على الجانب الروحي والروحانيات نظراً لغلظة وطبيعة بني إسرائيل الذين أرسل إليهم والذين يقدّسون الأشياء المادية وربّما لا يؤمنون بالغيب.

ولاشك أنّه مهما تحدّث الإنسان عن الروح أو عن روح القرآن وروح الإنجيل الإلهي بشكل خاص يبقى هناك العديد من الحلقات المفقودة نظراً لاستئثار الروح وماهيّتها وطبيعتها لعلمه وأمره سبحانه وتعالى والله تعالى أعلم.

المطلب الثامن

التصديق

والتصديق: الشهادة بصدق رجلٍ أو كلام أو جعله صادقاً فيما يُتوقع منه[٢] كقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ ﴾ [سبا: ٢٠].

وقد اشترك القرآن الكريم مع الإنجيل الإلهي في أنّ كلاً منهما جاء مصدّقاً لما بين يديه. يقول سبحانه وتعالى عن القرآن الكريم: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ [البقرة: ٨٩] وقال سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ [فاطر: ٣١] ومن معاني كونه مصدّقاً لما بين يديه: أن يكون ناطقاً بتصديق كونها من عند الله وأنّ الرسل الذين

---

(١) انظر: الفراهي، مفردات القرآن، ص٣٤٢.

(٢) انظر: الفراهي، مفردات القرآن، ص٣١١.

جاؤوا بها لم يفتروها من عند أنفسهم[١].

وأيضاً فإن القرآن مصدقاً لما بين يديه من الكتب المتقدمة المتضمنة ذكره ومدحه وأنّه سينزل من عند الله على عبده ورسوله محمد ﷺ فكان نزوله كما أخبرت به، مما زادها صدقاً عند حاملها من ذوي البصائر الذين انقادوا لأمر الله واتبعوا شرائع الله وصدّقوا رسل الله[٢] كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٨]. ويدخل ضمن إطار التصديق مطابقته وموافقته لها في الدعوة إلى أصول العقائد وعلى رأسها الدعوة إلى الإيمان بالله تعالى وحده وتنزيهه والإخلاص في الطاعة والعبادة له وأيضاً موافقته لها في الدعوة إلى أصول الشرائع التي لا تختلف باختلاف الأمم والأمصار وأيضاً في الدعوة إلى مكارم الأخلاق وأصول الإحسان[٣] قال تعالى﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ﴾ [الشورى: ١٣].

وقد نصّ القرآن الكريم على أن أبرز الكتب الإلهية التي تقدّمت على القرآن الكريم هي التوراة والإنجيل والتي شملت الهدى الذي شمله القرآن الكريم من الأصول العقائدية والتشريعية والأخلاقية الذي جاءت كل الملل الإلهية تدعوا إليه قال تعالى: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ۗ﴾ [آل عمران: ٣-٤].

إنّ كون القرآن جاء معدّلاً مخالفاً لبعض أحكام ما سبقه من الكتب السماوية كالتوراة والإنجيل يدخل ضمن إطار التصديق أيضاً ذلك أنّ الاختلاف بين القرآن الكريم وما تقدّمه من كتبٍ إلهية في جزئيات الأحكام وفروعها ليست بمخالفة وإنما هي موافقة وتصديق؛ لأنه قد أقرّ بأنّها حق وصدقٌ في عصرها وأنّ الاختلاف كان

---

(١) رضا، تفسير المنار، ج٦ ص٤١٠.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ص٦٢٦.

(٣) انظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج٢ ص٤.

لأجل اختلاف المصالح والحِكَمْ كما أن جزئيات الأحكام وفروعها ليس من دليل على أبديتها في ذلك العصر وإنما هي مشروعةٌ مطلقاً من غير تعرّض لبقائها وزوالها ومن هنا فإن نسخها ليس بمخالفة[١]، بالإضافة إلى ذلك فإن كون الكتب السابقة كالتوراة والإنجيل قد بشّرت بمجيء القرآن الكريم بعدها مصدقاً ومهيمناً عليها وأنه خاتم هذه الكتب وآخرها فيه دلالةٌ أيضاً على انتهاء الحكم بما فيها من أحكام وشرائع لا تُناسب خاتمية الرسالة وعصرها مع كونها حقاً مصدرها الله تعالى.

أما عن تصديق الإنجيل الإلهي لما بين يديه يقول تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ [المائدة: ٤٦] والظاهر من الاية الكريمة أنّ هناك تصديقان للتوراة: تصديق عيسى عليه السلام للتوراة وتصديق الإنجيل للتوراة ولا تكرار في الاية لاختلاف صاحب الحال ولاختلاف كيفية التصديق ١- فتصديق عيسى التوراة: أمرهُ بإحياء أحكامها ٢- وتصديق الإنجيلُ التوراةَ: اشتماله على ما وافق أحكامها[٢].

فتظافر على تصديق التوراة الكتاب والنبيّ معاً.. وهذا لا محالة يدلّل على شدة الصلة بين الكتابين وكأنهما كتابٌ واحد. يقول محمد أبو زهرة: «تلاقي التصديقين من عيسى ومن الإنجيل ذاته: يفيد إقرار أكثر أحكام التوراة الاجتماعية والقانونية ويفيد أنّ رسالة الرسل متصلةٌ موصولة حتى يختمها محمد رسول الله ﷺ»[٣].

وقد أقرّ عيسى عليه السلام بأن التوراة كتابٌ إلهي منْزلٌ من عند الله تعالى ودعا إلى وجوب الإيمان به والعمل بما فيه إلا ما نسخه منه، وأنّ ما نسخه من أحكام كان حقاً من عند الله تعالى لكن قد انتهى العمل به[٤]. ومن ناحية أخرى جاء الإنجيل مشتملاً

(١) انظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج٣ ص٤٥.
(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٦ ص٢١٩.
(٣) أبو زهرة، زهرة التفاسير، ج٤ ص٢٢٢٠.
(٤) نظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ج٤ ص٣٧٠.

على النص بتصديق التوراة مع تصديق المسيح لها بقوله وعمله أو حاله[١].

وقد حمل بعض العلماء تصديق عيسى عليه السلام للتوراة الإلهية: أن التوراة الإلهية مشتملة على التبشير بمقدمه بدلالة قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦].

فالتوراة قد بشّرت بعيسى عليه السلام ومجيئهُ قد صدّق ما أخبرت به[٢] وأنّها حقٌ من عند الله تعالى وأن عيسى عليه السلام رسولٌ حقٌ وكتابه كتابٌ حقٌ من عنده تعالى.

أما من ناحية التشريع في الإنجيل: فقد كان الإنجيل الإلهي مستقلاً بشرع وهو بنفس الوقت تابعاً لشريعة التوراة داعياً إلى العمل بأحكامها[٣]. قال سبحانه على لسان عيسى: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠].

والمستنبط من الاية الكريمة أن عيسى عليه السلام كان متّبعاً للتوراة غير مخالف لها إلا في القليل ولابدّ أن هذا القليل كان في فروع الشريعة وكونه عليه السلام قد عدّل أو بدّل في بعض أحكام التوراة فهذا لا يتنافى مع التصديق ولا يُعدّ مكذباً لها، يقول البقاعي في الاية الكريمة: «ولما كان الناسخ للشيء بتغيُّر حُكمِهِ قد يكون مكذّباً له إعلم أنه ليس كذلك بل هو مع النسخ للتوراة مصدّق»[٤].

ويرى بعض العلماء أن الإنجيل الإلهي مع كونه أتى مقرّراً ومؤكداً لما في التوراة ومعدلاً على بعض أحكامها.. أتى أيضاً مكمّلاً بمعنى أتى ليكمل الرسالة الإلهية لما قبله ذلك أن الإنجيل الإلهي قد تضمّن مجموعة من الأحكام والشرائع

---

(١) رضا، تفسير المنار، ج٦ ص٣٣٢.

(٢) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ص١٨٦٩.

(٣) انظر: الطباطبائي، الميزان، ج١٣ ص٥٤٥.

(٤) البقاعي، نظم الدرر، ج٢ ص٤٦٨.

الربانية[١] ومن الممكن أن التوراة الإلهية لم تتضمّنها ولم تحتو عليها.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ ﴾ [المائدة: ٤٧] وقال: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [المائدة: ٦٨] وفيها يقول حبنكة: «ففيها خطاب لأهل الكتاب عامةً أن يقيموا التوراة والإنجيل معاً مضافاً إليهما جميع ما أُنزل إليهم من ربّهم ولولا أنّها تكمّل بعضها بعضاً لما أمرهم بإقامتها جميعاً»[٢].

ومن الممكن استنباط بعض الدلالات لاشتراك القرآن الكريم مع الإنجيل الإلهي:

١- المنشأ والأساس فيما تستند عليه الكتب الإلهية كالقرآن الكريم والإنجيل الإلهي في تصديق بعضها وتصديق ما سبقها هو من مُنطلق كونها كتباً إلهية صادرة من مصدر واحد ومن المستحيل أن يكذّب بعضها بعضاً أو يناقض بعضها بعضاً في الأُصول والمبادى في العقيدة والشريعة والأخلاق والأخبار والقصص..

٢- من أبرز المحاور التي استند عليها التصديق: أنّ التوراة والإنجيل بشّرا بالقرآن وبمحمد ﷺ والتوراة قد بشّرت بالإنجيل وبعيسى عليه السلام، ومجيء كلٌّ منهما قد أثبت صدق ما سبقه من كتاب ولا شك أثبت أنّه من عند الله تعالى فكان ذلك زيادةً في يقين واطمئنان قلوب أتباعها ومحفزاً لهم على الإيمان بها جميعها.

٣- لا تناقض ولا تكذيب بين الشرائع المختلفة لكل كتاب والتصديق في ذلك بالإمكان اعتباره يدور حول محورين:

أ- التصديق من باب الحكم؛ أنها أحكامٌ حقّة نزلت من الله تعالى لاعتبارات ومصالح خاصة بكل ملة.

ب- أن الاختلاف فيما بين الشرائع كان في الفروع والجزئيات الدقيقة التي يحكم العقل والمنطق والفطر السليمة بجانب الشرع أنها يستحيل أنْ تبقى ثابتة وذلك

---

(١) انظر: الميداني، العقيدة الإسلامية وأُسسها، ص٤٨٠.

(٢) الميداني، العقيدة الإسلامية وأسسها، ص٤٨٠.

لاختلاف العصور والأحوال والأمم.

٤- وصفُ الله سبحانه الإنجيل بأنه مصدّق كما وصف به القرآن الكريم يوحي بأن الإنجيل مع كونه جاء تابعاً في شريعته للتوراة الإلهية ولكنه سبحانه قد اعتبره بذاته كتاباً ذا شأن عظيم ولا بدّ أن يكون فيه من الأمور المكمّلة المتمّمة لما لم يكتمل مراد الله منه في التوراة فجاء في الإنجيل بتركيز وصورةٍ أعمق وأوضح كالتركيز على الجوانب الروحية مثلاً.

٥- تبين مما سبق وبوضوح: العلاقة الحميمة بين الكتاب والرسول المبعوث به وأنه يشكّل القدوة العظمى والأولى في الالتزام بما جاء في الكتب الإلهية، وعلى عاتقه يقع تبليغها وبيانها للناس ومن ثمّ العمل بما فيه فكراً ومنهجاً وسلوكاً.

المبحث الثاني

ما اشترك به القرآن الكريم مع الإنجيل الإلهي في أصول العقائد:

إنّ الدعوة إلى العقائد وأصولها التي هي قاعدة وأساس الإيمان هو من أبرز المقاصد التي دعا إليها القرآن الكريم والإنجيل الإلهي فكلٌّ من الكتابين الكريمين لم يأليا جهداً في غرس أصول العقائد والدعوة إلى التمسك بها والتحذير الشديد من نبذها أو إهمالها؛ وذلك ليكون الأساس الذي تُبنى عليه الشرائع والأعمال والسلوك وكل ما يؤدي إلى تطبيق منهج الله تعالى في الأرض قوياً متيناً.

وسُنّة الله تعالى التي أرادها بالإنسان في القيام بوظيفته المعهودة على الأرض تحتّم عليه تهيئة كل الوسائل التي تُصلحه وتزكّي نفسه وتهذّب سلوكه وتؤسس لهذه الصلة الفطرية بين الخالق سبحانه وجميع خلقه.

المطلب الأول

الدعوة إلى عبادة الله ووحدانيّته:

إنّ الأصل الأول لدين الله تعالى على ألسنة جميع رسله هو عبادة الله وحده وعدم إشراك بشر أو وثن أو غيره مع عبادته قال تعالى: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾ [النحل: ٢] وقال: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦] فكانت دعوته تعالى لجميع البشر على ألسنة أنبيائهم: بأن اعبدوا الله وحده لا شريك له وأفردوا له الطاعة وأخلصوا له العبادة وابعدوا من الشيطان واحذروا أن يُغويكم ويصدّكم عن سبيل الله فتضلوا[١].

وقد تضمنت الكتب الإلهية التي أنزلها الله سبحانه على من اصطفاهم من رسله دينه تعالى الذي ارتضاه لعباده في جميع الأزمنة ودعا البشرية جمعاء إلى العمل به بجدّ

---

(١) الطبري، جامع البيان، ج٧ ص٥٨٢.

وعزيمة وذلك هو إفراده تعالى بالربوبية وأنه لا ربّ سواه وهو الخالق الرازق المحيي المميت، وهو وحده الذي يجب الاستسلام له بالعبودية وإخلاص الطاعة والخضوع له في كل ما أمر به أو نهى عنه في الكتب الإلهية مما هو مصلحةٌ للبشر وعمادٌ لسعادتهم في الدنيا والآخرة[١].

وقد أجمع الأنبياء جميعهم على توحيد الله تعالى عبادةً واستعانة كما أجمعوا على تنزيهه عما لا يليق بجنابه الأقدس وجلاله الأعلى وتحريم الإلحاد في أسمائه، وأنّ حقّ الله على عباده أن يعظّموه تعظيماً لا يشوبه تفريط وأن يُسلموا وجوههم له وقلوبهم إليه[٢].

وكلّ هذه المعاني والدلالات للتوحيد اشترك في الدعوة إليه كلٌّ من القرآن الكريم والإنجيل الإلهي. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ [النساء: ١٣١] فقد أوصى الله سبحانه أهل القرآن في القرآن الكريم بأن يوحّدوا الله تعالى ويفردوه بالعبادة وأن يطيعوه حقّ طاعته كما أوصى بذلك أهل التوراة وأهل الإنجيل وسائر الأمم المتقدمة في كتبهم الإلهية[٣].

وقال سبحانه وتعالى في سياق الجدال مع كفّار قريش الذين كانوا عاكفين على عبادة الأصنام: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٤]. فطلب سبحانه وتعالى منهم على لسان رسوله ﷺ أن يأتوا بدليلٍ وشاهد من شرائع الكتب المنزلة على من تقدّموا من الأنبياء وهي التوراة والإنجيل على أنّ لله شركاء وأنّ الله أذن لهم أو لأي أُمة سلفت باتخاذ آلهةً معه[٤].

---

(١) انظر: محمد عبده، رسالة التوحيد، علّق عليه: محمد رشيد رضا، بعناية: بسّام عبد الوهاب الجابي، دار ابن حزم، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م، ص٢١٢.

(٢) موسى محمد علي، التوحيد مفتاح دعوة الرسل، الناشر: محمد نجيب الصابوني، (د.ط.) دار النشر غير معروفة (د.ت)، ص٢٣٣.

(٣) انظر: البغوي، معالم التنزيل، ج١ ص٣٨٩.

(٤) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٧ ص٤٧.

فالقرآن الكريم بدعوته إلى توحيده تعالى وإخلاص العبودية له وحده ليس بدعاً من تلك الكتب الإلهية وقد أفاض من التحذير من عبادة غير الله تعالى واتخاذ الشركاء من الأوثان والأصنام أو عبادة أحد من مخلوقات الله والاعتقاد أنها تضرّ أو تنفع أو حتى تشفع لهم عند الله بدون إرادته وبدون إذنه ورضاه قال تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [السجدة: ٤].

وفي الإنجيل الإلهي كانت الدعوة إلى توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة وعدم إشراك أحدٍ من البشر أو الوثن معه سبحانه بالعباده والتعظيم هو الغاية العظمى والهدف الأسمى والقاعدة الأساس في الرسالة التي حملها الإنجيل الإلهي إلى من نزل فيهم من بني إسرائيل. قال تعالى في سياق حديثه عن أهل الكتاب: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥]. فهم أُمروا في التوراة والإنجيل أن يعبدوا الله وحده مخلصين له الطاعة مفردين له العبادة والخضوع، حنفاء أي يؤمنون بالله وحده دون شريك له وهو دين أهل الحق من الأنبياء وصالحي الأمم كملة إبراهيم عليه السلام، وقد أُخذ عليهم العهد في كتبهم باتباع نهجه وهذا الدين هو عين ما جاء به الإسلام ودعا إليه القرآن الكريم(١).

وقال تعالى في موضع آخر: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١] وفي قوله ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ﴾ يقول أبو حيّان الأندلسي: «أي أمروا في التوراة والإنجيل على ألسنة أنبيائهم»(٢). فأنبياءهم موسى وعيسى عليهما السلام- وما بينهما من أنبياء- ما أمروهم إلا بأن يعبدوا إلهاً واحداً عظيم الشأن وهو الله سبحانه، فهو ربُّهم وربّ كل شيء ومليكه وأن يطيعوا أمره تعالى بما شرعه لهم ولا يُطيعوا أمر غيره بخلافه؛ فإنّ ذلك مخلٌّ بعبادته تعالى وجميع الكتب السماوية متفقة على ذلك قاطبة(٣).

---

(١) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٣٠ ص٤٨١.

(٢) أبو حيّان، البحر المحيط في التفسير، ج٥ ص٤٠٥.

(٣) انظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج٣ ص١٤٢.

وقد بيّن سبحانه وتعالى أنّ من أبرز ما دعاهم إليه الإنجيل الإلهي هو الدعوة إلى الإيمان بالله ووحدانيته والإخلاص له وحده بالطاعة والخضوع وذلك هو الإسلام الذي هو دين جميع الأنبياء قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ[1] أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ [المائدة: ١١١] يقول أبو السعود: «ومعنى إيحائه تعالى إليهم أمره تعالى إيّاهم في الإنجيل على لسانه عليه السلام»[2].

وقد أجاب الحواريون بمقتضى وحيه تعالى وأمره: بأنهم منقادون لله تعالى أتم انقياد خاضعون له سامعون مطيعون لكل ما أمرهم به مُنتهون عن كلِّ ما نهى عنه وحذّر منه[3].

وأيضاً نقل سبحانه وتعالى على لسان الحواريين قولهم: ﴿ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٥٢] فقولهم ﴿آمنا بالله﴾: أي آمنا بأنه الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد وأنه خلق الأشياء بإرادته المختارة وبقدرته الفعالة ولم توجد عنه الأشياء وجود المعلول عن العلة والمسبب عن السبب كما كان يدّعي بعض الفلاسفة في عصرهم[4].

وعقيدة التوحيد في الإنجيل الإلهي أنه لا إله معبود بحق إلا الله وحده لا شريك له هي ذاتها التي كان عيسى عليه السلام يعتقد بها وهي ذاتها التي بلغها قومه ودعاهم إلى الاعتقاد بها كما أُوحيَ إليه وكما أُمر من غير زيادةٍ ولا تنقيص. قال تعالى على لسان المسيح ﴿ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [المائدة: ٧٢] وقال تعالى على لسانه ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [الزخرف: ٦٤] فالله سبحانه

---

(١) الحواريون: جمع حواريّ وهم أنصار المسيح عليه السلام وأصفياؤه وخلّص أصحابه الذين آمنوا به وصدّقوه وأخلصوا له ولازموه وكانوا عوناً له في الدعوة إلى الحق. انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ج٢٩ ص٢٧٦. طنطاوي، التفسير الوسيط، ج٢ ص١٢٠.

(٢) أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج٢ ص٣٣٩.

(٣) انظر: الطبري، جامع البيان، ج٥ ص١٢٩.

(٤) أبو زهرة، زهرة التفاسير، ج٣ ص١٢٣٨.

الذي خلقهم ويُحييهم ويرزقهم ويحفظهم ويكلؤهم ولا يكلون أُمورهم إلا إليه سبحانه لا شكّ أنه يستحق الشكر على هذه النعم ويستحق الخضوع والذلة لهذه العظمة والجلال ولا يكون ذلك إلا بعبادته وحده وعدم إشراك أحدٍ معه في عبادته فإن العقل والفطرة السليمة بجانب الشرع تحكم أنه لا يصلح ولا ينبغي أن يُعبد شيءٌ سواه.

وعبادة الله وحده والاعتراف بربوبيته وأُلوهيته وحده هو الطريق المستقيم وسبيله تعالى الذي لا اعوجاج فيه وهو دين الله تعالى الذي لا يقبل من أحدٍ من عباده غيره[1]. ومن هذا المنطلق طلب الله سبحانه وتعالى من الرسول محمد ﷺ دعوة أهل الكتاب إلى كلمة التوحيد التي تمثل أصل الدين وروحه والتي هي الحقيقة المقررة الثابتة في كلِّ الكتب الإلهية (التوراة والإنجيل والقرآن) قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٦٤] قوله ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يقول الطبري: أي «قل يا محمد لأهل الكتاب وهم أهل التوراة والإنجيل[2]»[3].

وقد دعاهم إلى ﴿كَلِمَةٍ سَوَآءٍ﴾ وهي كلمة التوحيد التي تمثّل لا إله إلا الله فهي كلمةٌ حقّ ليس فيها ميلٌ عن الحق، جوهرها الاستقامة والعدل لذا فإنّها لا يختلف فيها رسل الله تعالى ولا الكتب المنزلة من عند الله تعالى ولا العقول السليمة التي ما انحرفت عن الطريق المستقيم[4].

يقول محمد رشيد رضا: «المراد بهذا تقرير وحدانية الألوهية ووحدانية الربوبية وكلاهما متفقٌ عليه بين الأنبياء»[5] فالكلمة العدل السواء هي: أن نوحّد الله فلا نعبد غيره ونبرأ من كلّ معبود سواه، فلا نشرك به شيئاً ولا يدين بعضنا لبعضٍ بالطاعة فيما

---

(١) انظر: الطبري، جامع البيان، ج١١ ص٢٠٧. أبو زهرة، زهرة التفاسير، ج٣ ص١٢٣٤.

(٢) والأقرب حمله على أهل الإنجيل فقط. انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٣ ص٢٦٨.

(٣) الطبري، جامع البيان، ج٣ ص٢٩٩.

(٤) انظر: طنطاوي، التفسير الوسيط، ج٢ ص١٣٣.

(٥) رضا، تفسير المنار، ج٣ ص٢٦٩.

أمر به من معاصي الله أو يعظمه بالسجود كما يسجد لربه[١].

المطلب الثاني

الدعوة إلى الإيمان برسل الله وكتبه

إن الإيمان والتصديق برسل الله تعالى جميعهم والتصديق بما أُنزل عليهم من وحي وهدى وأنه من عند الله تعالى هو من أولى وأهم الأسس التي قام عليها دين الله الواحد الذي بعث به جميع رسله ودعت إليه جميع الكتب الإلهية ومنها الإنجيل الإلهي والقرآن الكريم.

وقد كان الإيمان برسل الله جميعاً وما أُنزل عليهم من وحيٍ إلهي وكتب إلهية هو جزء لا يتجزأ من العقيدة الصحيحة التي أُمرت بها أمة محمد ﷺ في القرآن الكريم قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ [الحديد: ١٩] وقال: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ﴾ [التغابن: ٨].

فرسل الله تعالى هم حلقة وصل بين الخالق سبحانه وبين البشر، وعلى عاتقهم تقع مهمة تبليغ الدين والتعريف بحقائقه وتبليغ أوامر الله ونواهيه وشرائعه وجميع أحكامه يبيّنون ذلك مبشرين ومنذرين رحمة بالخلق وتنويراً لبصائرهم وقطعاً للحُجة: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٥] وقد حوت كتبهم وصحفهم المنهج الصحيح الذي أراد الله للبشرية أن تسير عليه وتهتدي بهداه حتى تتجاوز مرحلة الابتلاء والاختبار في حياتها بكل يُسر وطمأنينة وحتى تصل إلى ما يحقق لها الفلاح والنجاح في دنياها وأُخراها.

وفي الإنجيل الإلهي كانت الدعوة لبني إسرائيل إلى الإيمان برسل الله جميعهم وما أُنزل عليهم من وحيٍ والإيمان برسالة رسولهم عيسى عليه السلام في المرتبة الثانية بعد الأمر بالإيمان بالله تعالى وحده والإخلاص له بالعبادة. قال تعالى في سياق خطابه لأهل الكتاب من النصارى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ

---

(١) الطبري، جامع البيان، ج٣ ص٢٩٩.

إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ [النساء: ١٧١]. يقول ابن عاشور: «أُمروا بالإيمان بالله تمهيداً للأمر بالإيمان برسله وهو المقصود وأُريد بالرُّسل جميعهم أي لا تكفروا بواحدٍ من رسله»[١] ولا شكّ أن الإيمان يشمل عيسى عليه السلام إذ هو قد وُصف بالاية الكريمة بأنه رسول الله تعالى فيجب الإيمان بهم جميعهم إيماناً يليق بشأنهم وهو أنهم عبيدٌ لله تعالى خصّهم بضروبٍ من التكريم والتعظيم وألهمهم بضربٍ من العلم والهداية بالوحي ليعلّموا الناس كيف يوحّدون ربهم ويعبدونه ويشكرونه[٢].

وقد كان الإيمان برسل الله تعالى وما أُنزل عليهم من كتب ووحيٍ من جملة الميثاق المأخوذ على أهل الإنجيل الإلهي أن يلتزموا به وأن يحافظوا عليه. فقد قال سبحانه وتعالى في سياق ذكره الميثاق المأخوذ على بني إسرائيل في التوراة وهو قوله: ﴿ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ [المائدة: ١٢] قال تعالى في ذات السياق: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَـٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَهُمْ﴾ [المائدة: ١٤] ولا بدّ أنّ هذا الميثاق مأخوذٌ عليهم في الإنجيل الإلهي وقد أخذ الله عليهم العهود والمواثيق على متابعة الرسول -عيسى عليه السلام- ومناصرته ومؤازرته واقتفاء آثاره والإيمان بكل نبيّ يرسله الله إلى أهل الأرض[٣] من قبل عيسى ومن بعده وهو محمد ﷺ، ويقتضي الإيمان بهم السير على منهاجهم والتأسي والاقتداء بهم في أقوالهم وأفعالهم ومسلكياتهم وتصديق ما أتوا به من حقّ والعمل به فهذا هو الميثاق الذي توحي به الفطرة السليمة وجاء للدعوة إليه جميع رسل الله تعالى-[٤] صلوات الله وسلامه عليهم- .

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٤ ص٥٤.

(٢) المراغي ،تفسير المراغي، ج٦ ص٣٠.

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ص٥٩٧. وانظر: أبو حيان، البحر المحيط في التفسير، ج٤ ص٤٠٦.

(٤) انظر: فضل الله، من وحي القرآن، ج٨ ص٨٩.

وقد نقل الله تعالى على لسان الحواريين أتباع عيسى عليه السلام وأهل الإنجيل الإلهي قولهم: ﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [آل عمران:٥٣] وفي الاية الكريمة دلالة واضحة أنهم آمنوا بجميع ما أنزل الله على عيسى عليه السلام من وحي إلهي، ويدخل فيه إيمانهم بالإنجيل وبالتوراة وبغيرها من كتب الله تعالى وأنها صادقةٌ من عند الله تعالى والتصديق بها تصديق إذعان وتسليم وهداية ولا ريب أنّ ذلك الإيمان يقتضي العمل بما فيها من تكاليف وأوامر ونواهٍ وأنّ ذلك مع اتباع الرسول والأخذ بسنته لا يدلل إلا على كمال الإيمان واكتماله[١].

وقد فرّعوا على ذلك الدعاء دعاءً بأن يجعلهم الله مع الشاهدين فقولهم ﴿ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ كما يقول ابن عاشور: «أي مع الذين شهدوا لرسل الله بالتبليغ وبالصدق، وهذا مؤذِنٌ بأنّهم تلقّوا من عيسى - فيما علمهم إياه- فضائل من يشهد للرسل بالصدق»[٢].

ومن ناحيةٍ أخرى فقد شدّد الإنجيل الإلهي الدعوة إلى ضرورة الإيمان الصحيح بالمسيح عيسى ابن مريم وضرورة المداومة على الاعتقاد بأنه عبد الله ورسوله بدون زيادة ولا تنقيص لمنزلته ومكانته، فتشديد الكتب الإلهية على احترام الرسل ومؤازرتهم وطاعتهم لا تعني مطلقاً تجاوز الحدود في التقديس والتعظيم وإيصالهم في ذلك إلى رتبة الله عز وجل.

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ [المائدة:١١١]. وقد أمرهم سبحانه على لسان عيسى عليه السلام أن يؤمنوا ويُصدقوا بوحدانية الله تعالى وبرسوله عيسى عليه السلام الذي أمره بإبلاغ الناس من بني إسرائيل ما يأمرهم الله تعالى به فهو مجرّد وسيط بين الله والخلق[٣]. يقول أبو السعود : «إيراده عليه السلام بعنوان الرسالة للتنبيه على كيفية الإيمان به عليه السلام

(١) انظر: أبو زهرة، زهرة التفاسير، ج٣ ص١٢٣٨.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٣ ص٢٥٦.

(٣) انظر: البقاعي، نظم الدرر، ج٢ ص٥٦٤.

كأنه قيل: آمنوا بوحدانيتي في الألوهية والربوبيّة وبرسالةِ رسولي ولا تزيلوه عن حيّزِه حطّاً ولا رفعاً»[١].

وعبوديّته عليه السلام لربّه وكونه نبياً رسولاً أُنزل عليه الكتاب وهو مجرد حلقة وصل بين الله وبين عباده من بني إسرائيل هي العقيدة الصحيحة التي أمر بها الله تعالى عيسى بن مريم أن يعترف بها أمام الملأ كمعتقد له وأن يبلغها لقومه، وبلا شك أن كتابه لم يخل من الدعوة إليها وهي العقيدة الصحيحة التي أقرّها وخلّدها القرآن الكريم قال تعالى على لسان المسيح عليه السلام - حين شاءت إرادة الله تعالى وقدرته أن يتكلم في المهد صبياً-: ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم: ٣٠] فهذا إخبار منه عليه السلام لقومه عن إرادة الله تعالى التي حكم له بها وهي أن يكون نبياً ذا كتاب إلهي وهو الإنجيل الذي يتضمن وحي الله ورسالته إلى خلقه، وأنّه عليه السلام لا يخرج عن إطار العبودية لله تعالى ولا عمّا رُسم له من دور ومسؤولية الرسالة والنبوّة مهما أحاطت ظروف خلقه من أسرار ومهما جرت على يديه من خوارق وقدرات فوق مستوى البشر فلا تعدو إلا أن تكون بإذن الله تعالى وبإرادته وأمره وحده سبحانه[٢]، وهو لم يكن بدعاً من الرسل بذلك فقد جرت المعجزات على أيدي رسل قبله وليس ما أتى به بأعجب منها فجميعها خوارق عادات أجراها الله تعالى على أيديهم تأييداً وتصديقاً لهم وإثباتاً لقدرة الله تعالى، أمّا هم فما هم إلا بشر أُرسلوا لهداية البشرية لدين الله الواحد وما عيسى ابن مريم إلا حلقةٌ في هذه السلسلة[٣] قال تعالى: ﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [المائدة: ٧٥].

وكما أكّد الإنجيل الإلهي على ضرورة الإيمان برسل الله جميعاً وشدّد على الإيمان والتصديق برسالة المسيح عليه السلام وأنه عبد الله ورسوله فقد أكّد على أهله مراراً وتكراراً ضرورة الإيمان برسالة خاتم النبيين والمرسلين محمد ﷺ والإيمان بالقرآن

---

(١) أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج٢ ص٣٣٩.
(٢) انظر: فضل الله، من وحي القرآن، ج١٥ ص٤٠.
(٣) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٤ ص٢٨٥.

الكريم خاتم الكتب الإلهية وأنّه مصدقٌ لها ومهيمن عليها ولا كتاب بعده. قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦] فقوله: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾. يقول فيه أبو السعود: «يريد أنّ ديني التصديق بكتب الله وأنبيائه جميعاً ممن تقدم وتأخر»(١).

ولا رسول بعده عليه السلام إلا سيدنا محمد ﷺ وقد عبّر عنه بهذا الاسم بالذات (أحمد) لما تحويه هذه الكلمة الجامعة من معانٍ تشمل معظم أوصافه وشمائله يقول ابن عاشور: «هذه الكلمة الجامعة التي أوحى الله بها إلى عيسى عليه السلام أراد الله بها أن تكون شعاراً لجماع صفات الرسول الموعود به ﷺ صيغت بأقصى صيغة تدل على ذلك إجمالاً بحسب ما تسمح اللغة بجمعه من معانٍ، ووُكل تفصيلها إلى ما يظهر من شمائله قبل بعثته وبعدها ليتوسمها المتوسمون ويتدبر في مطاويها الراسخون عند المشاهدة والتجربة»(٢).

وذكر أبو يحيى الأنصاري(٣): أنّ عيسى خصّ أحمد بالذكر دون محمد مع أنه أشهر أسماءه ﷺ لأنه مذكور أو مسمى بهذا الاسم بالذات في الإنجيل أو من باب تسميته باسمه في السماء أحمد؛ فهو أحمد الناس لربه بما يفتحه الله عليه يوم القيامة من المحامد قبل أن يشفع لأمته(٤).

قال تعالى في بيان صفات المتقين من بني إسرائيل: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧] وقوله

---

(١) أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج٦ ص٢٤٤.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٣ ص١٨٦.

(٣) هو زكريا بن محمد بن أحمد الأنصاري (٨٢٦-٩٢٦هـ) عالم مشارك في الفقه والفرائض والتفسير والقراءات والتجويد والحديث والتصوف والنحو والمنطق والجدل، له تصانيف كثيرة منها: شرح مختصر المزني في فروع الفقه الشافعي حاشية على تفسير البيضاوي، انظر: عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، د. ط دار إحياء التراث العربي بيروت ١٩٥٧م، ج٤ ص١٨٢.

(٤) انظر: زكريا الأنصاري (ت ٩٢٦هـ) فتح الرحمن بكشف ما يُلتبس في القرآن، تحقيق: بهاء الدين محمد قدّمه: علي فرغلي (د. ط.) دار الكتاب الجامعي- القاهرة ١٩٨٧م، ص٣٥.

﴿يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا﴾ : أي يجدون صفته ونعته ونبوته(١)، ولا شك أن ذلك يستلزم التصديق والإيمان بما نزل عليه من وحي إلهي وهو القرآن الكريم وأنه نزل من عند الله تعالى قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١١٤] فأهل التوراة وأهل الإنجيل يعلمون علماً يقيناً من جهة ما في التوراة والإنجيل من البشارات والنعوت أن القرآن الكريم منزل من عند الله بالحق حيث أتى مصدقاً لما في كتبهم ومهيمن عليها وأتى مخبراً بأمور لا طريق إلى معرفتها سوى بالوحي الإلهي، وهو موافق لما في كتبهم من أصول الدين والشرائع لم يأت بما يخالف التوراة والإنجيل في أصول دعوته(٢) ولم يكن بدعاً فيما دعا إليه.

وقد أشاد الله سبحانه بمحمد ﷺ والذين معه من الصحابة الكرام في الإنجيل الإلهي وبيّن حال الدين الإسلامي الذي بدأ بهم ضعيفاً حتى قوي يوماً فيوماً إلى أن مكّن الله لهم في الأرض وثبت دين الله تعالى وقوي واستحكم قال تعالى: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ [الفتح: ٢٩] فمثّلهم سبحانه بالزرع المشطىء- الذي أخرج شطأه وهو فراخه - لأنهم ابتدأوا في الدخول في الإسلام وهم عددٌ قليلون ثم جعلوا يتزايدون ويدخل فيه الجماعة بعدهم ثم الجماعة بعد الجماعة حتى كثر عددهم كما يحدث في أصل الزرع الفرخ منه ثم الفرخ بعده حتى يكثُر وينمى(٣).

والإيمان والتصديق برسالة محمد ﷺ وبكتابه والبشارة به كانت جزءاً أساسياً من دعوته عليه السلام في الإنجيل الإلهي أن يؤمن هو به ويصدقه وأن يدعو قومه ليؤمنوا به ويصدقوه ويأخذ العهد والميثاق عليهم للالتزام بذلك، وهي سنة الله تعالى في كل رسول ونبي حمّله مسؤولية وأمانة الدعوة والتبليغ قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ

---

(١) البغوي، معالم التنزيل، ج٢ ص١٧١.

(٢) انظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج٢ ص٤٣٥.

(٣) الطبري، جامع البيان، ج١١ ص٣٧٢.

لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١] يقول ابن جزّي: «إن الله تعالى أخذ العهد والميثاق على كل نبي أن يؤمن بمحمد ﷺ وينصره إن أدركه وتضمّن ذلك أخذ هذا الميثاق على أمم الأنبياء»[١]. ولا بد أن هذا الميثاق أو محتواه كان موجوداً في الإنجيل الإلهي وأنه قد دعا وأكّد وشدّد الدعوة على أهله إلى الإيمان بجميع رسل الله وأنبيائه السابق منهم لعيسى عليه السلام أو اللاحق وهو محمد ﷺ والإيمان بكتبهم الإلهية والوحي الذي أُنزل أو نزل عليهم.

المطلب الثالث

الدعوة إلى الإيمان باليوم الاخر

الإيمان باليوم الاخر أو يوم الحساب هو ضرورة حتمية لسنة الله تعالى وإرادته لحياة الإنسان على هذه الأرض فلا بدّ من المجازاة والمحاسبة على الأعمال ولا بدّ من ظهور نتيجة الابتلاء والاختبار وهو ما تقتضيه حكمته تعالى وعدله وفضله العظيم.

فحياة الإنسان على هذه الأرض ليست عبثاً وأعماله الصالحة أو الطالحة لا يمكن أن تذهب سدىً بغير ميزان قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥] فالإيمان باليوم الاخر هو الإيمان بالعدالة الإلهية المطلقة في الجزاء[٢]، وأنه لا يُجزى ولا يُحاسب أحدٌ إلا عن كسبه وعمله حتى ولو بلغ مثقال ذرّة قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝﴾ [الزلزلة: ٧-٨]. وقال: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

فالإيمان باليوم الاخر من أقوى ما يدفع الإنسان إلى الاستقامة والصلاح والخوف

---

(١) ابن جزّي، التسهيل لعلوم التنزيل، ج١ ص١٥١.

(٢) انظر: قطب، في ظلال القرآن، ج٢ ص١٥٩.

ومن هذا المنطلق فإن الدعوة إلى الإيمان بيوم الحساب ويوم الجزاء العادل كان مقصداً مشتركاً بين جميع الكتب الإلهية، ولم يكن القرآن الكريم بدعاً من تلك الكتب فيما دعا إليه من الإيمان باليوم الاخر والاستعداد له والتحذير من أهواله وعذابه قال تعالى: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴾ [الأنعام: ١٣٠].

والإنجيل الإلهي كبقية الشرائع والكتب الإلهية لم يخلُ من دعوة متّبعيه إلى ضرورة الإيمان بيوم آخر يبعث الله فيه الخلائق ويظهر فيه عدل الله المطلق ويرى الإنسان فيه آثار ما قدّم في حياته، فالجزاء حقٌّ لا ريب فيه وكل إنسان لا محالةٌ محاسب ولا يُسأل أحدٌ إلا عن جريرة نفسه ولا يحمل أحد عن أحد ذنباً أو عقوبة ولا يشفع أحدٌ عند الله تعالى إلا بإذنه وإرادته ولطفه.

ومعظم هذه المعاني وغيرها أشار إليه سبحانه على لسان عيسى عليه السلام وعلى ألسنة من آمن معه واتبعوا منهج الله تعالى في الإنجيل الإلهي فقد ذكر سبحانه وتعالى مخاطبة عيسى عليه السلام لربه - متحدثاً عن قومه - قال: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [المائدة: ١١٨]: أي هذه الاية دلالةٌ واضحة على أن الجزاء حقٌّ وأن حساب البشر بيد الله تعالى وهو وحده الذي يتكفل به، فالمغفرة والعفو عن الذنوب أو العذاب بيده تعالى وحده ولا أحد يشفع لأحد عند الله إلا بإذنه فعيسى عليه السلام كبقية رسل الله تعالى لا يشفع عند الله تعالى لقومه إلا بإذن الله تعالى وإرادته.

فقوله تعالى على لسان عيسى ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾: أي إنك إن تعذب تعذب من يستحق التعذيب وإن تغفر فإنما تغفر لمن هو أهلٌ لذلك ومهما توقعه فيهم من عذابٍ فلا دافع له من دونك ومهما تمنحهم من مغفرة فلا يستطيع أحدٌ حرمانهم منها بحوله وقوته لأنك أنت العزيز الذي يغلب ولا يُغلب ويمنع من شاء ما شاء ولا يُمنع وأنت الحكيم الذي تضع كل شيءٍ موضعهُ فلا يمكن

لأحد غيرك أن يرجعك عنه[١].

وفي الآية إشارة إلى أن عمل الإنسان وكسبه وما اختاره لنفسه بإرادته هو الذي يحدّد طبيعة حياة الإنسان في اليوم الاخر وهل سيبقى في اللذة والنعيم أم في الألم والجحيم، وليس لأحد من الخلق شفيع يشفع لهم ولا نصير ينصرهم إلا بفضل من الله ورضوان وهذا كقوله تعالى إخباراً عن المسيح أنه قال لبني إسرائيل: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [المائدة: ٧٢] فقوله ﴿ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾: أي ليس من فعل غير ما أباح الله له وعبد غير الذي له عبادة الخلق من أنصار ينصرونه يوم القيامة من الله فينقذونه منه إذا أورده جهنّم[٢] وقال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝٥٥ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ۝٥٦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝٥٧ ﴾ [آل عمران: ٥٥-٥٧] فالجزاء الحاصل عند مرجع الناس إلى الله يوم القيامة يتوقف على ما قدموه من إيمان وأعمال صالحة أو عكس ذلك، فإما أن يُغدق محبته وفضله على الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويعطيهم ثوابهم وافياً وإما العذاب الشديد للمُحبطين أعمالهم وعندها لا يجدون ناصرين ينصرونهم وينقذونهم من عذاب الله تعالى[٣].

وقد اعتبر الله سبحانه أنّ مما يلحق بالإيمان باليوم الاخر في الإنجيل الإلهي الإيمان بأنّ رسول الله عيسى ابن مريم ليس له من أمر حساب البشر شيئاً ولا يُغني عنهم من الله شيئاً وهو كباقي رسل الله تعالى ليس له من دور يوم القيامة إلا الشهادة على أعمال أمته والشفاعة عند الله لمن يأذن له فيه. قال تعالى على لسان المسيح عليه

---

(١) المراغي، تفسير المراغي، ج٧، ص٦٥.
(٢) الطبري جامع البيان ج٤ ص٦٥٢.
(٣) انظر: ابن عاشور التحرير والتنوير ج٣ ص٢٥٦.

السلام ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾[المائدة: ١١٧] فهو عليه السلام يشهد على أعمال أمته حينما كان بينهم يراقبهم ويشهد على ما يقولون ويفعلون يقر الحق ويُنكر الباطل، وفي يوم القيامة يشهد على أعمال أمته كبقية الرسل[١] كقوله تعالى عن سيدنا محمد ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٤١].

وقال تعالى عن عيسى ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ١٥٩] فعيسى عليه السلام ليس بدعاً في ذلك فشهيد كل أمة هو رسولها وكل نبي يشهد يوم القيامة على أعمال أمته وعلى حالهم معه وأنه قد بلّغ لهم دعوة ربهم وحذرهم من مغبة الكفر وجزائه وبشّرهم بالنعيم والثواب الجزيل للاستجابة والإيمان فيشهد على كلّ من آمن منهم واستجاب ويشهد على كل من عصى وكفر أو أعرض[٢].

وعيسى عليه السلام كبقية الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - شهادته يوم القيامة على أمته يكون على إسلامهم وعلى كمال انقيادهم أو عدمه وأنّ أمر الحساب والجزاء موكولٌ إلى الله سبحانه وحده لا يشاركه فيه أحد قال تعالى على لسان الحواريين: ﴿ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٥٢] قولهم ﴿وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ يقول فيه أبو السعود: «أي مخلصون في الإيمان منقادون لما تريد منا من نصرتك وطلبوا منه عليه السلام الشهادة بذلك يوم القيامة يوم يشهد الرسل - عليهم الصلاة والسلام - لأممهم وعليهم إيذاناً بأنّ مرمى غرضهم السعادة الأُخروية»[٣].

وفضلاً عن شهادته عليه السلام على أعمال أمته يوم القيامة فإنّ عيسى عليه السلام يشفع عند الله تعالى لبعض أمته لمن يشاء الله ويرضى عنه كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا

---

(١) انظر: رضا، تفسير المنار، ج٧ ص٢٢٠.

(٢) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٥ ص٥٧. المراغي، تفسير المراغي، ج٦ ص١٦.

(٣) أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج١ ص٣٧٤.

نَفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ [طه: ١٠٩]. قال تعالى واصفاً عيسى عليه السلام بأنه: ﴿وَجِيهًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [آل عمران: ٤٥] فوجاهته في الاخرة بما يشفع عند الله فيمن يأذن له فيه فيقبل منه أسوةً بإخوانه من أولي العزم من الرسل صلوات الله عليهم(١).

ومن ناحية أخرى كان الإيمان بحتمية الموت وأنّ الإنسان لا محالة راحل عن هذه الدنيا إلى حياة أخرى وأنه سيبعث من قبره يوماً ليقف أمام خالقه وينال جزاء ما قدّم كان من أولى أسس الدين الذي دعا إليه عيسى عليه السلام والذي هو من أصول الدين في كل ملة قال تعالى على لسان عيسى ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣٣] وفي ذلك بيانٌ لبني إسرائيل أن سُنة الله تعالى وإرادته بجميع البشر -وهو منهم عليه السلام- أنّ حياة الإنسان تمرّ في ثلاث مراحل فأولها حياته في الدنيا التي هي محلّ ودار الابتلاء والعمل وثانيها حياته في البرزخ في القبر وآخرها الحساب ويبدأ بالبعث من القبر.

وفي ظاهر الآية الكريمة بيانٌ منه عليه السلام أنّه عبدٌ لله تعالى ومخلوقٌ من مخلوقاته يحيا ويموت ويُبعث كسائر البشر لكن الله تفضل عليه بأنّ له السلامة والأمَنَة منه تعالى في جميع مراحله في دنياه وفي قبره يوم يموت ويُفارق هذه الحياة ويوم يُبعث حياً للحساب والجزاء وهو يوم القيامة له الأمَنَة من الله تعالى فلا يناله الفزع الذي ينال الناس بمعاينتهم أهوال ذلك اليوم(٢).

وقد كان من أهم ما ذُكر من مفردات يوم القيامة فضلاً عن البعث ذكرُ الإنجيل الإلهي للجنة والنار وما فيهما من نعيم وعذاب وقد ورد ذكر الجنة في مثل قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ﴾ [التوبة: ١١١].

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ص٣٦٦.

(٢) انظر: الطبري، جامع البيان، ج٨ ص٣٤٠. طنطاوي، التفسير الوسيط، ج٩ ص٣٥.

أيضاً ورد ذكر عدد خزنة جهنم وأنّ الكتب السماوية ومنها الإنجيل قد ذكر هذا العدد كما ذكره القرآن الكريم قال تعالى: ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ۝٣٠ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ ﴾ [المدثر: ٣٠-٣١] يقول القرطبي قوله ﴿ لِيَسْتَيْقِنَ ﴾: «أي ليوقن الذين أُعطوا التوراة والإنجيل أنّ عدة خزنة جهنم موافقة لما عندهم»[١].

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج١٠ ص٨٢.

المبحث الثالث

ما اشترك به القرآن الكريم مع الإنجيل الإلهي

في أصول الشرائع ومكارم الأخلاق

كان من أبرز المقاصد التي دعا إليها القرآن الكريم والإنجيل الإلهي الدعوة إلى أصول الشرائع والعبادات ومكارم الأخلاق والتي لا بدّ من أن تكون مبنية على قواعد ثابتة قوية من العقائد الربانية الصحيحة.

ولما كانت عبادة الله تعالى هي أسمى غاية خلق الإنسان من أجلها كانت الدعوة إليها في الكتابين الكريمين تلبيةً لنداء الفطرة التي جُبل عليها الإنسان ودعوةً إلى تحقيق معنى العبودية لله تعالى التي هي الغاية الأولى في جميع العبادات وفي جميع الشرائع الإلهية.

وهذا الإنسان الذي هو محلّ التكليف ومن شُرعت له ومن أجله الشرائع والعبادات كان شأن الاهتمام به أمراً لا بد منه من ناحية إصلاحه وتقويم سلوكه ورسم المنهج الصحيح له في تعامله مع الاخرين وكلّ ذلك قد اضطلع بالقيام به غرس معاني الأخلاق الفاضلة في كلٍّ من القرآن الكريم والإنجيل الإلهي.

المطلب الأول

الدعوة إلى إقامة الصلاة

الصلاة التي هي أمّ العبادات وأولاها وأجلّها منزلة وأشرفها مكانة هي ركن أساسي في جميع الشرائع السماوية حيث تتجلى فيها أبرز مظاهر الافتقار والحاجة والتذلل والخضوع لله سبحانه بالقول والفعل وهي عبادة روحية تهذب الأخلاق وتصفي النفوس وهي صلة بين العبد وربه وآثارها تعود على الشخص فتحسن طباعه وتظهر آثارها على سلوكه ومعاملاته مع الاخرين فهي تجمع الخير من أطرافه وتعود بالفوز

والسعادة على الإنسان في دينه ودنياه(١).

وفي القرآن الكريم احتلت الصلاة موقعاً بارزاً بين أوليات الفرائض الإسلامية حيث نجد عشرات الايات في ذلك منها ما يحثّ على مشروعيتها أداءً وإقامة ويؤكد المداومة والاستمرار على ذلك أو من جانب الإيضاح والبيان لاثارها العظيمة على النفس وعلى المجتمع(٢). قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: ١٧٧] قوله ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: أي أدّاها على أكمل وجه وأقومه وأدامها وهذا هو الركن الروحاني الركين للبرّ(٣).

وإقامة الصلاة التي يكرر القرآن المطالبة بها والتي تؤدي إلى البرّ وزيادة التقوى للفرد لا تتحقق بأداء أفعال الصلاة وأقوالها فقط والذي يتمثل به صورة الصلاة وهيأتها بل البر والتقوى: في سرّ الصلاة وروحها الذي تصدر عنه آثارها من النهي عن الفحشاء والمنكر وقلب الطباع السقيمة والاستعاضة عنها بالغرائز المستقيمة(٤) كما قال تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾ [المعارج: ١٩-٢٢].

وفي جانب الإنجيل الإلهي فقد كان الأمر بالصلاة وإقامتها أمراً مؤكداً فيه واعتبرت ركناً من أهم أركان الدين، أُمر بالتمسك بها وإقامتها والمحافظة على أداءها قال تعالى على لسان عيسى عليه السلام ﴿وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣١]. وهذه الاية الكريمة أكبر دليل على أن إقامة الصلاة من أهم ما دعت إليه شريعة الإنجيل الإلهي ومن أهم ما فُرض فيه، وفيها يقول القرطبي: «دلت هذه الآية على أنّ الصلاة

---

(١) عبد العزيز بن الدردير بن موسى، التفسير الموضوعي لآيات الصلاة في القرآن الكريم، ط١ دار الطباعة المحمدية القاهرة ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، ص١٧.

(٢) انظر: كوراني، فلسفة الصلاة، ص٨٣.

(٣) رضا، تفسير المنار، ج٢ ص٩٤.

(٤) انظر: رضا، تفسير المنار، ج٢ ص٩٤.

والزكاة وبر الوالدين كان واجباً على الأمم السالفة والقرون الخالية الماضية فهو مما يثبت حكمه ولم يُنسخ في شريعة أمره»[١].

وقوله ﴿ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ﴾: يعني المحافظة على حدود الصلاة وإقامتها على حسب ما فرضها عليّ[٢].

وتعبيره سبحانه على لسان عيسى عليه السلام بالإيصاء إلى جانب تشريع الصلاة فيه دلالةٌ على أنّ التمسك بالصلاة وإقامتها على الوجه المطلوب والدوام على ذلك فيه صلاحٌ ومنفعة تعود على المصلّي (أو المصلِّين) فهو سبحانه لا يأمر إلا بما هو خير ولا تكون أوامره إلا عن حكمةٍ وعن علم، فالصلاة لا بدّ أن تُرى آثارها على النفس وعلى المجتمع فمن خالف أوامر الله تعالى واستهان بها وهجرها فلا يعود ذلك عليه إلا بالضنك في الحياة والعطش الروحي والألم القلبي، يقول ابن عاشور: «الإيصاء: أمرٌ ونهي يتعلق بصلاح المخاطب خصوصاً أو عموماً وفي فوته ضرٌّ، فالوصية أبلغ من مطلق أمرٍ ونهي فلا تُطلق إلا في حيث يُخاف الفوت بالنسبة للموصى»[٣].

وقوله ﴿ مَا دُمۡتُ حَيّٗا﴾: يدل على أنه تعالى أوصاه بأدائهما بعد بلوغه حدّ التكليف وحصول شرائط الوجوب والأداء، وأنّ هذا التكليف متوجه إليه في جميع أزمنة حياته[٤] وأيضاً يدل على أن الإنسان متى بلغ حدّ التكليف والبلوغ يُحرم عليه التهاون في الصلاة ولا يوجد له أي عذر أو رخصة ولا أي مسوغ لترك الصلاة[٥] وهجرها والإعراض عنها، فيجب المحافظة عليها وإدامتها لأن صلة العبد بربه لا بد أن تبقى قائمة لا تنقطع إلى أن يوافيه الأجل كما قال تعالى: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩] وهذه الدلالات والمعاني من إقامة الصلاة وإدامتها على الوجه الذي سنّه

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج٦ ص١٠٤.

(٢) الطبري، جامع البيان، ج٨ ص٣٤٠.

(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١ ص٧٢٧.

(٤) القوجوي، حاشية محيي الدين شيخ زاده، ج٥ ص٥٤٦.

(٥) انظر: أبو زهرة، زهرة التفاسير، ج٩ ص٤٦٣٥.

الدين قد أرادها الله سبحانه من أهل الإنجيل الإلهي في الماضي أن يتحلوا بها وأن يتمسكوا ويداوموا على أداء وإقامة صلواتهم، فهو دينه الذي ارتضاه لهم ولكل ملة على و جه الأرض قال تعالى في أهل الكتاب: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾ [البينة: ٥] فهم أمروا في التوراة والإنجيل بإقامة الصلاة إلى جانب عبادة الله والإخلاص له وإيتاء الزكاة وذلك هو دين الإسلام دين الأنبياء جميعاً الذي ارتضاه الله تعالى لهم وأمرهم به والعمل بأحكامه[١].

فالإقامة للصلاة: أن تُصلّى الصلوات المكتوبة في أوقاتها وأن تكون مستوفية جميع شرائطها وأركانها وحدودها لتكون بحق مظهراً من مظاهر التقديس والتعظيم لجلال الله سبحانه وتعالى[٢]، مطهرة للنفوس من الأرجاس ومانعةً لها من ارتكاب الفواحش والمنكرات الظاهرة والباطنة.

المطلب الثاني

الدعوة إلى إيتاء الزكاة

اعتبرت الزكاة وإعطاء المحتاج حقّه من المال ركناً أساسياً من أركان كل شريعة إلهية فلا يتم إيمان الفرد إلا بإيتاء الزكاة فهو ترجمةٌ ومظهرٌ عمليٌّ للاستجابة والانقياد لأمر الله تعالى، وهو مظهرٌ لشكر الله تعالى على هذه النعمة والاعتراف بأنه هو المالك وهو الرازق لهذا المال، وبيّن سبحانه أنه أمانةٌ ووديعة ولا بدّ من أداء حقه وحسن التصرف فيه حسب المنهج الذي أمرهم باتباعه[٣].

وقد أفاض القرآن الكريم في الحثّ على إيتاء الزكاة وإخراج الصدقات وبيّن فوائده وآثاره العظيمة وبأن الزكاة نماءٌ للمال لأنها سبب لحلول البركة فيه كما أنها نماءٌ لنفس

---

(١) انظر: ابن جزيّ، التسهيل لعلوم التنزيل، ج٢ ص٥٩٨.

(٢) انظر: البقاعي، نظم الدرر، ج٨ ص٥٠٠. البغوي، معالم التنزيل، ج٤ ص٤٨٢.

(٣) انظر: قطب، في ظلال القرآن، ج٢ ص٦٧٦.

المزكّي لأنها توفر أخلاقه الحميدة وتضاعف حسناته وتقيه شرور الدنيا والاخرة[١] قال تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴾ [الروم: ٣٩] وقال: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [التوبة: ١٠٣] فالزكاة طهرةٌ للمال وطهرةٌ لصاحبه وآثارها كما تعود على الفرد فإن المُبتغى الأول لها المساهمة في إنجاح الحياة الاجتماعية ككل وزيادة التكافؤ والترابط بين أفرادها قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الحج: ٤١].

وفي الإنجيل الإلهي كان الأمر بإيتاء الزكاة من منطلق أن دين الله تعالى واحدٌ في هذه الكتب الإلهية فلم يأت الإنجيل بأمر بدع في هذه الدعوة قال تعالى على لسان عيسى عليه السلام ﴿ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ [مريم: ٣١] وفي الاية دلالة واضحة على أنّ وجوب إيتاء وإخراج الزكاة كان جزءاً من شريعة الإنجيل.

والإيصاء بالزكاة في قوله ﴿ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ ﴾: أي أمرني بالزكاة بإعطاء جزء من المال للبائس المحتاج لما في ذلك من تطهير للمال[٢]، فعلاً في نفسي وأمراً لغيري[٣].

وقوله ﴿ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ إلى جانب تشريع الزكاة يدلّل على أمرين:

أولاً: يجب على الفرد من بني إسرائيل تطهير ماله بالزكاة وإعانة الفقراء والمساكين ومن يستحقون الزكاة ما دام على قيد الحياة، ويسقط الوجوب والفرضية للزكاة على أمواله - بصفته مالكاً لها - بمجرد وفاته وانتهاء حياته[٤].

---

(١) الخليلي، جواهر التفسير أنوار من بيان التنزيل، ج٣ ص١٩١.

(٢) المراغي، تفسير المراغي، ج١٦ ص٤٨.

(٣) البقاعي، نظم الدرر، ج٤ ص٥٣٣.

(٤) انظر: الزحيلي، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، ج١٦ ص٨٣.

ثانياً: الزكاة مفروضة فرضاً مؤكداً في الإنجيل الإلهي بمجرد أن توافرت موجباتها ولا مسوغ أبداً لترك الزكاة أو إعفاء أحد منها[١].

وقد أُعتبر التأكيد على مشروعية الصلاة والزكاة والإيصاء بهما - في الاية الكريمة - من باب التكامل والشمول في النتائج والاثار التي تضطلع بها هاتان العبادتان البدنية والمالية، يقول الإمام محمد أبو زهرة: «إن الزكاة لما كانت إعطاء الفقير حقه وتطهير المجتمع من آثام الفقر فكان الإيصاء بالصلاة والزكاة: إصلاحاً للنفس والمجتمع؛ فبالصلاة : إصلاح النفس وتطهيرها لتألف وتُؤلف وبالزكاة: يكون التعاون الاجتماعي بين الغني والفقير»[٢].

وقد عدّ الإنجيل الإلهي إيتاء زكاة الأموال ترجمة فعلية عن العقيدة الصحيحة التي جاء بها جميع الرسل واحتوتها جميع الكتب الإلهية والتي يقوم أساسها على التوحيد وإخلاص العبادة والطاعة لله رب العالمين وتلك هي الحنيفية أي الميل عن الأديان إلى دين الإسلام[٣]، ولم يبعث الله نبياً قط إلا وصاه بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإقرار لله بالطاعة فذلك دينه الذي شرعه لهم[٤]، وفي سياق حديثه عن العقيدة الصحيحة لأهل الكتاب والذين يمثلون أهل التوراة وأهل الإنجيل الإلهي قال تعالى[٥] : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥] يقول سيد قطب تعليقاً على قوله ﴿ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ : «عقيدةٌ خالصةٌ في الضمير وعبادةٌ لله تترجم عن هذه العقيدة وإنفاق للمال في سبيل الله وهو الزكاة، فمن حقّق هذه القواعد فقد حقق الإيمان كما أمر به أهل الكتاب وكما هو في دين الله على الإطلاق، دينٌ واحد وعقيدة واحدة تتوالى بها الرسالات ويتوافى عليها الرسل»[٦].

---

(١) انظر: أبو زهرة، زهرة التفاسير، ج٩ ص٤٦٣٥.

(٢) انظر: أبو زهرة، زهرة التفاسير، ج٩ ص٤٦٣٥.

(٣) انظر: البغوي، معالم التنزيل، ج٤ ص٤٨٢.

(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج٨ ص١١.

(٥) انظر: البغوي، معالم التنزيل، ج٤ ص٤٨٢.

(٦) قطب، في ظلال القرآن، ج٦ ص٣٩٥٢.

المطلب الثالث

الدعوة إلى الصيام

اشترك القرآن الكريم مع الإنجيل الإلهي في تشريع الصيام ولا شك أن فرض هذا النوع من العبادة واعتباره ركناً من أركان الدين في كلٍّ من الكتابين نابعٌ عن حكمةٍ عظيمة من الخالق سبحانه وتعالى وعن علم بمن خلق.

فالصيام بما يحققه من فوائد وآثار جمة جسمانية وروحانية ولما له من صلة مباشرة بزيادة التقوى والخوف والخشية من الله في السر والعلن كان تشريعه في هذين الكتابين الكريمين تحقيقاً للمقاصد والأهداف والغايات من إنزال الكتب الإلهية، فما أنزلت إلا لتكون كتب هداية وإرشاد إلى ما يوصل إلى طاعة الله تعالى وعبادته وتقواه ومراقبته في ظاهر الإنسان وباطنه وفي سره وعلانيته.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٣] وهذه الاية دلالة واضحة على أنّ الصيام قد فرض في الإنجيل الإلهي كما هو مفروض بالقرآن الكريم، ولا ريب أن الكاتب لهذه الفريضة معلومٌ وهو الله تعالى وحده وقد حُذف الفاعل الجليل في الاية الكريمة ربما من باب أن الصيام مشاقٌ صعبة على المكلفين به فناسب المقام أن لا تُنسب إلى الله تعالى وإن كان الله سبحانه هو الذي كتبها وفرضها على جميع الأمم[١].

وقوله تعالى: ﴿ مِن قَبۡلِكُمۡ ﴾: أي من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والأمم من لدن آدم عليه السلام[٢]. فالصيام من أعظم العبادات ومن أعظم وسائل الإصلاح وهو ركنٌ من أركان الدين الواحد الذي بعث الله به جميع الأنبياء والمرسلين - عليهم الصلاة والسلام يقول محمد رشيد رضا: «في إعلام الله تعالى لنا بأنه فرضه علينا كما فرضه على الذين من قبلنا: إشعارٌ بوحدة الدين في أصوله ومقصده وتأكيدٌ لأمر هذه

---

(١) انظر: أبو حيان، البحر المحيط في التفسير، ج٢ ص١٧٩.

(٢) أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج١ ص٢٤١.

الفريضة وترغيبٌ فيها»[١].

والصيام الذي هو في الغالب - وفي جميع الرسالات - امتناعٌ عن المفطرات في وقت معلوم[٢] كانت الغاية الأولى منه التقوى وزيادة الخشية من الله تعالى، ففي الآية الكريمة كان النداء بوصف الإيمان أولاً وهو أساس الخير ومنبع الفضائل وفي ذكر التقوى آخراً وهي روح الإيمان وسرّ الفلاح إرشادٌ قوي ودلالةٌ واضحة على أنّ الصوم المطلوب ليس هو مجرد الإمساك عن الطعام والشراب وإنما هو الإمساك عن كل ما ينافي الإيمان ولا يتفق وفضيلة التقوى والمراقبة[٣].

فحين كان الصوم يؤدي بالمرء إلى انكسار شهوات نفسه وانقماع أهوائه كان بهذا من أبرز الطرق لوصول الإنسان إلى التقوى وكان رمزاً عملياً لضبط هذه النفس وإعادتها إلى صوابها وتوازنها، فالصوم يعدُّ نفس الصائم لتقوى الله تعالى بترك شهواته الطبيعية المباحة الميسورة امتثالاً لأمره واحتساباً للأجر عنده فتتربى بذلك إرادته على مَلَكَةِ ترك الشهوات المحرمة والصبر عنها فيكون اجتنابها أيسر عليه وتقوى على النهوض بالطاعات والمصالح والاصطبار عليها فيكون الثبات عليها أهون عليه[٤]، فالصوم بالنهاية هو تلبية لنداء الفطرة بالعبودية والخضوع والانقياد للخالق سبحانه وتعالى.

المطلب الرابع

الدعوة إلى الجهاد في سبيل الله

الجهاد في سبيل الله تعالى الذي يمثل قمة الامتثال والاستجابة لأمر الله تعالى دعت إليه جميع الكتب الإلهية فهو من سنن الله في كونه ومن أحكامه في شرائعه لعباده المؤمنين[٥]، شرعه سبحانه للدفاع عن الحق الذي أنزله لتكون كلمة الله هي العليا

(١) رضا، تفسير المنار، ج٢ ص١١٥.

(٢) انظر: غلوش، الدعوة الإسلامية أصولها ووسائلها، ص١٥٩.

(٣) شلتوت، الإسلام عقيدة وشريعة، ص١٠٨.

(٤) رضا، تفسير المنار، ج٢ ص١١٦.

(٥) الميداني، مفهومات يجب تصحيحها، ص١٣٣.

وتكون الغلبة لدين الله تعالى فتقام شرائعه وأحكامه ومناهجه على أساس متين ثابت في جميع أنحاء الأرض قال تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩].

والجهاد في سبيل الله تعالى - الذي أفاض القرآن الكريم في الدعوة إليه- لا يعني إطلاقاً محض القتل وإزهاق الأرواح والاستعلاء والطغيان وإنما هو تضحية وفداء وبذل لأعزّ وأسمى ما يملكه الإنسان نفسه وماله لغاية شريفة نبيلة هي إعزاز الدين ونصرة الحق ودفع عدوان الظالمين[١].

ومن ينظر بفكر وإمعان إلى آيات القرآن يلحظ أنه تعالى: عندما يذكر القتال أو الجهاد لا يطلقه إطلاقاً بل يقيده بكلمة (في سبيل الله) وذلك ترسيخاً للمعنى السامي والمقصد النبيل في النفوس وهو أنّ الجهاد في سبيل الله فيه جهد مقدس لغرض شريف نبيل ولغاية جليلة سامية لا للاستعلاء والطغيان ولا لسلب خيرات البلاد[٢] قال تعالى: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩] وقال : ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

ولعظيم فضل الجهاد فقد وعد الله سبحانه المقاتلين في سبيله بأموالهم وأنفسهم بأن لهم الجنة إذا هم أوفوا بما عاهدوا الله فقاتلوا أعداءه في سبيل نصرة دينه فقتلوا أو قُتلوا، وقد خلد هذا الوعد في كتبه الإلهية فهو في القرآن الكريم وهو في الإنجيل الإلهي قال تعالى: ﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ

---

(١) انظر: محمد علي الصابوني، قبس من نور القرآن الكريم، ط٢ دار القلم دمشق ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ص٥٥.

(٢) محمد علي الصابوني، قبس من نور القرآن الكريم، ص٥٦.

وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ١١١] قوله: ﴿ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ﴾ يقول الزمخشري: «أخبر بأنّ هذا الوعد الذي وعده للمجاهدين في سبيله وعدٌ ثابتٌ قد أثبته في التوراة والإنجيل كما أثبته في القرآن»[١].

ومن أوضح الأدلة على الاشتراك في فرضية الجهاد في كل من القرآن الكريم والإنجيل الإلهي قوله تعالى مخاطباً أمة محمد ﷺ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤] فهذا أمرٌ من الله تعالى لعباده المؤمنين من أمة سيدنا محمد ﷺ أن يكونوا أنصار دين الله في جميع أحوالهم بأقوالهم وأفعالهم وأنفسهم وأموالهم وأن يستجيبوا لأمر الله ورسوله بالجهاد في سبيله كما استجاب الحواريون لعيسى عليه السلام. فقول عيسى عليه السلام للحواريين: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾: أي من مُعينيَّ في الدعوة إلى الله وإعلاء كلمته والتمسك بدينه ونشر هذا الدين وإقامة منهج الله في الأرض[٢].

ودعوة الله للمؤمنين أن ينصروا دين الله مثل نصرة الحواريين واستجابتهم لما قال لهم عيسى من أنصاري إلى الله: فيه إشارة إلى تأكيد أمر الجهاد وإلى وعدهم بالنصر وانتشار الدين[٣].

وفي الآية أيضاً إشارة إلى أنه: لابدّ لكل صاحب عقيدة ودعوة من أنصار ينهضون معه ويحملون دعوته ويُحامون دونها ويبلغونها إلى من يليهم ويقومون من بعده عليها[٤]، وقد كان الحواريون في عهد عيسى عليه السلام هم الذين وقع على عاتقهم مسؤولية حمل الدين ونشره والذود دونه بأموالهم وأنفسهم.

قال تعالى: ﴿ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ

---

(١) الزمخشري، الكشاف، ج٢ ص٢٩٩.

(٢) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ص١٨٧٠.

(٣) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج٩ ص٨٩.

(٤) قطب، في ظلال القرآن، م١ ص٤٠٢.

ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٥٢] وقد طلب عيسى عليه السلام من الحواريين ذلك لما وجد من بني إسرائيل الذين أرسله الله إليهم جحوداً لنبوته وتكذيباً لقوله وصداً عما دعاهم إليه من أمر الله تعالى(١).

وقوله ﴿ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾: فيه حثٌّ وتحفيزٌ للمؤمنين معه للمسارعة والمبادرة إلى نصرة الدين ونصرة الحق فهو عليه السلام يشير إلى أنه لا يُريد منهم إعانته ونصره من أجل عرض من أعراض الدنيا الزائلة أو غنيمة من غنائمها، وإنما طلب النصر والإعانة للذود والدفاع عن دين الله تعالى والعمل على نشره ومن نصر دين الله وأخلص النية له وحده نصره الله تعالى(٢)، وهي سنته التي ارتضاها سبحانه وتعالى في جميع الأمم وفي كافة كتبه الإلهية قال تعالى: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٤٠].

فالجهاد في سبيل دين الله تعالى ودعوته ومنهجه ونظامه بشتى الوسائل لا بد أن يكون المنطلق فيه هو الإيمان بالله تعالى استجابةً لأمره وامتثالاً لدعوته وإرادته وحكمته تعالى، لذلك كان جواب الحواريين لعيسى عليه السلام ﴿ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾: فكأنهم يقولون: يجب علينا أن نكون من أنصار الله لأجل أنا آمنا بالله فإن الإيمان بالله يوجب نصرة دين الله والذب عن أوليائه والمحاربة مع أعدائه(٣).

ومن ناحية أخرى فهم قد علموا أن عيسى عليه السلام يتكلم عن الله تعالى وأنه رسولٌ أمين ولذلك اعتبروا إجابة دعوته هي من إجابة دعوة الله تعالى وأنهم إذا كانوا نصراءه فهم نصراء الله تعالى(٤) ولذا قالوا أنصار الله ولم يقولوا أنصارك.

وفي قول الحواريين رضوان الله عليهم ﴿ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾: تأكيدٌ لالتزامهم بأمر الله تعالى وأن الجهاد في سبيل الله فرضٌ وواجبٌ عليهم يقتضي دينهم

---

(١) الطبري، جامع البيان، ج٣ ص٢٨٢.

(٢) انظر: طنطاوي، التفسير الوسيط، ج٢ ص١١٩.

(٣) القوجوي، حاشية محيي الدين شيخ زاده، ج٣ ص٧٧.

(٤) أبو زهرة، زهرة التفاسير، ج٣ ص١٢٣٧.

وإسلامهم لله أن يستجيبوا ويجاهدوا، يقول سيد قطب: «هؤلاء الحواريون يدعون الله أن يكتبهم مع الشاهدين لدينه أي أن يوفقهم ويعينهم في أن يجعلوا من أنفسهم صورةً حية لهذا الدين وأن يبعثهم للجهاد في سبيل تحقيق منهجه في الحياة وإقامة مجتمع يتمثل فيه هذا المنهج ولو أدوا ثمن ذلك حياتهم ليكونوا من الشهداء على حق هذا الدين»[1].

المطلب الخامس

الدعوة إلى ((بر الوالدين))

كان من أبرز ملامح الخطاب الدعوي للكتب الإلهية وعلى ألسنة الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - الذي انتهجوه في إصلاح الناس وتقويم سلوكهم أفراداً وجماعات هو غرس معاني الأخلاق الفاضلة في نفوسهم وترغيبهم في التمسك بها وتطبيقها سلوكاً واقعياً عملياً.

لا نجد في القرآن الكريم ترغيباً في أمر خلقي وتعظيماً لشأنه أكثر من الترغيب في بر الوالدين والأمر به حيث تجعله معظم الايات الكريمة في المنزلة التالية للإيمان بالله تعالى وإفراده بالعبادة والتقديس قال تعالى: ﴿ ۞قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ [الأنعام: ١٥١] وقد حذرت الايات الكريمة مراراً من عقوق الوالدين أو التهاون في برهما، ودعت إلى برهما والعطف عليهما فيما لا يخالف أمر الله تعالى قال سبحانه: ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ﴾ [العنكبوت: ٨] قال تعالى: ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ [الإسراء: ٢٣].

وقد كانت بواعث البر بالوالدين واللطف معهما وحسن صحبتهما ترجع إلى الإحساس الفطري الذي أودعه الله في البشر لما للأبوين من فضل عظيم على الأبناء من تحمل أعباء وجودهم والعناية بهم وحسن تربيتهم والحرص على تنمية أجسادهم

---

١) قطب، في ظلال القرآن، ج١ ص٤٠٢.

وإعداد قواهم ليكونوا عناصر فاعلة في مجتمعها خادمة لأمتها ودينها(١).

وقد زاد فضل الأم والبر بها والتوصية عليها لما تُعانيه في الغالب من مشقة الحمل والولادة والرضاع وغير ذلك قال تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [لقمان: ١٤].

وبر الوالدين كما هو مفروض في القرآن الكريم فقد فُرض في الإنجيل الإلهي فرضاً مؤكداً قال تعالى على لسان عيسى ﴿ وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ ﴾ [مريم: ٣١-٣٢] فكان الإيصاء به في سياق الأمر بأعظم العبادتين الصلاة والزكاة واختيار هذا الخلق بالذات يدلل أن له شأناً عظيماً عند الله تعالى واعتبار البر بالوالدين من أعظم العبادات ومن أعظم الأخلاق الحسنة على الإطلاق.

في الاية الكريمة دلالةٌ واضحة على أنّ بر الوالدين كان من شريعة الإنجيل الإلهي كما قال القرطبي رحمه الله: «دلت هذه الاية على أنّ الصلاة والزكاة وبر الوالدين كان واجباً على الأمم السالفة»(٢).

والبَرُّ: مبالغةٌ في الإكرام وحسن المعاملة والرفق والسعي في الطاعة(٣).

والأمر بالبر والطاعة والإحسان للوالدين من أهم مقتضاته الرأفة والرحمة بهما والتواضع والرعاية لهما وخاصة الأم التي يجب أن يتأكد حقها بمزيد من الحب والحنان والرفق واللين في التعامل ومن هذا المنطلق كان قوله عليه السلام ﴿ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ أي جعلني براً خاضعاً متواضعاً لأمي ولم يجعلني عتياً متكبراً مضيّعاً لحق والدتي التي تأكد حقها لقيامها مقام الوالدين، إلا أنه عليه السلام عبّر عن هذا المعنى بما يستلزمه وهو كونه جباراً شقياً في علم الله تعالى(٤).

---

(١) انظر: شلتوت، من توجيهات الإسلام، ص١٩٧.

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج٦ ص١٠٤.

(٣) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٦ ص٧٧.

(٤) الفوجوي، حاشية محي الدين شيخ زاده، ج٥، ص٥٤٦.

وقوله تعالى على لسان عيسى عليه السلام وهو في المهد صبياً ﴿ وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي ﴾ لا يعني مطلقاً أن البرّ في شريعة الإنجيل الإلهي واجباً للأم دون الأب لكنه عليه السلام لما لم يقل بوالديّ عُلم أنه شيءٌ من جهة الله تعالى[١] لما اقتضته إرادة الله تعالى وحكمته من ولادته عليه السلام من أم طاهرة دون والد.

وأيضاً فيه تأكيد على إحاطة الوالدة بمزيد من البرّ والإحسان لأنها مظنة للتساهل في برّها لضعفها ولفرط حنانها ولما أن برّ الوالدين كان ضعيفاً في بني إسرائيل الذين بُعث فيهم عيسى عليه السلام وخاصة الأم[٢].

ويحسن بنا في هذا السياق الإشادة بمريم عليها السلام والتي شرّفها سبحانه وتعالى لتكون أماً لرسول كريم وحمّلها مسؤولية التربية وحسن التنشئة لهذا النبي الكريم ليحمل الأمانة ويؤدي الرسالة.

وقد شرّفها سبحانه بتخليد ذكرها في القرآن الكريم بجانب ذكر عيسى عليه السلام فغالب ما يقال (عيسى ابن مريم) عليهما السلام فحريٌّ به عليه السلام أن يبرّ بها وهي جديرة بحسن صحبتها والإحسان إليها جزاء ما قاست بسببه فقد حملته كرهاً ووضعته كرهاً وقاست من الأذى والملام وتحملت ما تحملت في سبيل ذلك حتى برّأها الله تعالى بكلامه هو عليه السلام[٣].

فالداعي إلى البر بالوالدين وبالأم خاصةً لا يجب أن ينظر إليه مجرد أنه عاطفة إنسانية أو اعترافاً بالجميل وإنما هو آيةٌ من آيات الله تعالى وفضل منه ورحمة وفطرةٌ عجيبة في النفوس تحتّم لهما الحب والرعاية والاحترام والتقدير.

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج٦، ص١٠٤.

(٢) انظر: ابن عاشرو، التحرير والتنوير، ج١٦، ص١٠٠.

(٣) أبو زهرة، زهرة التفاسير، ج٩، ص٤٦٣٥.

الفصل الرابع

ما آلت إليه الكتب الإلهية السابقة (التوراة والإنجيل) من الاختلاف والتحريف والضياع

قرر القرآن الكريم أن الكتب الإلهية السابقة (التوراة والإنجيل) قد طرأ عليها التحريف والتبديل في نصوصها ومعانيها وآلت إلى التلاشي والنسيان والضياع.

ولا شك أن القرآن الكريم قام بدوره كاملاً تجاه ما سبقه من كتب إلهية بتصديقه لها وهيمنته عليها؛ فكان مقرِّراً حافظاً لما فيها من دين الله الواحد أميناً على ما فيها من وحيٍ إلهي حاكماً بحقّ على ما حُرِّف من عقائدها وشرائعها، وقد عمل على كشف وإبراز مواقع التحريف والتزييف وذكرها على ألسنة من يعتقدون بها ويدينون أنها الحق الذي أنزله الله تعالى وعمل على تمييز صحيحها من سقيمها وتصحيح وتقويم ما أدُعيَ افتراءً وكذباً أنَه وحيٌ من الله تعالى وردّه إلى حقائقه وأُصوله كما أنزلها الله تعالى.

المبحث الأول

صور وأشكال التحريف التي ذكرها القرآن الكريم وأسبابه

أشار القرآن الكريم إلى العديد من صور وأشكال العبث البشري بالكتب الإلهية (التوراة والإنجيل) بنصوصها ومعانيها بالقدر الذي أدى إلى تلاشي وضياع معالم هذه الكتب بتكاليفها وحقائقها وأحكامها وإخراجها عن حدود وخصائص الوحي الإلهي الذي أنزله الله تعالى.

المطلب الأول

صور وأشكال التحريف في الكتب الإلهية السابقة (التوراة والإنجيل)

أولاً: التحريف، وكانوا يحيلون الكلام بألفاظه وجمله وعباراته عن الوضع الذي نزل فيه ولأجله والمعنى المقصود منه إلى طرفٍ بعيدٍ عن لبّه وعن معناه حتى تتبدل

ألفاظه وتراكيبه وتتغير معانيها عن المعنى المراد لله تعالى[١] قال تعالى: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾ [المائدة: ١٣].

والتحريف قسمان:

أ- التحريف اللفظي: بتغيير ذات الكلام بألفاظه وعباراته وذلك بزيادة ألفاظ فيه تُذهب بأصل المعنى أو بحذف ألفاظ يُذهب بالمقصد من القول بدون تعويضه بغيره أو بتغيير الألفاظ وإبدالها بكلماتٍ أُخرى ليتغير معنى النص[٢].

ب- التحريف المعنوي: بتفسير الكلام وتأويله تأويلاً باطلاً وحمله على غير ما تدل عليه الألفاظ وغير ما يُراد منها وإدخال احتمالات في الألفاظ وهي غير قابلة لها وتوجيه المعاني إلى غير مقاصدها[٣].

وقد عمد هؤلاء الأحبار إلى تحريف وإبطال كلام قائم مستقرة مواضعه بوضوح ما فيه من أحكام وثبوت هذه الأحكام والاعتراف بها واشتهارها والعمل بما فيها[٤]. كما قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ﴾ [المائدة: ٤١].

وقد كان تحريفهم لذلك وهم يعلمون فساد ما حرّفوه وبطلانه عالمين بمقاصد الألفاظ والتراكيب ومدلولاتها قال تعالى: ﴿ ۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٧٥]

---

(١) انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ج٤ ص٩٣. أبو زهرة، زهرة التفاسير، ج٤ ص٢٠٨١.

(٢) انظر: رضا، تفسير المنار، ج٦ ص٢٣٥. أبو زهرة، زهرة التفاسير، ج٤ ص٢٠٨١.

(٣) انظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج٢ ص٢٧٢. أبو زهرة، زهرة التفاسير، ج٤ ص٢١٨٨.

(٤) أحمد بن الزبير الغرناطي (ت ٧٠٨هـ)، ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، تحقيق: سعيد الفلاح ط١ دار الغرب الإسلامي ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ج١ ص٣٧٩.

فقوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ أي من بعد ما فهموه وأدركوا تأويله وضبطوه بعقولهم ولم تبقَ لهم في صحة مضمونه ولا كونه كلام الله رب العزة أدنى ريبة وأدنى شبهة[١].

ثانياً: هناك أسلوب شفهي لساني في التحريف بطريقة النطق للألفاظ والأحرف كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنۡهُمۡ لَفَرِيقٗا يَلۡوُۥنَ أَلۡسِنَتَهُم بِٱلۡكِتَٰبِ لِتَحۡسَبُوهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٨]، واللّي: عبارة عن عطف الشيء وردّه عن الاستقامة إلى الاعوجاج[٢] فقوله ﴿يَلۡوُۥنَ أَلۡسِنَتَهُم بِٱلۡكِتَٰبِ﴾ بمعنى يفتلون الألسنة في القراءة عن الوجه الصحيح بالتحريف في الحركات أو تغيير الحرف من مخرجٍ إلى آخر تغييراً يتغّير به المعنى، أو بمعنى يميلون ألسنتهم بما يشابه اللفظ بحيث يعطي الناطق للفظ معنىً آخر غير المعنى الذي يظهر منه أو يصرفه إلى غير المعنى المراد منه (مثل: من زنى فارحموه بدل فارجموه- ومثل السام عليكم بدل السلام عليكم) وهم بذلك يوهمون الناس أن كتاب التوراة قد جاء بذلك لكنه في غاية البعد عنه[٣]، ولم يكتفوا بالفعل القبيح من التبديل والتحريف واللّي حتىٰ عضدوا ذلك بالقول ليطابق الفعل القول فكانوا يصّرحون بأنه في التوراة هكذا وقد أنزله الله على موسى كذلك، وهذا لفرط جرأتهم على الله بالكذب والافتراء[٤] قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾.

ثالثاً: الإخفاء قصداً لكثير من نصوص التوراة كما قال تعالى: ﴿قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِۖ تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗاۖ﴾ [الأنعام: ٩١] بمعنى تجعلون الكتاب الذي أُنزل على موسى عليه السلام أوراقاً مفرّقة وكتباً مقطّعة،

---

(١) انظر: الزمخشري، الكشاف، ج١ ص١٨٤. أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج١ ص١٥١.

(٢) الرازي، مفاتيح الغيب، ج٣ ص٢٦٨.

(٣) انظر: الخفاجي، حاشية الشهاب، ج٣ ص٧٦. البقاعي، نظم الدرر، ج٢ ص١١٦. رضا، تفسير المنار، ج٣ ص٢٨٤.

(٤) انظر: أبو حيان، البحر المحيط في التفسير، ج٣ ص٢٢٨.

قاصدين متعمدين وذلك لتتمكنوا من إخفاء ما تريدون من أحكام الكتاب وأخباره وما كان لكم هوىً في إسراره وكتمانه عن الناس وما تريدون به تبديل الدين.

وتُبدون ما تحبون مما كان لكم هوىً في إظهاره للناس من أحكام الله ودينه[١]، وأخبر الله سبحانه أنّ محمداً ﷺ قد بيّن كثيراً مما كانوا يخفونه ولا يبينوه للناس في كتابهم قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ﴾ [المائدة: ١٥] وما أظهره وبيّنه مما كتموه وأخفوه ما كان في إظهاره مصلحةٌ دينية مما لا بد من بيانه من الأحكام والأخبار وكل ما كان فيه إحياءُ شريعةٍ ربانية وإماتة بدعة[٢].

رابعاً: الكتمان[٣] لكثير من النصوص الإلهية المنزّلة عن قصدٍ منهم وتعمُّد، والكتمان: هو ترك إظهار الشيء قصداً مع مساس الحاجة إليه وتحقّق الداعي إلى إظهاره وذلك قد يكون بمجرد ستره وإخفاءه وقد يكون بإزالته ووضع شيء آخر في موضعه[٤] قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩] فهم قد كتموه عن كل أحد ومنعوا من لا يعلمه من الوصول إليه ليتأتّى نسيانه وإضاعته، وحقيقةً قد بيّنه الله وأظهره ووضّحه في التوراة، وبفعلهم هذا قد اعتدوا على من يستحق ذلك من عباد الله تعالى لأنهم هم من جُعلت تلك الأحكام والدلائل والإرشاد للهدى من أجلهم وقد حُرموا منها وهم في أشد الحاجة إليها وبيان الحقّ فيها[٥].

---

(١) انظر: الطبري، جامع البيان، ج٥ ص٢٦٥. البقاعي، نظم الدرر، ج٢ ص٦٧٢. رضا، تفسير المنار، ج٧ ص٥١١.

(٢) انظر: الزمخشري، الكشاف، ج١ ص٦٥١.

(٣) الفرق بين الكتمان والإخفاء: أن الإخفاء يكون لشيء معروف ولكن أُخفي وحجب عن الأنظار أما الكتمان فهو إخفاء شيء لم يُبح به ولم يُعرف من قبل وهو أشد في الوقعية والمكر. انظر: عابد توفيق الهاشمي، التربية في التوراة، ط١ مؤسسة الرسالة بيروت ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، ص٣٦.

(٤) أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج١ ص٢٢٣.

(٥) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢ ص٦٧.

=

وقد أخذ الله سبحانه العهد الموثّق على أهل التوراة والإنجيل بأن يُظهروا جميع ما في الكتاب (من التوراة والإنجيل) من شرائع الله وأحكامه وأخباره وأن يوضحوا معانيه ويعلموها للناس كما هي ولا يحرفوا تأويلها، وأن يذكروا مقاصده التي أنزل لأجله وذلك حتى لا يقع في فهمه لبس ولا اضطراب وأن لا يكتموا منه شيئاً وأن يجتنبوا إخفاء شيء منه[1] كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧] وقوله تعالى: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ إشارة إلى أنهم نقضوا ميثاق الله الذي أكّده عليهم واستهانوا به ولم يعملوا به، وفيه إشارة إلى أنهم أعرضوا عن الكتاب بالكلية وضيّعوه وأهملوه إهمالاً مطلقاً إهمال آياته وإهمال معانيه، فبقي العامة مع ذلك في جهلٍ وظلام عن أمر دينهم وحقائقه وأُصوله[2].

خامساً: لبس الحق بالباطل لتضليل الناس والتشويش عليهم وخداعهم كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧١] وأهل الكتاب هنا هم أهل التوراة والإنجيل[3]، وكان أحبارهم ورهبانهم يعمدون إلى تلبيس حقائق الدين الحقّ المبين الذي لا مرية فيه في كتبهم بما أدخلوا فيه من الأكاذيب والتأويلات الباطلة حتى اختلط الدين الحقّ بما زعموا ولفقّوا أنّه دينٌ يجب اتباعه وأنه من عند الله حتى صارت حقائق الدين الإلهي مبهمة مموّهة للعامة فارتفعت الثقة لديهم بجميعه[4].

وغالب إلباسهم الحق بالباطل يكون في المعاني وخلط الأُمور المتشابهة التي يعسر التمييز معها أو يُتعذّر، فالحقائق الثابتة التي لا تتغيّر والتي تعترف بها النفوس بقطع

---

(١) انظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج٢ ص٧٧. ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٤ ص١٩٢. رضا، تفسير المنار، ج٤ ص٢٢٦.

(٢) انظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج٢ ص٧٧. ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٤ ص١٩٢.

(٣) الطبري، جامع البيان ج٣ ص٣٠٨.

(٤) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٣ ص٢٧٩. رضا، تفسير المنار، ج٣ ص٢٧٤.

النظر عن شهواتها، يخلطون ما فيها من دلائل الحق ومعانيه مما لا لبس أنه من عند الله تعالى بما يخترعونه ويكتبونه بأيديهم من الشبهات التي تشوّش تلك الدلائل والمعاني على كل من سمعها حتى يشتبه أحدهما بالاخر فلا يعود يُدرك الحقّ على وجهه ولا يُميّز عن الباطل[(١)] قال تعالى في سياق آخر: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٤٢].

سادساً: نسيان الأحبار والرهبان لنصيبٍ وافر مما يحفظونه من نصوص التوراة والإنجيل مع تقادم الزمن وقلة من يحفظها عن ظهر قلب ومع هجر الدين وقلة الممارسة والتعليم قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ [المائدة: ١٣] وقال تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ [المائدة: ١٤] تشير هاتان الايتان أن ترك الأحبار والرهبان نصيباً وافياً من التوراة والإنجيل كان عن غير قصد وعن غفلةٍ منهم لكنَّ ذلك حقيقةً ما كان إلا بسبب فساد قلوبهم وقسوتها وقلة تعهّد الدين وقلة الاهتمام به والإهمال لكثيرٍ من أحكامه التي تخالف الأهواء، مما أدى إلى ترك كثير مما في الكتاب مما كان صريحاً فيها لا يقدرون لصراحته ووضوحه على تحريفه فأصبح مهجوراً غير مُكتَرِثٍ به ولم يكن لهم رجوعٌ إليه[(٢)] وكما قال الشافعي رحمه الله تعالى:

شكوت إلى وكيعٍ سوء حفظي ... فأرشدني إلى ترك المعاصي
وأخبرني بأنّ العلم نورٌ ... ونورُ الله لا يُهدى لعاصي[(٣)]

---

(١) انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ج١ ص٤٨٥. أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج١ ص١٢٨. ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١ ص٤٧١.

(٢) انظر: البقاعي، نظم الدرر، ج٢ ص٤١٦. ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٦ ص١٤٣. أبو زهرة، زهرة التفاسير، ج٤ ص٢٠٨١.

(٣) محمد بن إدريس الشافعي (ت ٢٠٤هـ) ديوان الشافعي، تقديم ومراجعة: إحسان عباس ط١ دار صادر بيروت ١٩٩٦م قافية الصاد، ص٣٩.

وقد كان من أبرز وأعظم آثار نسيان حظ عظيم من كتبهم الإلهية هو فقدان وضياع هذه الكتب لأنّ ما نزل بهذه الأمم من الشدائد والدمار وتسلط الأقوام عليهم وتفرقهم في الأرض أُمماً ساعد على ضياعها وفقدانها ولم يكن أحد يحفظها عن ظهر قلب ولم ينقلها الجمّ الغفير الذي يؤمن تواطؤهم على الكذب والتبديل والتغيير في كلّ العصور بل قد انقطع سندها وفقدت الثقة بناقليها[1] ولذلك جاء وصف الله لهم بـ ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [النساء: ٤٤] وذلك بسبب فقد الكتاب وعدم حفظهم له كله في الصدور ثم إنّ الذي اوتوه منه وبقي لهم ما كانوا يعملون به كما يجب، ولا يقيمون ما يعملون به منه كما ينبغي بل كانوا يحرفونه عن مواضعه باللّي والتأويل على أنه وصل إليهم محرّفاً لفظه لأنّه نقل من قراطيس وصحفٍ متفرقة لا ثقة بأهلها ولا بضبط ما فيها[2].

سابعاً: ابتكار كتبٍ ووضعها من عند أنفسهم ينسبونها إلى الله تعالى كما قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩] فهذه الاية إشارةٌ إلى تلاشي التوراة وضياعها حيث عمد علماؤهم وأحبارهم إلى تحريف كتاب الله تعالى وكتبوا كتاباً أودعوه آراءهم وما يضعونه ويبتكرونه مما يخالف ما أنزل الله على موسى عليه السلام من عقائد الدين وأحكامه لا مصدر لذلك إلا تأويلاتهم الزائفة الفاسدة، وقد حملوا الناس على التعبّد بها وأفسدوا عليهم دينهم موهمين عامّتهم وجهّالهم ممن لا يعلمون شيئاً عن كتاب الله تعالى أنّ مصدر ذلك هو الله تعالى[3].

---

(١) انظر: رضا، تفسير المنار، ج٦ ص٢٣٧.

(٢) رضا، تفسير المنار، ج٦ ص٢٣٧.

(٣) انظر: الطبري، جامع البيان، ج١ ص٤٢٢. ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١ ص٥٧٥. رضا، تفسير المنار، ج١ ص٢٩٥.

المطلب الثاني

الأسباب والعوامل التي ساعدت على التحريف

أولاً: الاختلاف في الدين، ذلك أنّ القائمين على الدين من أهل الكتاب (التوراة والإنجيل) قد افترقوا مذاهب وشيعاً في أصول الدين وفروعه وكلٌّ فرقة بما يمثلها من العلماء والرؤساء والأحبار أو الرهبان أخذت تنازع الفرقة الأُخرى وتقاتلها في الدين الذي هو دينٌ واحد لا محلّ فيه للتنازع والاختلاف.

وقد تجاوزوا الحدود في هذا الاختلاف حسداً وتنافساً في الدنيا بين بعضهم البعض مما نجم عنه شبهاً أبدتها كل فرقة ودعاوٍ ادّعتها لينتصر كلٌّ إلى مذهبه وشيعته، ويعمل على تضليل من خالفه ولخدمة ذلك عملوا على تفسير نصوص الدين بالرأي والهوى وتأويل بعضه أو تحريفه[١] قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ﴾ [آل عمران: ١٩] وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ﴾ [البقرة: ١٧٦] فالاختلاف بعدٌ عن الحقّ ككتمانه لأنّ الحق واحدٌ وهو ما يدعو إليه الكتاب والمختلفون لا يدعون إلى شيءٍ واحد ولا يسلكون سبيلاً واحدة[٢].

ومن أبرز ما ساعد على الاختلاف هو عدم ثبات لغة الوحي لتلك الكتب الإلهية وإن نقلها وترجمتها أدى إلى خلل في كثير من المفاهيم فضاعت اللغة التي نزل بها الوحي وتاهت العقيدة والشريعة بين الألفاظ والمصطلحات[٣].

ثانياً: الغلوُّ في الدين غلُوا باطلاً كما قال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧] والغلوُّ في الدين: المبالغة وتجاوز الحد في اتباع الحقّ

---

(١) انظر: البقاعي، نظم الدرر، ج٢ ص٤٤. المراغي، تفسير المراغي، ج٣ ص١٢٠.

(٢) رضا، تفسير المنار، ج٢ ص٨٦.

(٣) انظر: مكي، الديانة الإسلامية، ص٩٦.

مما نزل به الوحي إلى ما تهوى الأنفس وتبتدع[١].

والغلوّ في الدين نوعان:

أ- الغلو الحق: بأن يبالغ في تقرير حقائقه وتأكيدها وأن يبالغ في إبراز ما فيه من معانٍ ودلالات بعيدة عن الظاهر وأن يجتهد في تحصيل حججه.

ب- الغلوّ الباطل: وهو الذي ساق بعض الأمم السالفة إلى الانحراف والتحريف، ومعناه أن يتجاوز الإنسان الحق ويتخطّاه بالإعراض عن الأدلة وإخفاء الدلائل وأن يتكلف في تقرير الشبه واتّباعها[٢]، وإن من أهم معالم الغلو الباطل في الدين - والذي كان من أهم أسباب تحريف أهل الإنجيل خاصة لكتابهم- هو عدم إتباع سنة الرسل والنبيّين ومنهاج الصالحين من الحواريين السائرين على وفق منهج الله ودينه وفي حدود ما أمر به ونهى عنه في كتابه الكريم، والغالين بنفس الوقت يتبعون أهوائهم ويقلدون أصحاب الأهواء والبدع منهم ويتخذوهم قدوة[٣].

ثالثاً: أكل أموال الناس بالباطل باسم الدين من قبل الأحبار والرهبان بما يأخذونه مقابل التحريف من متاع الدنيا وحطامها الزائل كالرشوة والجُعل على الفتاوى الباطلة والرشاوى والجوائز من أهل الأهواء والظلم من الرؤساء على تأييد الظلم والمفاسد، فكان هؤلاء الأحبار والرهبان يتخذون الدين في كتبهم الإلهية تجارة مع علمهم بأن ذلك موجبٌ لهم سخط الله وأليم عقابه[٤]. قال تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣٤] بمعنى أن علماء اليهود وعُبّاد النصارى وعلماؤهم يبيعون الدين بالدنيا مستغلين مناصبهم ورياستهم في الناس فيأخذون الرُشى في الأحكام والتخفيف

---

(١) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ص٦٣٩. رضا، تفسير المنار، ج٦ ص٤٠٣.

(٢) انظر: الزمخشري، الكشاف، ج١ ص٦٩٩. الرازي، مفاتيح الغيب، ج٤ ص٤١١.

(٣) انظر: رضا، تفسير المنار، ج٦ ص٤٠٣.

(٤) انظر: الطبري، جامع البيان، ج٢ ص٩٧. ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٤ ص١٩٢. رضا، تفسير المنار، ج٢ ص٨١.

والمسامحة في الشرائع يحرّفون بذلك كتاب الله ويصدون الناس عن اتباع الحق الذي أنزله الله إلى ما يكتبونه ويدّعونه ويُلبسون على الناس دينهم[١].

رابعاً: حُبّاً للسلطان وطلباً للرياسة والغلب والاستطالة على الناس، فكان الأحبار والرهبان يلجئون إلى تحريف الكثير من الأحكام تخفيفاً عن العامة وطلباً لرضاهم ليكسبوا محبتهم وودّهم وليبقوا متمتّعين عندهم بالجاه والرياسة والإدلال عليهم بالعلم من غير أن يعملوا به[٢].

خامساً: لجوء العامة من أهل الكتاب إلى تقليد أحبارهم ورهبانهم وعلمائهم وعدم أخذهم الدين من كتاب الله تعالى ذلك أَنّ الكتب الإلهية (التوراة والإنجيل) كانت بأيدي هؤلاء العلماء ولم يكن في أيدي العامة من نسخها شيء فعدُّوا كلام أحبارهم ورهبانهم ديناً ينسبونه إلى الله وادعوا لهم العصمة بَيْد أنّ هؤلاء الأحبار والرهبان كثيراً ما يقولون في الدين بآرائهم ويحرّفون الكلم عن مواضعه ليؤيدوا بذلك أقوالهم[٣] وقريب من ذلك قوله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] بمعنى أنهم كانوا يأخذون بأقوال أحبارهم ورهبانهم المخالفة لما هو معلومٌ بالضرورة أنه من الدين، فكانوا يعتقدون أن أحبارهم ورهبانهم يحللون ما حرّم الله ويحرمون ما أحلّ الله[٤].

سادساً: كثرة اقتراف المعاصي وقلة الاكتراث بالدين مع عدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مما أدى إلى قلة حفظ الدين وإهماله قال تعالى: ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٩] ولا شك أن ترك العلماء للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والرضى بذلك يؤدي إلى تجرؤ

---

(١) انظر: الزمخشري، الكشاف، ج٢ ص٢٥٣. ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ص٨٧٥.

(٢) انظر: أبو زهرة، زهرة التفاسير، ج٣ ص١٥٤٢. رضا، تفسير المنار، ج١ ص٢٩٥. أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج١ ص١٥٥.

(٣) انظر: رضا، تفسير المنار، ج٧ ص٥١١ وج٣ ص٢٨١.

(٤) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٠ ص١٦٩.

الفُسّاق والعصاة على إظهار فسقهم وفجورهم والإغراق في ارتكاب محارم الله واقتراف معاصيه، فتغدو المنكرات تُشاهد بالعيون وتُسمع بالاذان ولا تحرّك للعالم ساكناً فتزول وحشتها وقبحها من النفس[١].

وقد كانت هذه الأسباب والعوامل التي ساعدت على التحريف والتغيير والتبديل بالكتب الإلهية (التوراة والإنجيل) تقع ضمن إطار عدم حفظ أهل الكتاب لكتابهم وخيانتهم الأمانة التي حمّلهم الله إياها، إذ هو سبحانه لم يتعهّد بحفظه وإنما حمّلهم أمانة فهمه حق الفهم وأمانة تبليغه للأُمة على ما هو عليه غير مُبدَّلٍ ولا مُغيَّر ولا مُؤَوّل تأويلاً لأجل الهوى[٢] قال تعالى: ﴿ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ ﴾ [المائدة: ٤٤].

وشبه الله سبحانه الذين كلفّهم أمانة حفظ التوراة وحملها فلم يحفظوها ولم يعملوا بما فيها ولم يؤدّوا حقّها ولم ينتفعوا بها كمثل الحمار الذي يحمل كتباً وهو لا يدري ما فيها ولا ينتفع بها قال تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الجمعة: ٥] وقوله: ﴿ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ﴾ بأن علّمهم الله إيّاها وكلّفهم حفظ ألفاظها عن التغيير والنسيان ومعانيها عن التحريف والتلبيس وحفظ حدودها وأحكامها عن الإهمال والتضييع[٣].

---

(١) انظر: رضا، تفسير المنار، ج٦ ص٤٠٤.

(٢) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٦ ص٢٠٩.

(٣) انظر: البقاعي، نظم الدرر، ج٧ ص٥٩٦. البغوي، معالم التنزيل، ج٤ ص٣١١.

المبحث الثاني

كشف القرآن الكريم لبعض مواقع التحريف في التوراة وإبطاله

كشف القرآن الكريم عن بعض مواقع التزييف والتحريف في التوراة وبيّن - وعلى ألسنة اتباعها- ما طرأ على دين الله فيها من اعتداءات وافتراءات وأباطيل في عقائده وشرائعه وأحكامه.

وعمد القرآن الكريم إلى إبطال هذه المعتقدات الفاسدة بكافة الحجج والأدلة التي ترشدهم إلى الحق وتعيدهم إلى الأصول الصحيحة لدين الله تعالى بكل مقاصده ومعانيه.

المطلب الأول

تحريف العقائد

زعم يهود بني إسرائيل أن إصابة الحق والهداية لا تكون إلا باتباع دين اليهودية ولا يتقبل الله سواه[1] فهو الدين الحق وليس الإسلام القائم على أساس توحيد الله تعالى والإخلاص له بالطاعة والعبودية والذي هو دين إبراهيم عليه السلام. ودين جميع الأنبياء قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُواْ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٣٥] فجاء بيان الحقّ من الله تعالى يأمر نبيّه محمد ﷺ بالرد عليهم بأنّ اتباع ما دعا إليه إبراهيم عليه السلام والاستنان بسنته هو الهدى وهو الحق وهم يشهدون بأنه ما دعا إلا إلى دين الله الذي ارتضاه واجتباه وأمر به، حيث لم يكن مشركاً بالله سواه وكان مائلاً عن الباطل إلى دين الإسلام الحق[2].

وقد أشار سبحانه وتعالى أنّ اليهودية دينٌ وضعي حدثت بعد موسى عليه السلام وما كان يدين بها ولا الأنبياء عليهم السلام من قبله وأنهم براء منها، قال تعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ

---

(١) انظر: الطبري، جامع البيان، ج١ ص٦١٥. المراغي، تفسير المراغي، ج١ ص٢٢٥.

(٢) انظر: أبو السعود إرشاد العقل السليم ج١ ص٣٠٤. الطبري، جامع البيان، ج١ ص٦١٥.

﴿أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٠] وكان الأحبار قد كتموا ما عندهم من علم عن الله وما ألزمهم بيانه بأنّ إبراهيم عليه السلام والأنبياء من بعده هم على دين الإسلام لا يدينون بغيره[(١)].

كشف القرآن الكريم عن عقيدة اليهود في الذات الإلهية واعتداءهم وجرأتهم على ربهم ووصفهم إيّاه بما ليس من صفته وبما لا يليق بجلاله سبحانه، وكان هذا الكشف من خفيّ علومهم ومكنونها التي لا يعلمها إلا أحبارهم وعلماؤهم دون غيرهم من اليهود[(٢)] قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ﴾ [المائدة: ٦٤] فقولهم ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ﴾ إشارة إلى أنه يقتّر ويضيّق الرزق ولا يبسطه غاية البسط، كناية عن بخل الله - تعالى- وعجزه[(٣)].

وكان ردّ الله سبحانه وتعالى عليهم بأنه سبحانه في غاية الجود وإن تقتيره الرزق أو إمساكه على بعض الأفراد من خلقه لا ينافي جزيل عطائه وسعة فضله، إذ أن إنفاقه تابعٌ لمشيئته وإرادته وتصرفه في الوجود المبني على الحِكم التي يدور عليها أمر المعاش والمعاد[(٤)].

ومن ردّ الله تعالى على اليهود وصفهم الله بما لا يليق بجلاله قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٖ ﴿٣٨﴾ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [ق: ٣٨-٣٩] فقوله: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٖ﴾ بمعنى ما مسّنا من إعياءٍ ما ولا تعبٍ في الجملة وهذا ردٌّ على جهلة اليهود في زعمهم أنه تعالى بدأ خلق العالم يوم الأحد وفرغ منه يوم الجمعة واستراح يوم السبت واستلقى على العرش سبحانه عما يقولون علواً كبيراً[(٥)].

---

(١) انظر: الطبري، جامع البيان، ج١ ص٦٢٧. أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج١ ص٢٠٩.

(٢) انظر: الطبري، جامع البيان، ج٤ ص٦٣٩.

(٣) انظر: البقاعي، نظم الدرر، ج٢ ص٤٩٨.

(٤) انظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج٢ ص٢٩٥.

(٥) أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج٦ ص١٣١. وانظر: جلال الدين السيوطي، أسباب النزول، =

تتمحور عقيدة اليهود في رسل الله تعالى في أنهم يفرقون بين رسل الله في الإيمان فآمنوا ببعض وكفروا ببعض وادعوا على هؤلاء الرسل الأباطيل وكذبوهم وزعموا أنهم قد افتروا على ربهم بما جاءوا به من وحيٍ قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۝ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴾ [النساء: ١٥٠-١٥١] فأخبر سبحانه أن ذلك ضلالٌ لهم أحدثوه وبدعةٌ ابتدعوها يدعون أهل الجهل من الناس إليها ولا سبيل لهم إلى ذلك إلا حسداً وعصبية ولمجرد اتباع الهوى وما ألفوا عليه آباءهم لا عن دليلٍ قادهم إلى ذلك.

وإنّ إيمانهم بمن آمنوا به من الأنبياء لا يُعدُّ إيماناً شرعياً ذلك أن الإيمان واجبٌ بكل نبيّ بعثه الله إلى أهل الأرض وأنّ المؤمن بالكتب والرسل هو المصدق بجميع ما في الكتاب الذي يزعم أنه به مصدق وبما جاء به الرسول الذي يزعم أنه به مؤمن[1] يقول ابن عاشور: «الإخبار عن اليهود ذلك على وجه الذم ووصفهم بالكفر يدل على أن الله سبحانه قد شرع لهم في كتبهم الصحيحة الإيمان بجميع الرسل على حدٍّ سواء وعدم التفريق بين أحدٍ منهم والإيمان بهم يكون بتصديق ما أتوا به»[2].

وقد كان من أعظم مظاهر نقضهم لميثاق الله تعالى في التوراة الإلهية في دعوتها إلى الإيمان بجميع رسل الله تعالى هو تجرئهم على قتل أنبياء الله تعالى ورسله بغياً وعدواناً وبغير شبهة حق قال تعالى: ﴿ لَقَدۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ رُسُلٗاۖ كُلَّمَا جَآءَهُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُهُمۡ فَرِيقٗا كَذَّبُواْ وَفَرِيقٗا يَقۡتُلُونَ ﴾ [المائدة: ٧٠] وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٨٣] فهم قد زعموا أن الله عز وجل

= تحقيق: حامد الطاهر ط١ دار الفجر للتراث القاهرة ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، ص٣٨٦.

(١) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ص٥٤٧. الطبري، جامع البيان، ج٤ ص٣٨٦.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٥ ص٩.

أوصاهم في التوراة وأمرهم بألا يصدّقوا رسولاً فيما يقول أنه جاء به من عند الله -من أوامر وتكاليف- حتى تأتي النار على ما يقدمونه من قرابين وصدقات لله تعالى فتحرقه علامةً على القبول من الله ودليلاً على صدق الرسول، فكشف سبحانه بأنّ هذا من مفترياتهم وزعمهم الباطل فقد جاء أنبياؤهم من قبل بعين هذا الذي زعموه لكنهم قابلوهم بالقتل والتكذيب والمخالفة، وإن أكل النار القربان لم يُوجِب الإيمان والتصديق إلا لكون ذلك معجزة كسائر المعجزات[1].

وإن مقابلة اليهود رسالة النبي محمد ﷺ بالتكذيب وعدم الإيمان ما هو إلا حلقة من سلسلة تكذيب رسل الله تعالى، وقد أشار القرآن الكريم أنهم عملوا على تحريف مواضع التبشير برسالة سيدنا محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين فضلوا وأضلوا، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٤٦] فعلماء أهل الكتاب قد عرفوا النبي ﷺ بجميع نعوته وأوصافه الشريفة المكتوبة في كتابهم فلا تشتبه عليهم ولا يشكّون فيها - كما لا يشتبه عليهم أبناؤهم- لكنْ علماءهم وأحبارهم عمدوا إلى إخفاء صفته عليه الصلاة والسلام كما جاءت في كتابهم ولم يعلنونها وهم يعلمون أنها حق وأنهم مذنبون بكتمانها[2] وكما قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠١].

من أهم معتقدات اليهود في اليوم الاخر أن النار لن تصيبهم في الاخرة إلا أَياماً قليلة تنقضي بسرعة ثم يرضى الله عنهم ويزيل عنهم العذاب[3] قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَـٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٨٠-٨١] جاء ردُّ الله عليهم بأنه سبحانه لم

---

(١) انظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج٢ ص٧٤. المراغي، تفسير المراغي، ج٤ ص١٥٠.

(٢) انظر: البقاعي، نظم الدرر، ج١ ص٢٧٠. أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج١ ص٢١٧.

(٣) انظر: البغوي، معالم التنزيل، ج١ ص٥٥.

يعدهم بذلك ولم يكن من جملة ميثاقه الذي عهد به إليهم، فهم بذلك يقولون على الله الباطل ويتقولون عليه جهلاً بغير علم؛ فإنّ هذا القول لا يكونُ إلا بوحي يبلغه الرسل عن الله تعالى[١].

فليس الأمر كما يتمنون ولا كما يشتهون بل إنّ من عمل سيئةً وأحاطت به خطيئته وهو من وافى يوم القيامة وليس له حسنة بل جميع عمله سيّئات فهذا من أهل النار، والذين آمنوا بالله ورسوله وعملوا الصالحات - من العمل الموافق للشريعة- فهم من أهل الجنة[٢]، وإن من يعتقد هذا الاعتقاد الفاسد من اليهود هو من أهل النار خالداً فيها وسيلقى عقوبة الله تعالى يوم يوفّى كل عاملٍ جزاء عمله على قدر استحقاقه غير مظلوم فيه فلا يُعاقب إلا على ما اجترم ولا يؤاخذ إلا بما عمل[٣] قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ[٤] وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [آل عمران: ٢٤-٢٥].

وكان اليهود يزعمون أن الجنة لن يدخلها أحدٌ من البشر إلا من كان يهودياً وأنها خالصة لهم لا يشركهم فيها أحد قال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [البقرة: ١١١-١١٢] إنّ قولهم هذا دعوى باطلة وأماني يتمنونها على الله بغير حق ولا دليل ولا حجة ولا علمٍ يقين بصحة ما يدّعون، إذ أنّه يُعدّ من أهل الجنة من أخلص

---

(١) انظر: المراغي، تفسير المراغي، ج١ ص١٥٤.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ص١٥٤.

(٣) انظر: الطبري، جامع البيان، ج٣ ص٢١٩.

(٤) قال هنا (معدودات) وفي آية البقرة (معدودة) لأن معدودات جمع قلّة فقصد بها من ادعى أنهم يُعذّبون سبعة أيام عدد أيام الدنيا، ومعدودة للكثرة قصد بها من ادعى أنهم يُعذبون أربعين يوماً وهي عدد أيام عبادتهم العجل. انظر: بدر الدين بن جماعة (ت ٧٣٣هـ) كشف المعاني في المتشابه من المثاني، تحقيق: عبد الجواد خلف، ط١ دار الوفاء باكستان ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م ص١٠٣.

دينه لله تعالى ولم يُشرك به شيئاً وهو محسنٌ في عمله مذعنٌ لأمر الله متذلّلٌ في طاعته يعبده على وفق ما أمر[١].

وقد طلب الله تعالى منهم إظهاراً لكذبهم وأنهم إذا كانوا محقين في هذا الاعتقاد فليتمنوا من الله أن يُميتهم وأن يطلبوا ذلك منه، فمن أيقن أن الجنة مأواه حنَّ إليها واشتاق إلى لقائها ولا سبيل إلى دخولها والوصول إلى ما فيها من النعيم والتخلص من تعب الحياة وكدرها إلا بعد الموت فليتمنّوه قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ۝﴾ [البقرة: ٩٤-٩٥] فلن يتمنوه أبداً لأنهم في قرارة أنفسهم موقنون أن الموت بهم نازلٌ وأنهم سُيبعثون، وأنّ وعيد الله سيحلّ بهم على ما عملوا من المعاصي المستحقة للعقوبة والموجبة لدخول النار[٢].

كشف القرآن الكريم عن الخلل وعظم الجهل فيما يعتقده اليهود في قضاء الله تعالى وقدره وأنهم إن يُصبهم خيرٌ ونعمةٌ ورخاء نسبوه إلى الله تعالى وإن تُصبهم بليةٌ وشدة من جدبٍ وغلاء أضافوها إلى البشر كالنبي ﷺ[٣]، قال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨] قوله: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ بمعنى من تقديره وتأثير قدرته فهو الذي قدّر ذلك وهيّأ أسبابه سواءً أراد الإحسان بأحد أو الإساءة، وهو سبحانه قدّر المنافع والمضار بعلمه وقدرته وخلق مؤثراتها وأسبابها وهو بنفس الوقت نصّب الأدلة للناس على المنافع والمضار التي تكتسب بمختلف الأدلة العقلية والشرعية وعلّم طرائق الوصول إليها وطرائق الحَيْدة عنها وبعث الرسل وشرع الشرائع فعلّمنا بذلك كله أحوال الأشياء ومنافعها

---

(١) انظر: الطبري، جامع البيان، ج١ ص٥٣٩. البغوي، معالم التنزيل، ج١ ص٦٩.

(٢) انظر: الطبري، جامع البيان، ج١ ص٤٧٣. البقاعي، نظم الدرر، ج١ ص٢٠١. البغوي، معالم التنزيل، ج١ ص٦٠.

(٣) انظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج٢ ص١٦٨.

ومضارها وعواقب ذلك في الدنيا والآخرة، فأكمل المنّة وأقام الحجة[١].

المطلب الثاني

تحريف الشرائع والأحكام

اتخذ اليهود أحبارهم وعلماءهم أرباباً من دون الله شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن بهِ الله وعدّوهم مصدراً للشرائع والأحكام، فكانوا يحللون ويحرمون برأيهم ويبيحون ويحظرون باجتهادهم ويزيدون في الأحكام والشرائع ويضعون ما شاءوا من الاحتفالات والشعائر قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [البقرة: ٨٣] فلم يُراعوا عهود الله ومواثيقه فيما شرعه لهم من تشريعات تحقّق سعادتهم في الدنيا والاخرة وأعرضوا عما فيها من الطاعة وخالفوا أوامر الله كلها، فقطعوا صِلاة القرابة ويخلوا بالنفقة الواجبة وتركوا النهي عن المنكر وفقدوا روح الصلاة ومنعوا الزكاة[٢].

إن تحريفهم وإعراضهم عما دعاهم الله إليه في التوراة الإلهية من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وتضييعهم لأعظم فرائض الله وتكاليفه وشرائعه هو من أبرز ما استحقوا عليه لعنة الله وغضبه وزاد من قسوة قلوبهم قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ﴾ [المائدة: ١٢-١٣]، فما كانوا يقيمون الصلاة كما أمر الله تعالى في كتابه وكانت

---

(١) انظر ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٥ ص١٣١.

(٢) انظر: رضا، تفسير المنار، ج١ ص٣٠١. ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ص١٥٥.

صلاتهم مجرد الإتيان بصورٍ ورسومٍ ظاهرة[١]، ومن أعظم ما يدلل على التحريف بها أنها كانت صلاة لا ركوع فيها بدليل أمر الله تعالى لهم بالركوع في قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣] يقول الألوسي: عبَّر بالركوع عن الصلاة احترازاً عن صلاة اليهود فإنها لا ركوع فيها، وإنما قيّد ذلك بكونه مع الراكعين لأن اليهود كانوا يصلون وحداناً فأُمروا بالصلاة جماعة لما فيها من الفوائد[٢].

وكانت نفوسهم شحيحة ببذل المال في سبيل الله إذ كانوا يقدّسون المادة وحينما يُطلب منهم إخراج الصدقات وإقراض الله قرضاً حسناً يتهمونه - سبحانه وتعالى- بأنه فقير ولو كان غنياً لما استقرضهم أموالهم[٣] قال تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [آل عمران: ١٨١].

أشار القرآن الكريم إلى تحريف يهود بني إسرائيل لحدود الله تعالى كتحريفهم حد الزنا وتغييرهم حكم الله تعالى بالرجم على الزاني إلى التحميم[٤] والجلد كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟﴾ [المائدة: ٤١] وكان علماؤهم وأحبارهم يعلمون أن حد الزنا في التوراة هو الرجم لكنّهم غيّروا وبدلوه إلى التحميم والجلد لإغراضٍ ومقاصد فاسدة في نفوسهم، فقد فشا الزنا في أشرافهم ولم يكونوا يقيمون عليهم حد الرجم فغيّروا حكم الله تعالى إلى التحميم والجلد ليتمكنوا من إقامة الحد على شريفهم ووضيعهم، وكانوا يحذرون بعضهم من الرضى والقبول بما يفتيهم به النبي ﷺ من الرجم على من زنى منهم وأنه

---

(١) انظر: رضا، تفسير المنار، ج١ ص٢٤٢.

(٢) الألوسي، روح المعاني، ج١ ص٢٤٩.

(٣) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٤ ص١٨٥. شحاتة، تفسير القرآن الكريم، ج٥ ص١٦٠١.

(٤) التحميم: أن يلطّخ وجه الزاني بالسواد تمثيلاً به. انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٦ ص١٩٥.

إذا أفتاهم بالتحميم والجلد فليقبلوه مدّعين أنه ما أنزله الله من حكم افتراءً وكذباً على الله تعالى[١].

عمل اليهود على تحويل الحق وتضليل الحقائق في حكم الله تعالى بتحريم بعض الطيبات عليهم في التوراة ووضعوه في غير موضعهِ وقالوا: إنّ تحريم بعض المطعومات على بني إسرائيل كان قبل نزول التوراة وهم ليسوا بأول من حرّمت عليهم وإنما هي محرّمة أيضاً على من تقدّمهم من الأمم قال تعالى: ﴿ ۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۚ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [آل عمران: ٩٣-٩٤] فكان الردّ عليهم من الله تعالى بأنّ كل المطعومات كانت حلالاً[٢] على بني إسرائيل باستثناء ما حرّم يعقوب عليه السلام على نفسه –من أكل لحوم الإبل وألبانها– من قبل نزول التوراة.

وطلب الله من نبيّه ﷺ إلزامهم - لإثبات ما يدّعونه- أن يأتوا بما عندهم من التوراة وتلاوتها على الملأ لبيان ما ادعوه فلما لم يأتوا بها قامت الحجة عليهم بأنّ الله لم يحرّم شيئاً من الطعام قبل التوراة وإنما جاء التحريم بالتوراة الإلهية تحريماً مترتباً على ظلمهم وبغيهم وارتكابهم المعاصي والاثام[٣] كما قال تعالى: ﴿ فَبِظُلۡمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ ﴾ [النساء: ١٦٠].

كشف القرآن الكريم عن انحرافات اليهود وتحريفهم لما دعتهم إليه التوراة الإلهية من التعامل مع الاخرين بصدقٍ وأمانة وتقوى واحترام حقوقهم وعدم أكل أموالهم بالباطل قال تعالى: ﴿ ۞ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّنۡ إِن

---

(١) انظر: ما أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الحدود باب رجم اليهود أهل الذمة في الزنى برقم (١٧٠٠) ج٣ ص١٣٢٧. علي بن أحمد الواحدي النيسابوري (ت ٤٦٨هـ) أسباب النزول، تحقيق: طارق الطنطاوي د.ط مكتبة القرآن بالقاهرة ١٩٩١م ص١٣٣.

(٢) كل المطعومات كانت حلالاً سوى الميتة والدم ولحم الخنزير فإنها لم تكن حلالاً قط، انظر: البغوي، معالم التنزيل ج١ ص٢٥٤.

(٣) انظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج٢ ص٤. رضا، تفسير المنار، ج٤ ص٥.

تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًاۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [آل عمران: ٧٥-٧٦] وفي إخبار الله تعالى أن منهم من يخون الأمانة ولا يؤدّيها لصاحبها وإن قلّت إلا في حال الإلحاح عليه والمبالغة في مطالبته بردّها إشارةٌ إلى أن ذلك راجعٌ إلى عقيدتهم في استحلال خيانة الأمانة وعدم الوفاء بالعهود وما كانوا يدّعونه - كذباً على شرعهم وأنّه من كتابهم- من أنّ الأُمم المخالفة لدينهم من الأمم الأُمية - كالعرب- الذين ليس لهم كتاب لا إثم ولا حرج في ظلمها واستحلال أموالها[١].

فبيّن سبحانه أنَّ ذلك كذبٌ وافتراءٌ عليه لأنّ الله سبحانه لم يُبح الخيانة في التوراة الإلهية وإنما دعاهم إلى أداء الأمانة والوفاء بالعهد وعدم الخيانة وعدم الحلف الكاذب، وأن تقوى الله ونيل محبته ورضاه يقتضي الأمانة بالمعاملة في القليل والكثير لأيّ شخص وعلى أيّة ملة[٢].

وأغرق اليهود في الظلم والعدوان على الاخرين واجترءوا على انتهاك حرمات الله تعالى وأخذوا الربا وتعاملوا به وكان محرّماً عليهم بالتوراة الإلهية، كما أخذوا أموال الغير بغير مقابل وبغير استحقاق كالذي كان يأخذه علماؤهم من الرشى على الأحكام وما كانوا يأخذونه من أثمان الكتب التي كانوا يكتبونها بأيديهم ثم يدعون أنها من عند الله وغير ذلك من المآكل الخسيسة الخبيثة[٣] قال تعالى: ﴿ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٦١].

وقد أشار الله سبحانه أن إغراق اليهود في العدوان وتجاوزهم الحقوق والحدود وما فيه من اعتداءٍ على الناس ومخالفة شرائع الله تعالى وأحكامه هو بتقصيرٍ من أرباب الدين والعلماء الذين كانوا يتركون فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويسكتون

---

(١) انظر: البغوي، معالم التنزيل، ج١ ص٢٤٧. أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج١ ص٣٨٣.

(٢) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٣ ص٢٧٩.

(٣) انظر: الطبري، جامع البيان، ج٤ ص٣٦٢. البغوي، معالم التنزيل، ج١ ص٣٩٧.

عما يشاهدون من ارتكاب ما هو محرّمٌ في التوراة من الكذب الذي يلزمه الإثم وأكل السحت كالرشوة وغير ذلك كما قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [المائدة: ٦٢-٦٣] وما سكوتهم عن هذه المنكرات والمخالفات إلا لتمرّنهم وإغراقهم في المعاصي وتمرّدهم وأصالتهم في الكفر واستهانتهم بالجراءة على الله سبحانه[1].

المبحث الثالث

كشف القرآن الكريم لبعض مواقع التحريف في الإنجيل وإبطاله

كشف القرآن الكريم عن بعض مواقع تحريفات نصارى أهل الكتاب للعقائد والشرائع في الإنجيل الإلهي وغلّوهم في دين الله بالقدر الذي أفسده وأخرجه عن حدوده ومقاصده.

فعمل القرآن الكريم على تصحيح هذه العقائد والشرائع وحكم في أمرها بحقّ وبيّن صحيحها من سقيمها، وردّ دين الله فيها إلى معالمه الصحيحة كما أنزله الله تعالى وأراده.

المطلب الأول

تحريف العقائد

أشار القرآن الكريم أنّ الديانة النصرانية ديانةٌ وضعية لا علاقة لها بالإسلام الذي هو دين الأنبياء جميعاً فقد كان نصارى أهل الكتاب (الذين تنصّروا من أهل الكتاب) يعتقدون أَنّ إبراهيم عليه السلام وأبنائَه كانوا على دين النصرانية وأنّ الهدى هو باتباعها، وكانوا يتجادلون ويتخاصمون مع اليهود في إبراهيم وملته ويزعم كل فريق أنّه منهم وعلى دينهم يهودياً أو نصرانياً[2] قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ

---

(١) انظر: البقاعي، نظم الدرر، ج٢ ص٤٩٦. رضا، تفسير المنار، ج٦ ص٣٧٢.

(٢) انظر: الطبري، جامع البيان، ج٣ ص٣٠٣. ابن عاشور، التحرر والتنوير، ج١ ص٧٤٨.

إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [آل عمران: ٦٥-٦٧] فنزول التوراة على موسى عليه السلام ونزول الإنجيل على عيسى عليه السلام كان بعد إبراهيم عليه السلام بدهورٍ طويلة وقد حدثت اليهودية وظهرت بعد عهد موسى بزمن طويل وظهرت النصرانية بعد عيسى عليه السلام، فالنصرانية ليست هي دين الهدى لان معتنقيها غير مؤمنين بالإسلام والمماثلة المعتبرة هي المماثلة في العقيدة، وإبراهيم عليه السلام كان دينه الإسلام مائلاً عن جميع العقائد الزائغة القائمة على الشرك بالله - كالنصرانية وغيرها- إلى دين الله المستقيم وهو الإسلام القائم على توحيد الله والإخلاص له وحده بالطاعة والعبودية[1].

وقد نسب الله سبحانه تسميتهم نصارى إلى أنفسهم في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ﴾ [المائدة: ١٤] إشارةٌ إلى أنّ الله تعالى لم يسمّهم نصارى وأنه افتراءٌ وتقولٌ محض؛ فإنهم ادعوا هذه التسمية ادعاءً وسمّوا أنفسهم بما لم يفوا به حيث النصارى[2]: أنصار الله تعالى وما أمر به، والمبالغون في نصرة الحق، وقد خالفت أفعالهم أقوالهم فإن ادعاءهم لنصرته تعالى يستدعي ثباتهم على طاعته تعالى ومراعاة ميثاقه بكل ما جاء فيه[3].

كشف القرآن الكريم عن أعظم تحريفات نصارى أهلِ الكتاب العقدية في الإنجيل الإلهي وهو غلوّهم في أمر المسيح عليه السلام واتخاذه ربّاً معبوداً أشركوه مع الله تعالى وزعموا أنه ابنٌ لله وذلك أقوى من مجرد الإطاعة في أمر التحليل والتحريم مثل

---

(١) انظر: البغوي، معالم التنزيل، ج١ ص٢٤٢. أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج١ ص٣٨٢. ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١ ص٧٤١.

(٢) قد تكون أصل تسمية النصارى نسبةً إلى الناصرة مخرج عيسى عليه السلام حيث كان يسمى عيسى الناصري انظر: البقاعي، نظم الدرر، ج٢ ص١١١.

(٣) انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ج٤ ص٣٢٦. البقاعي، نظم الدرر، ج٢ ص٤١٨. أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج٢ ص٢٥٠.

طاعتهم لرهبانهم.

فأبطل الله تعالى افتراءهم وردّ قولهم وادعاءهم بأنه سبحانه وتعالى مبّرأٌ ومنزّه عن أن يكون له ولد، وما أَمرهم في كتابهم إلا ليعبدوا الله تعالى وحده ويُطيعوا أمره ولا يخلّوا بعبادته بأن يطيعوا أمر غيره بخلافه[1] قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: ٣٠-٣١] وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ﴾ [البقرة: ١١٦] وهو سبحانه لا نظير له ولا شبيه له وكل ما في السماوات والأرض عبيدٌ له وملكٌ له وهو متصّرف فيهم وخالقهم ورازقهم ومصرّفهم كيف يشاء، وجميعهم منقادون له لا يستعصي شيءٌ منهم على تكوينه وتقديره ومشيئته، ومن كان هذا شأنه لا يُتصّور مجانسته لشيء ومن حقّ الولد أن يكون من جنس الوالد[2].

ومن أعظم ضلال بعض فرق النصارى وتحريفهم ادعاؤهم أَن المسيح هو الله عينه والله اتّحد بذات المسيح بمنزلة اتحاد الاسمين للمسمى الواحد[3] قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٧] وأظهر الله سبحانه بطلان قول النصارى وفساد اعتقادهم بأن لا أحد يقدر أن يمنع قدرته وإرادته وأن يدفع من أمر الله عز وجل شيئاً فيردّه إذا قضاه الله وأراده،

---

(١) انظر: الطبري، جامع البيان، ج١ ص٥٥٤. أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج٣ ص١٤٢.

(٢) انظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج١ ص١٨٧. ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ص١٩٠.

(٣) انظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج٢ ص٢٥٣. ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٦ ص١٥٥.

فكل شيء تحت قدرته تعالى وملكوته وله وحده تعالى ملك جميع الموجودات في السماوات والأرض والتصرف المطلق فيها إيجاداً وإعداماً وإحياءً وإماتةً ليس ذلك لأحدٍ سواه، فلو كان المسيح كما يزعمون - أنه هو الله- لقدر أن يردّ أمر الله إذا جاءه بإهلاكه وإهلاك أُمهِ، ففي ذلك حجّة ودليل أن المسيح بشر كسائر بني آدم وأن الله عز وجل هو الحيّ الدائم القيوم الذي يحيي ويُميت يُنشىء ويُفني وهو حيٌّ لا يموت(١).

وأظهر سبحانه وتعالى بطلان اعتقادهم ببيان أَن المسيح عليه السلام ما دعاهم إلا إلى الحق وقد توعدهم على عدم الاستجابة، فأمرهم بعبادة الله ربّه وربّهم وحده لا شريك له وأن من يشرك بالله فيعبد معه غيره فقد أوجب له النار وحرّم عليه الجنة وما له عند الله ناصر ولا معين ولا منقذ مما هو فيه(٢) قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [المائدة: ٧٢].

وكشف القرآن الكريم أن نصارى أهل الكتاب قد فرطوا في أمر دينهم وتجاوزوا حد التصديق بعيسى عليه السلام حتى رفعوه فوق المنزلة التي أعطاه الله إيّاها بتحريف أوصافهِ التي وصفه الله بها فنقلوه من حيّز النبوة إلى أن اتخذوه إلهاً من دون الله يعبدونه كما يعبدونه(٣) قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ [النساء: ١٧١] وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌ ﴾ المقصود منه النهي عن النطق بهذه الكلمة وعن الاعتقاد بها والنهي عن ما اشتهر من مدلول هذه الكلمة وما يلزم منها فالتثليث أصلٌ في عقيدة

---

(١) انظر: الطبري، جامع البيان، ج٤ ص٥٠٥.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ص٦٣٨.

(٣) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ص٥٦٥.

معظم طوائف النصارى لكنهم مختلفون في كيفيته، ومحصّله: أنّ الإله (ما يعرفه الناس أنه الله) هو مجموع ثلاثة أشياء: الله الذات (وهو الأب) المسيح الكلمة (وهو الابن) ما به كوّن المسيح في بطن مريم (وهو الروح القدس)[١].

فهذا افتراءٌ على الله تعالى وتفريط في أمر عيسى عليه السلام قد تجاوزوا به حدود الشرع فما هو إلا عبدٌ من عباد الله وخلقه، وهو مقصورٌ على صفة الرسالة لا يتخطاها وليس هو الله ولا ابن الله وإنما هو ابن مريم وحدها.

وقوله عن عيسى بأنه ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ بمعنى أن عيسى عليه السلام مكّونٌ بشراً بكلمة الله وأمره الذي هو «كن» كما قال تعالى: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [مريم: ٣٥] فكان عليه السلام من غير واسطة أب ولا نطفة وجُعل نفس الكلمة لأنه كان بها من غير تسبب عن أبٍ بل كوناً خارقاً للعوائد، وقد أوصلها الله - هذه الكلمة- إلى مريم وجعلها فيها بنفخ جبريل عليه السلام، فقوله ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ أي روحٌ كائنة بأمر الله وإذنهِ بنفخ جبريل عليه السلام حيث كان نفخ (الروح) فيما تكوّن في مريم من الجسد الذي قام بالكلمة فكان عيسى عليه السلام[٢].

فوصف المسيح عليه السلام بأنَّه كلمة الله وروحٍ منه قد ورد في الإنجيل الإلهي، لكنّهم تجاوزوا الحد المحدود لها وحرّفوا مدلولات هذه الألفاظ وما ترمي إليه[٣].

كشف القرآن الكريم عن انحراف طائفة من النصارى وتحريفها لعقيدة الله الصحيحة في الإنجيل الإلهي -حيث جعلت المسيح وأُمه مريم -عليها السلام- إلهين مع الله، والله -تعالى- أحد ثلاثة آلهة فالإلهية مشتركة بين الله ومريم وعيسى[٤] قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ

---

(١) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٦ ص٥٤.

(٢) انظر: البقاعي، نظم الدرر، ج٢ ص٣٧٧. أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج٢ ص٢٢٦. ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ص٥٦٥.

(٣) انظر: ابن عاشور، التحرر والتنوير، ج٦ ص٥٢.

(٤) انظر: البغوي، معالم التنزيل، ج٢ ص٤٤. ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ص ٦٣٩.

يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [المائدة:٧٣-٧٥] فعيسى عليه السلام مقصورٌ على صفة الرسالة وليس بإله، وهو كمن سبقه من الرسل في جريان الخوارق على يديه خصّه الله كما خصّهم و ليسوا بآلهة وأُمه عليها السلام كسائر النساء كثيرة الصدق آمنت به وصدقت، وما عيسى وأمه - عليهما السلام- إلا بشرين كسائر أفراد البشر يحتاجان إلى ما يحتاجون إليه من الطعام والغذاء ومن لا يقيمه إلا الطعام ويكون بهذا الضعف والعجز ولا يضرّ ولا ينفع لا يمكن أن يكون إلهاً.

ولا يُتصّور في العقل أن يكون الإله متعدداً فمتى دخلت الشركة أتى النقص ومن اعترته شائبة نقص لم يصحّ كونه إلهاً[(١)].

وكان النصارى قد اتهموا عيسى عليه السلام أنّه أمرهم بعبادته وأُمه فبيَّن الله براءته عليه السلام من هذا الزعم والافتراء، ونقل سبحانه وتعالى إقرار عيسى عليه السلام على رؤوس الأشهاد يوم القيامة أنه ما دعاهم إلا إلى الذي أرسله الله به وأمره بإبلاغه من توحيد الله تعالى وإخلاص العبودية والطاعة له وحده[(٢)] قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ ﴾ [المائدة: ١١٦-١١٧].

وكشف القرآن الكريم عن أنّ نصارى أهل الكتاب قد نقضوا عهد الله وميثاقه في إيمانهم برسل الله تعالى كما عاهدوا الله عليه وكما يجب قال تعالى:

---

(١) انظر: البقاعي، نظم الدرر، ج٢ ص٥١٥. البغوي، معالم التنزيل، ج٢ ص٤٥.

(٢) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ص٦٧٣.

﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴾ [المائدة: ١٤] وقوله: ﴿ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ ﴾ من الإيمان بالله والرسل وبما يتفرّع على ذلك من أفعال الخير[١].

ومن أهم مظاهر هذا التحريف لجوئُهم إلى الغلوّ والمبالغة في تعظيم بعض الأنبياء، وقد صوّروا صوراً لبعض الأنبياء وعظموا هذه الصور وعبدوها، كما افتروا على الله تعالى بالتقوّل على أنبيائه ورسله بأنهم يصرفون الناس عن عبادة الله إلى عبادتهم مما يأتون به من عند الله، كما تقوّلوا على عيسى عليه السلام بأنه قد أمرهم بعبادته[٢] قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤۡتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادٗا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًاۗ أَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡكُفۡرِ بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [آل عمران: ٧٩-٨٠] إنّ من يصطفيه الله سبحانه للرسالة والنبوّة ويؤتيه الكتاب يكون أعلم الناس وأفضلهم في العلم بدين الله والحرص على تعليمه كما نزل، وهم من أرباب النفوس الطاهرة والأرواح الطيبة الحريصون على أداء ما حملّوه من الرسالة بأمانةٍ وإخلاص وهم القائمون على نصيحة الخلق وإبلاغهم الحق أتم قيام[٣]، وكل من يستنبئه الله وينزل عليه الكتاب إنما يدعوهم إلى العلم بالله ويحدوهم إلى معرفة شرائع دينه وأنْ يكونوا رؤساء في المعرفة بأمر الله ونهيه وأئمة في طاعته وعبادته بكونهم معلمي الناس الكتاب ويكونهم دارسيه[٤].

ومن أعظم تحريفات نصارى أهل الكتاب هو كتمانهم صفة النبي ﷺ وتحريف البشارات به ﷺ المبثوثة في الإنجيل الإلهي قال تعالى: ﴿ وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ

---

(١) أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج٢ ص٢٥٠.

(٢) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٣ ص٢٩٤. البقاعي، نظم الدرر، ج٢ ص١١٨.

(٣) انظر: حاشية محيي الدين شيخ زاده، ج٣ ص١٠١. ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ص٣٧٧.

(٤) الطبري، جامع البيان، ج٣ ص٣٢٢.

إسرَآءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿٦﴾ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُوَ يُدۡعَىٰٓ إِلَى ٱلۡإِسۡلَٰمِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾﴾ [الصف: ٦-٧] هذا تشنيعٌ لحال أهل الكتاب الذين قابلوا دعوة النبي محمد ﷺ وما جاء به من الإسلام بالتكذيب وافتروا على الله الكذب بتكذيبهم من يتيقنون من صدقه وصدق ما جاء به، فكتموا شهادتهم وجحدوا الصفات الموصوف بها في كتابهم فظلموا بذلك أنفسهم بإعراضهم عما ينجيها وظلموا غيرهم من الناس بحملهم على التكذيب وبإخفاء الأخبار التي جاءت في الإنجيل الإلهي مثبتة صدق النبي ﷺ مع استمرارهم على الظلم(١).

ومن أبرز الدعاوي الباطلة لنصارى أهل الكتاب اعتقادهم أن النار لا تمسّهم لأن المسيح قد فداهم بنفسه حينما صُلب فكفّر عن خطاياهم، كما يعتقدون أنهم مقربون عند الله ولهم فضلٌ ومزيّة على سائر الخلق لأنهم أشياع المسيح - ابن الله- دون الخلق الاخرين(٢) قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنۡ خَلَقَۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [المائدة: ١٨] فكان الردّ من الله تعالى بأنّه إذا صدق ادعاؤكم وأنكم أحباءَ لله ومقربون إليه وأنه لا يعذبكم فلمَ أوقع عليكم عذابه في هذه الدنيا بالقتل والأسر والمسخ - كما تعلمون ذلك من أنفسكم ومن تاريخكم- ولمَ توعّدكم في الآخرة بنار جهنّم على كفركم ومعاصيكم بل أنتم كسائر البشر ومن جنس خلق الله تعالى وتمضي سنة الله فيكم -كما هو سائر البشر- في أن الجزاء إنما يكون على الأعمال فإن أحسنتم والتزمتم بحدود الشرع وما أمر به الله جوزيتم بإحسانكم وإن أسأتم وتجاوزتم حدود الله وشرعه جوزيتم بإساءتكم وبما كسبت أيديكم(٣).

وهو سبحانه يغفر الذنوب لمن يشاء من خلقه منكم ومن غيركم من المحسنين من

---

(١) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢٨ ص١٨٨.

(٢) انظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج٢ ص٢٥٤. رضا، تفسير المنار، ج٦ ص٢٦٤.

(٣) انظر: الطبري، جامع البيان، ج٤ ص٥٠٦. رضا، تفسير المنار، ج٦ ص٢٦٣.

أهل الإيمان به، ويصفح عنه ويعفو فلا يعاقبه بفضله ورحمته وهو سبحانه -بمقتضى عدله- يعذب من يشاء من المسيئين من خلقه ويحاسبه على كل ما اقترف من الذنوب والمعاصي فجميع الموجودات تنتمي إلى الله سبحانه بكونها ملكٌ لله تعالى وتحت قهره وسلطانه يتصرف فيها كيف يشاء إيجاداً وإعداماً وإحياءً وإماتةً وإثابةً وتعذيباً وإليه وحده المآب والرجوع في الآخرة، ولا يملك أحد الضر والنفع هناك إلا هو سبحانه فيحكم في عباده بمقتضى عدله سبحانه، وليس لأحد حقٌّ عليه أو سلطان عليه يمنعه من أن يعذب من يشاء أو يوجب عليه أن يغفر له ويعفو عنه ولا مانع ولا دافع لما حكم به وقضى من الجزاء على الإحسان أو الإساءة[١].

وذلك ردّ منه تعالى وإبطالٌ لما يعتقد نصارى أهل الكتاب من أَنّ بني آدم كلهم استحقوا العذاب الأُخروي بخطيئة أبيهم آدم فجاء عيسى بن مريم مخلّصاً وشافعاً وعرّض نفسه للصلب ليكفّر عن البشر خطيئتهم الموروثة[٢]، كما فيه إبطالٌ لما يعتقدونه من أنّ المسيح وهو الابن قد ترك الله - الأب- له سلطان حساب الناس على خطاياهم وأنه بعد صلبه وموته قام من قبره وارتفع إلى السماء منتظراً يوم الحشر ليحاسب الناس حساباً عادلاً[٣].

وقد بيّن الله تعالى حقيقة صلب المسيح عليه السلام وأظهر افتراء اليهود ومن تبعهم من النصارى في دعواهم فأخبر سبحانه أن يهود بني إسرائيل قد وكلوا بعيسى عليه السلام من يقتله غيلةً، لكنّ الله سبحانه نجاه من القتل في أنه ألقى شبهه على من قصد اغتياله حتى قُتل ورفع عيسى إلى السماء من غير وفاة[٤] قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ [آل عمران: ٥٥]

---

(١) انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ج٤ ص٣٣٠. أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج٢ ص٢٥٤.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٦ ص١٥٧.

(٣) انظر: محمد عزّت الطهطاوي، النصرانية والإسلام، د.ط دار الأنصار- القاهرة د.ت، ص٥٦.

(٤) انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ج٣ ص٢٣٥. أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج١ ص٣٧٤. البغوي، معالم التنزيل، ج١ ص٢٤١.

وقال تعالى في ذات السياق: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ﴾ [آل عمران: ٦٢] بمعنى أنّ ما قصّه الله تعالى في القرآن الكريم من نبأ عيسى عليه السلام وأمره هو القول الحق الذي لا مصدر له إلا الله تعالى وحده فلا مريه فيه ولا شك وما سواه مما يخالفه هو مجرد اختلاقات وأكاذيب اليهود والنصارى[١] وقال تعالى في سياق آخر: ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ ﴾ [النساء: ١٥٧-١٥٨] وكان اليهود يزعمون أنهم قتلوا المسيح عيسى ابن مريم وهم مع زعمهم هذا وفيما بينهم في تردّد وشك هل الذي قتلوه وصلبوه هو المسيح ابن مريم عينه أم لا، فالله كذبهم هنا وأظهر لهم أنهم لم يقتلوه ولم يصلبوه ولكن المصلوب هو رجلٌ ألقى الله شبهه على عيسى فصلب وليس كما يظن يهود بني إسرائيل ومن سايرهم من نصارى بني إسرائيل حيث انهم بأسرهم متفقون على أن اليهود قتلوه[٢].

المطلب الثاني

تحريف الشرائع والأحكام

من أبرز ما ذكره القرآن الكريم من التحريفات في شرائع الإنجيل الإلهي هو ابتداع الرهبانية وما آلت إليه من انحراف وضلال قال تعالى: ﴿ وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [الحديد: ٢٧] والرهبانية - في الأصل-: هي المبالغة في العبادة وتحمل كلفاً زائدة على العبادات التي كانت واجبة عليهم من حيث الانقطاع عن الناس للعبادة والخلوة باتخاذ الصوامع والتعبّد في الغيران والكهوف والجبال والامتناع عن

---

(١) انظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج١ ص٣٧٩.

(٢) انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ج٤ ص٢٦٢. ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ص٥٥٠.

لذيذ الطعام والشراب واعتزال النساء ولبس الملابس الخشنة؛ وذلك تبتّلاً إلى الله وإخباتاً وإخلاصاً له في العبادة وفراراً بالنفس من الفتنة في الدين[١].

وقد ظهرت الرهبانية بعد عيسى عليه السلام وابتُدعت بعد الحواريين ولم يكن فيهم راهب، كما لم تكن الرهبانية في كل أتباع عيسى[٢] فقوله تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ بمعنى أنه سبحانه ما شرع ذلك لهم ولا أمرهم به ولم يجعله عليهم عبادة، لا فرضاً واجباً ولا مندوباً مستحباً وإنما أحدثوه ونذروه والتزموه من تلقاء أنفسهم[٣]، ولم يكتب الله عليهم إلا أن يجتهدوا في طلب رضوان الله عليهم كما قال: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ بمعنى كتبنا عليهم ابتغاء رضوان الله، ورضوان الله يكون بفعل ما أمر الله به وبترك المحظور مما نهى عنه ولا يكون ابتغاء رضوان الله بفعل ما يبتدعه الإنسان مما لم يؤمر بفعله وبترك ما لم يُنه عن تركه كالرهبانية فإنّ فيها فعل ما لم يؤمر به وترك ما لم يُنه عنه فلا يكون فعلها ابتغاءً لرضوان الله تعالى[٤].

وأخبر الله تعالى أنهم مع ابتداعهم للرهبانية وبفعلهم ما لم يأمرهم بالله بفعله وتركهم ما لم ينهاهم الله عن تركه فإنهم مع ذلك لم يرعوها حق رعايتها ولم يلتزموا بما أحدثوه وبما ألزموا به أنفسهم كما قال تعالى: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ يقول المراغي: «فما حافظوا على هذه الرهبانية المبتدعة وما قاموا بما التزموه حق قيام بل ضيّعوها وكفروا بدين عيسى بن مريم فضمّوا إليه التثليث ودخلوا في دين الملوك الذين غيّروا وبدلوا فهذا ذمٌّ لهم من وجهين أولاً: ابتدعوا في دين الله ما لم يأمر به. ثانياً: لم يقوموا بما فرضوه على أنفسهم مما زعموا أنه قربة يقربهم إلى ربهم وقد كان ذلك كالنذر الذي يجب رعايته والعهد الذي يجب الوفاء به[٥].

---

(١) انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ج١٠ ص٤٧٤. شحاتة، تفسير القرآن الكريم، ج٢٧ ص٥٦٧٣.

(٢) انظر: تقي الدين أحمد ابن تيميه (ت ٧٢٨هـ) الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح، تحقيق: محمد حسن إسماعيل ط١ المكتبة العلمية ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م، ج١ ص٢٣١.

(٣) انظر: الخفاجي، حاشية الشهاب، ج٩ ص١٠٩. الطبري، جامع البيان، ج١١ ص٦٩٢.

(٤) انظر: ابن تيميه، الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح، ج١ ص٢٣٣.

(٥) المراغي، تفسير المراغي، ج٢٧ ص١٨٦.

وقد أجزل الله تعالى الثواب لمن أدرك النبي محمد ﷺ منهم وآمن به إيماناً صحيحاً بعد رعايتهم رهبانيّهم قال تعالى: ﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ إشارةً منه سبحانه وتعالى إلى أن الاستمرار على الرهبانية بمجرد بعثة النبي ﷺ هو كفرٌ بحت ولغوٌ محض وأهلها ممن يُسمون بالرهبان هم أهل معاصٍ وفسوق وخروجٍ عن حدود الله وطاعته والإيمان به، يأكلون أموال الناس بالباطل ويرتكبون الشرور والاثام وهم رأس الفساد والانحراف[1] قال تعالى: ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٤].

وقد مدح الله تعالى الرهبان الذين آمنوا بالنبي ﷺ وصدّقوا بما جاء به كما قال تعالى: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَـٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ ۞ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [المائده: ٨٢-٨٤] فهؤلاء قد أثنى الله تعالى عليهم لأنهم لم يستكبروا عن الإيمان بالنبي ﷺ وبالقرآن الكريم فتواضعوا للحق لما عرفوه ولم يستكبروا عن قبوله إذ تبيّنوه، وقد فاضت أعينهم عند سماع القرآن الكريم لتيقّنهم أنّه الحقّ الموعود به وظهر لهم صدق عيسى عليه السلام فيما بشّر به[2].

أشار القرآن الكريم إلى بطلان ما ابتدعه نصارى أهل الكتاب من أنهم يغمسون أولادهم أو من يريد أن يتّبع دين النصرانية في ماءٍ أصفر (يسمونه المعموديّة) وبه يتقدّس ويتطهر من الذنوب والاثام ويصبح مؤمناً ونصرانياً حقاً[3] قال تعالى - في

---

(١) انظر: الألوسي، روح المعاني، ج١٤ ص١٩١. شحاتة، تفسير القرآن الكريم، ص٥٦٧٣.

(٢) انظر: الطبري، جامع البيان، ج٥ ص٦. ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٦ ص١٠.

(٣) انظر: الطبري، جامع البيان، ج١ ص٦٢٤. أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج١ ص٢٠٧. =

سياق جداله مع اليهود والنصارى-: ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَٰبِدُونَ ﴾ [البقرة:١٣٨] فالإيمان الحق لا يحصل بمجرد وسيلةٍ مادية كالتغطيس بالماء على يد راهب من البشر مع تغيب قلب الإنسان وعملهِ بل لا بد للإيمان الحق الذي أمر الله به من الاعتقاد والعمل، فصبغة الله (الإسلام) هي الحق وهي الأحسن والأسلم لأن الله تعالى أرشد إلى أنّ الإيمان به لا يحصل إلا بما يدلل عليه من التزام تعاليم دينه وشرائع الله وأحكامه وهو بنفس الوقت قد صبغ قلوب البشر بما غرس فيها من فطرة الإسلام وجعل الإنسان متكيّفاً مع الإيمان متقبلاً لما يأمره به وما ينهاه عنه.

ولا أحسن من صبغة القلب والفطرة والتي لا تزول لثباتها بما تولاها الله بحفظه وعنايته وأما صبغة نصارى أهل الكتاب فهي صبغة جسم لا قلب صبغة بشرية أضافها الرهبان إلى الدين بما يحللون وما يحرمون بآرائهم وأهوائهم وما العبادة والطاعة إلا لله وحده الذي ما شرع لهم هذه الصبغة البشرية[١].

= الواحدي، أسباب النزول، ص٣٠.

(١) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١ ص٧٤٣. رضا، تفسير المنار، ج١ ص٣٩٣. البقاعي، نظم الدرر، ج١ ص٢٥٧.

الخاتمة

خرجت الدراسة بالعديد من النتائج الهامة والحقائق الربانية أجملها فيما يلي:

أولاً: التوراة والإنجيل هما الكتابان الوحيدان اللذان أبرز القرآن الكريم علاقته وارتباطه بهما من خلال حديثه عنهما وتنويهه بهما وذكره لما اشتملا عليه من الهدى والنور، والتوراة الإلهية هي أعظم الكتب بعد القرآن الكريم واشتهرت بكثرة ما فيها من أحكام وشرائع وصفت بأنها كانت آصاراً وأغلالاً على أهلها أما الإنجيل الإلهي فهو كتاب مستقل بشريعته عن التوراة وإن كان من رسالته الدعوة إلى إحياء أحكامها وبيانه لكثير من نصوصها.

ثانياً: بمجيء القرآن الكريم وانتهاء عهد الكتب الإلهية السابقة لم يبق لهذه الكتب أي دور ومسؤولية تذكر في تبليغ دين الله وشرعه، لكن الله سبحانه قد حفظها بحفظه للقرآن الكريم الذي حفظ مضامين الكتب الإلهية وحفظ تراث الأنبياء ورسالاتهم، واشتمل على أصول ما دعوا إليه أقوامهم من الهدى والرشاد لكن بقراءة جديدة ناسبت خاتمية الرسالة وخلودها وأغنت عما سبق من وحي الله تعالى في هذه الكتب الإلهية السابقة.

ثالثاً: لا مصدر موثوق للتعرف على كتب الله تعالى (التوراة والإنجيل) ومعرفة طبيعة رسالتها ودعوتها إلا من خلال القرآن الكريم ووصفه لها وحديثه عنها، وإن من أهم المفارقات العجيبة التي كشفت عن وحدة المصدر للكتب الإلهية ووحدة غايتها وأهدافها ومقاصدها هو ما وصف الله تعالى به هذه الكتب تنويهاً بها وتصديقاً لها ومطابقته لأوصاف القرآن الكريم التي عرفت به وكشفت عن طبيعة رسالته وما يترتب على ذلك من الاشتراك في العديد من المعاني والدلالات بما يعد إثباتاً لتلك العلاقة الحميمة بين الكتب الإلهية وأنها من ذات المنبع والجذور.

رابعاً: وافق القرآن الكريم الكتب الإلهية السابقة (التوراة والإنجيل) في المقاصد العليا للدين الإلهي وأصوله والتي تمثل أصول العقائد والتشريعات والأخلاق والتي هي مصالح كلية لا تختلف باختلاف الشرائع والرسالات، وإن تفوق القرآن الكريم في

بعض مقاصده العليا كالإعجاز هو مما تقتضيه رسالته الخالدة الخاتمة والعالمية.

خامسا: إن اختلاف فروع الشرائع وتفاصيل الأحكام لا يتناقض مع وحدة دين الله تعالى ومع تصديق القرآن الكريم لما بين يديه، ذلك أن هذا الاختلاف هو مما تقتضيه حكمة الله تعالى ومصالح البشر في كل عصر وتبعاً لطبيعة التكامل في الرسالات للوصول بالإنسان إلى الحق الذي ارتضاه الله فجميعها تسير في اتجاه واحد وتسعى لذات النتيجة والهدف وهو تعبيد الناس لله سبحانه وتأهيلهم للقيام بواجبهم المعهود بالخلافة والإعمار وإيصالهم بأمان إلى لقاء الله تعالى.

سادساً: المنهج الصحيح في طرائق عبادة الله تعالى لا تؤخذ إلا من الكتب الإلهية في كل عصر، فلا يُعبد الله إلا بما شرعه من الدين وما كان مطابقاً لما أمر به من تكاليف وأحكام في كتبه وعلى ألسنة رسله من غير إفراط ولا تفريط، ولا يعبد الله تعالى بما تشتهي النفوس وتبتدع بمجرد صور وأشكال لا روح فيها ولا إخلاص بعيدة عن مقاصد الله من هذه العبادة وخروجاً عن حدود ما شرع الله مبالغة أو تقصيراً.

سابعاً: قرّر القرآن الكريم أن كلام الله تعالى المتمثل في الوحي الإلهي الذي اشتملت عليه الكتب الإلهية هو كلام مقدس منزه ومحذور على البشر المساس به والعبث بنصوصه إضافة أو حذفاً أو تبديلاً أو إخراجاً عن مقاصده بسوء تأويل، بل لا بد من الأخذ به بنصه وحرفيته وفي حدود مقاصده من غير زيادة ولا نقصان وإن مجرد العبث به بأي شكل من الأشكال يخرجه عن دائرة الوحي الإلهي ويغدو من صنع البشر وجهالاتهم.

وبناءً عليه فإن ما يدعى اليوم أنها التوراة أو الأناجيل المقدسة وتوابعها ما هي إلا كتب بشرية بعقائدها وشرائعها وحقائقها المفتراة على الله تعالى ولا تنطبق مع حقيقة الوحي الإلهي الذي يحقق سعادة البشر في دنياهم وأخراهم.

ثامناً: دين الله واحد هو الإسلام وإن الاختلاف في الدين عبر العصور وانطماس معالمه وأصوله الصحيحة إنما هو بسبب الاعتداء على الكتب الإلهية والبغي والعدوان على ما فيها من وحي وتحريف نصوصها وتجاوز الحدود من قبل القائمين عليها.

وبناءً عليه فإن ظهور الدين اليهودي والدين النصراني ما هو إلا أحد مظاهر العبث

البشري بالكتب الإلهية وتحريفها، وإن الأعظم من ذلك أن يطلق على هذه الأديان أنها أديان سماوية أنزلها الله سبحانه وما هي إلا أديان وضعية قائمة على أصول بشرية محرّفة وفاسدة، ظهرت بعد عهدي موسى وعيسى عليهما السلام ولم يدعوا إليها فإذا كان القرآن الكريم قد حكم عليها قبل أربعة عشر قرناً بأنها أديان من صنع البشر وتحريفهم ولم يناد إليها أحد من الأنبياء فكيف يكون حالها في عصرنا اليوم.

تاسعاً: القرآن الكريم هو كلمة الله الوحيدة المحفوظة بحفظ الله إلى يوم القيامة وهو المرجع الكلي الجامع لتعاليم الله تعالى والتي صدقت ما قبلها وجمعت محاسنه وأغنت عن وجوده وإن من أبرز ما يترتب على ذلك أن يكون القرآن هو الحاكم المهيمن على ما سبقه من كتب إلهية وهو الأمين على ما فيها من وحي، فهو المعيار والميزان الموثوق لكل ما ينسب للوحي الإلهي من عقائد وشرائع وأحكام، والحكم عليه يكون في إطار سور القرآن الكريم ومقاصد آياته وإن القاعدة الأساس في ذلك: أن كل ما وافق القرآن الكريم فهو صحيح وكل ما خالفه فهو باطل ممحوق.

عاشراً: أثبت القرآن الكريم إعجازه لغير العرب من أهل الكتاب خاصة وحملهم على الإيمان به وتصديق دعوة النبي ﷺ وبإثبات مصدر القرآن الكريم من طريقين:

- اشتماله على الهدى الذي هو شأن الكتب الإلهية وموافقة أصول دعوته لما دعا إليه الأنبياء من قبل مع كونه ﷺ كان أمياً لم يقرأ كتاباً ولا جالس أهل الكتاب.

- كشف القرآن الكريم لما كتموه وأخفوه وإبرازه لمجمل تحريفاتهم يدلل على جانب من الإعجاز الغيبي في القرآن الكريم وأنه عليه الصلاة والسلام مع كونه أمياً لم يدارس أحبارهم ولا رهبانهم إلا أنه جاء فاضحاً للكثير مما في نفوسهم مما كتموه وبالغوا في إخفاءه.

الحادي عشر: قرر القرآن الكريم أنه لا بد من الحوار والجدال مع المخالفين للدين والمنحرفين عما فيه من الحق وإرشادهم بما يقيم عليهم حجة الله من الحجج العقلية والنقلية، وإن المنهج الدعوي الذي قدمه القرآن الكريم في هذا المجال هو ذكره للأمور المشتركة المتفق عليها بين الأنبياء لتكون منطلقاً لبدء الحوار والجدال وتقريب مسافات الإقناع والقبول، وإن ذكر الأصول الصحيحة المشتركة بمقابل ذكر انحرافاتهم

واعتداءاتهم لا بد وأن يؤدي إلى تثوير مخابىء الفطرة السليمة في نفوسهم وإعادتها إلى سابق عهدها من التوحيد والإيمان.

الثاني عشر: أودع الله سبحانه في كتبه الإلهية مناهجه وطرائقه وتوجيهاته الربانية التي تُعبِّد الخلق لله وتقيمهم على دين فطرتهم وترشدهم إلى ما ينظم لهم أمورهم ويكفل سعادتهم في دنياهم وأخراهم.

ولما كان القرآن الكريم هو أعظم الكتب الإلهية والمهيمن عليها وعلى مناهجها وهو منهاج حياة شامل متكامل ومناهجه في إصلاح الخلق وتحقيق سعادتهم هي أقوم المناهج وأشملها وأكملها فإن من ينظر في حال الأمة المسلمة اليوم ليستشعر أن أعظم أسباب ما حل بهم من بلاء الضعف والفرقة والانهزام هو تغييبهم لهيمنة القرآن الكريم وعظمته في حياتهم وتساهلهم في إقامة أحكامه وشرائعه والاستغناء عنه وعن مناهجه وهداياته بالقوانين الوضعية المستوردة من الغرب المنحرف والتي جرفتهم إلى مزيد من التبعية والتخلف والانهزام.

فلا سبيل للنهوض بواقع هذه الأمة وانتشالها من أوحال التمزق والتفرق والضياع إلا باتخاذ القرآن الكريم دستوراً وإماماً وحاكماً عدلاً يسيرون خلف نصوصه ويهتدون بهداياته ويأخذون العظات والعبر من الأمم السالفة التي انحرفت عن منهج الله تعالى وتنازعت في أصول دينها فشتتها الله في أصقاع الأرض وذابت بين الأمم.

الثالث عشر: إن حفظ الله عز وجل للقرآن الكريم هو حفظ لبقية الكتب الإلهية لأنه وصف بأنه مصدق لها ومهيمنٌ عليها.

الرابع عشر: إن حفظ الله عز وجل المباشر للقرآن الكريم والتصريح به كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] دليل على ختم النبوة لأنه لا نبيّ بعد محمد ﷺ يصحّح للناس لو خرجوا عن النصّ الإلهي.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

قائمة المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم.

٢- إبراهيم بن السري الزجاج (ت ٣١١هـ)، معاني القرآن وإعرابه، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، خرج أحاديثه: علي جمال الدين، ط١، دار الحديث- القاهرة، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

٣- إبراهيم بن محمد البيجوري (ت ١٢٧٧هـ)، تحفة المريد شرح جوهرة التوحيد، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

٤- إبراهيم بن موسى الشاطبي (ت ٧٩٠هـ)، الموافقات في أصول الشريعة، شرحه : عبد الله دراز، وضع تراجمه: محمد عبد الله دراز، فهرس موضوعاته: عبد السلام عبد الشافي، د. ط. ، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠م.

٥- أبو الحسن علي الحسني الندوي، الأركان الأربعة: الصلاة، الزكاة، الصوم، الحج، في ضوء الكتاب والسنة، مقارنة مع الديانات الأخرى، د. ط. ، دار القلم، د. ت.

٦-. . . . . ، دراسات قرآنية، إعداد : سيد عبد الماجد الغوري، ط١ ، دار ابن كثير، دمشق، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

٧- أبو السعود محمد بن مصطفى العمادي الحنفي (ت ٩٨٢هـ)، تفسير أبو السعود، أو إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، وضع حواشيه : عبد اللطيف عبد الرحمن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١ ، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.

٨- أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير (ت ٧٧٤هـ)، تفسير القرآن العظيم، ط١ ، دار ابن حزم، بيروت، دار الوطن للنشر، الرياض، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

٩- أبي البقاء بن موسى الحسيني الكفوي (ت ١٠٩٤هـ)، الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أعده للطبع: عدنان درويش، محمد المصري، ط١ ، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

١٠- أحمد أحمد غلوش، الدعوة الإسلامية أصولها ووسائلها، ط٢، دار الكتب الإسلامية، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

١١- أحمد بن الزبير الغرناطي (ت ٧٠٨هـ)، ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، تحقيق: سعيد الفلاح، ط١، دار الغرب الإسلامي، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

١٢- أحمد بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)، فتح الباري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، محب الدين الخطيب، د.ط، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ.

١٣- ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ)، تأويل مشكل القرآن، إعداد: عمر عبد العزيز، مراجعة: عبدالصبور شاهين، ط١، مركز الأهرام للترجمة والنشر القاهرة، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م.

١٤- أحمد بن عبد العزيز بن قاسم الحداد، أخلاق النبي ﷺ في القرآن والسنة، ط٢، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.

١٥- أحمد بن شعيب النسائي (ت ٣٠٣هـ)، المجتبى من السنن، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، ط٢، مكتبة المطبوعات الإسلامية - حلب، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

١٦-. . . . .، السنن الكبرى، تحقيق: عبد الغفار سليمان البنداري، سيد كسروي حسن، ط١، دار الكتب العلمية- بيروت، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

١٧- أحمد بن علي الرازي الجصاص (ت ٣٧٠هـ)، أحكام القرآن، ضبط نصه: عبد السلام علي شاهين، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

١٨- أحمد بن محمد الخليلي، جواهر التفسير أنوار من بيان التنزيل، د.ط.، مكتبة الاستقامة، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م.

١٩- أحمد عز الدين خلف الله، القرآن يتحدى، ط٢، دار صادر، بيروت، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

٢٠- أحمد علي الملا، دراسة في علم العقيدة الإسلامية في ضوء الكتاب والسنة، ط١، دار اليمامة، دمشق، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

٢١- أحمد مصطفى المراغي، تفسير المراغي، ط٢، دار إحياء التراث العربي- بيروت، ١٩٨٥م.

٢٢- ابن أبي العز الحنفي (ت ٨٠٣هـ)، شرح العقيدة الطحاوية، حققها: جماعة من العلماء، خرج أحاديثها: محمد ناصر الدين الألباني، ط٩، المكتب الإسلامي، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

٢٣- ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ)، تأويل مشكل القرآن، إعداد: عمر عبد العزيز، مراجعة: عبدالصبور شاهين، ط١، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م.

٢٤- ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ)، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، تحقيق: عصام الحرستاني، خرج أحاديثه : محمد إبراهيم الزغلي، ط١، دار الجيل، بيروت، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

٢٥- . . . .، التبيان في أقسام القرآن، تحقيق: عادل بن أحمد حامد، د.ط.، دار القيّمة، دار الإيمان، الإسكندرية، ٢٠٠٢م.

٢٦- الحسين بن المفضل المعروف بالراغب الأصفهاني (ت ٥٠٣هـ)، معجم مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

٢٧- الحسين بن مسعود الفراء البغوي (ت ٥١٦هـ)، تفسير البغوي: المسمى معالم التنزيل، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م.

٢٨- السيد سابق، العقائد الإسلامية، د.ط.، منشورات مكتبة التحرير، ١٩٨٠م.

٢٩- بدر الدين بن جماعة (ت ٧٣٣هـ)، كشف المعاني في المتشابه من المثاني، تحقيق: عبد الجواد خلف، ط١، دار الوفاء، باكستان، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

٣٠- بدر الدين محمد الزركشي (ت ٧٩٤هـ)، البرهان في علوم القرآن، علّق عليه: مصطفى عبد القادر، د.ط.، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

٣١- بديع الزمان سعيد النورسي، إشارات الإعجاز في مظانّ الإيجاز، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، ط٢، دار سوزلر للنشر، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

٣٢- برجشتر آسر، مختصر في شواذ القرآن من كتاب البديع لابن خالويه، د.ط، دار الهجرة، د.ت.

٣٣- برهان الدين بن عمر البقاعي (ت ٨٨٥هـ)، نظم الدرر في تناسب الايات والسور، خرّج آياته وأحاديثه ووضع حواشيه: عبد الرزاق غالب المهدي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

٣٤- تقي الدين أحمد ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ)، الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح، تحقيق: محمد حسن إسماعيل، ط١، المكتبة العلمية، ١٤٢٣هـ م ٢٠٠٣م.

٣٥- . . . .، مجموعة الفتاوى، اعتنى بها : عامر الجزّار، أنور الباز، ط١، مكتبة العبيكان، الرياض، ١٣١٨هـ/ ١٩٩٧م.

٣٦- . . . .، الفرقان بين الحق والباطل، تحقيق: حسين يوسف غزال، ط١، دار إحياء العلوم، بيروت، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

٣٧- جاسر خليل أبو صفية، كلمات من القرآن، ط١، (د.ن)، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

٣٨- جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت ٩١١هـ)، الإتقان في علوم القرآن، ط٣، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

٣٩- . . . .، معترك الأقران في إعجاز القرآن، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

٤٠-. . . . .، أسباب النزول، تحقيق: حامد الطاهر، ط١، دار الفجر للتراث، القاهرة، ١٤٢٣هـ.

٤١- جمال الدين بن مكرم بن منظور (ت ٧١١هـ)، لسان العرب، ط١، دار صادر، بيروت، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

٤٢- جمال نصار حسين، الخطاب القرآني المعاصر، ط١، دار الإسراء، عمان، ٢٠٠٠م.

٤٣-حسن البنّا، ركن الجهاد أو الركن الذي لا تحيا الأمة إلا به، تحليل وشرح: علي عبد الحليم محمود، ط١، دار التوزيع والنشر الإسلامية، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

٤٤- خير الدين الزركلي، الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ط١٠، دار العلم، بيروت، ١٩٩٢م.

٤٥- رحمت الله بن خليل الرحمن الهندي (ت ١٣٠٨هـ)، إظهار الحق، تحقيق: محمد عبد القادر ملكاوي، ط١ ، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والدعوة والإرشاد، الرياض، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م.

٤٦- زكريا الأنصاري (ت ٩٢٦هـ)، فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن، تحقيق بهاء الدين محمد، قدمه : علي فرغلي، د.ط. ، دار الكتاب الجامعي ؟ القاهرة، ١٩٨٧م.

٤٧- زياد خليل الدغامين، إعجاز القرآن وأبعاده الحضارية في فكر النورسي «عرض وتحليل»، ط١ ، دار النيل، أزمير، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

٤٨- زين العابدين أحمد الزويدي، هيمنة القرآن على جميع الكتب السماوية وأسبابها، ط١ ، مطبعة الفجر الجديد، ١٤١١هـ.

٤٩- ستار جبر حمود الأعرجي، الوحي ودلالاته في القرآن الكريم والفكر الإسلامي، ط١ ، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.

٥٠- سعيد حوى، الأساس في التفسير، ط١ ، دار السلام، القاهرة، ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.

٥١- سيد قطب (ت ١٣٨٨هـ)، في ظلال القرآن، د.ط، دار الشروق، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

٥٢- شمس الدين محمد الذهبي (ت ١٣٧٤هـ)، سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، ط١ ، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

٥٣- شهاب الدين الخفاجي (ت ١٠٦٩هـ)، حاشية الشهاب المسماة «عناية القاضي وكفاية الراضي» على تفسير البيضاوي، ضبطه : عبد الرزاق المهدي، ط١ ، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

٥٤- شهاب الدين محمود الألوسي (ت ١٢٧٠هـ)، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ضبطه وصححه: علي عبد الباري عطية، ط١ ، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

٥٥- صادق مكي، الديانة الإسلامية «عقيدة وأخلاق وشريعة»، ط١ ، دار الفكر اللبناني، بيروت، ١٩٩٥م.

٥٦- صالح بن إبراهيم البليهي، الهدى والبيان في أسماء القرآن، ط١، (د.ن)، ١٣٩٧هـ.

٥٧- صديق بن علي القنوجي (ت ١٣٠٧هـ)، فتح البيان في مقاصد القرآن، راجعه: عبد الله الأنصاري، د.ط.، إدارة إحياء التراث الإسلامي، قطر، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م.

٥٨- صلاح عبد الفتاح الخالدي، هذا القرآن، ط١، دار المنار للنشر، عمان، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

٥٩- ....، مفاتيح للتعامل مع القرآن، ط١، مكتبة المنار، الزرقاء، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م.

٦٠- ....، البيان في إعجاز القرآن، ط٣، دار عمان ؟ عمان، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

٦١- عائشة عبد الرحمن بنت الشاطىء، الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، د. ط، دار المعارف، القاهرة، (د.ت).

٦٢- عابد توفيق الهاشمي، التربية في التوراة، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

٦٣- عبد الباري محمد داود، الفتوحات الربانية في الايات القرآنية، ط١، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٩٧م.

٦٤- عبد الباري محمد داود، جوانب من عظمة القرآن الكريم، ط١، دار نهضة الشرق، مصر، ٢٠٠٢م.

٦٥- عبد الحق بن عطية الأندلسي (ت ٥٤٦هـ)، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد الله الأنصاري، عبد العال إبراهيم، ط١، مؤسسة دار العلوم، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م.

٦٦- عبد الحميد الفراهي (ت ١٣٤٩هـ)، مفردات القرآن «نظرات جديدة في تفسير ألفاظ قرآنية»، تحقيق: محمد أجمل أيوب الإصلاحي، ط١، دار الغرب الإسلامي، ٢٠٠٢م.

٦٧- ....، إمعان في أقسام القرآن، د.ط.، دار المصنفين، القاهرة، ١٣٤٩هـ.

٦٨- عبد الرحمن بن عبد الله الدرويش، الشرائع السابقة ومدى حجّيتها في الشريعة الإسلامية، ط١، شركة العبيكان للنشر ؟ الرياض، ١٤١٠هـ.

٦٩- عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة (ت ٤٠٣هـ)، حجة القراءات، تحقيق: سعيد الأفغاني، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

٧٠- عبد الرحمن بن ناصر السعدي (ت ١٣٧٦هـ)، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق: محمد زهري النجار، ط٢، عالم الكتب، ١٤٠٤هـ/ ١٩٩٣م.

٧١- عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، العقيدة الإسلامية وأسسها، ط٦، دار القلم، دمشق، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

٧٢-.........، مفهومات يجب تصحيحها، ط١، مؤسسة الريان، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

٧٣-.........، معارج التفكر ودقائق التدبر، ط١، دار القلم، دمشق، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

٧٤- عبد الرزاق أحمد رجب، أسماء القرآن الكريم وأوصافه (رسالة ماجستير غير منشورة)، جامعة آل البيت، المفرق، ٢٠٠٤م.

٧٥- عبد الشهيد مهدي الستراوي، القرآن نهج وحضارة، ط١، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

٧٦- عبد العزيز بن الدردير بن موسى، التفسير الموضوعي لآيات الصلاة في القرآن الكريم، ط١، دار الطباعة المحمدية، القاهرة، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

٧٧- عبد الكريم الخطيب، إعجاز القرآن الإعجاز في دراسات السابقين، ط٢، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.

٧٨- ....، التعريف بالإسلام في مواجهة العصر الحديث وتحدياته، ط١، (د.ن)، (د.ت).

٧٩- عبد الكريم زيدان، المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية، ط١٥، مؤسسة الرسالة، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٨م.

٨٠- عفيف عبد الفتاح طبارة، روح الدين الإسلامي، ط٢٨، دار العلم، بيروت، ١٩٩٣م.

٨١- عبد الله محمود شحاتة، تفسير القرآن الكريم، د.ط.، دار غريب، القاهرة، ٢٠٠٠م.

٨٢- عبد الوهاب حمودة، أسرار القسم في القرآن، د.ط.، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٠م.

٨٣- عبد الله سراج الدين، هدى القرآن الكريم إلى الحجة والبرهان، ط٢، مكتبة الفلاح، حلب، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

٨٤- علي بن أبي بكر الهيثمي (ت ٨٠٧هـ)، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، د.ط.، دار الريان للتراث، دار الكتاب العربي، القاهرة، بيروت، ١٤٠٧هـ.

٨٥- علي بن أحمد الواحدي النيسابوري (ت ٤٦٨هـ)، أسباب النزول، تحقيق: طارق الطنطاوي، د.ط، مكتبة القرآن ؟ القاهرة، ١٩٩١م.

٨٦- علي عبد الحليم محمود، عالمية الدعوة الإسلامية، ط١، دار الوفاء، المنصورة، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

٨٧- عمر بن علي بن عادل (ت ٨٩٠هـ)، اللباب في علوم الكتاب، تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود وآخرون، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

٨٨- عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين «تراجم مصنفي الكتب العربية»، د.ط.، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٥٧م.

٨٩- عمر سليمان الأشقر، الرسل والرسالات، ط٣، مكتبة الفلاح، الكويت، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

٩٠-............، خصائص الشريعة الإسلامية، ط٣، دار النفائس، الأردن، مكتبة الفلاح، الكويت، د.ت.

٩١- فخر الدين بن عمر الرازي (ت ٦٠٦هـ)، مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، ط٢، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

٩٢-..........، القضاء والقدر، علّق عليه: محمد البغدادي، ط٢، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

٩٣- فهد بن عبد الرحمن الرومي، خصائص القرآن الكريم، ط٩، مكتبة العبيكان، الرياض، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

٩٤- فوزي عبد العظيم قمر، معالم النبوة الخاتمة في القرآن الكريم، ط١، دار الطباعة المحمدية؟ القاهرة، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.

٩٥- قحطان عبد الرحمن الدوري ورشدي محمد عليان، أصول الدين الإسلامي، ط١، دار الفكر، عمان، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

٩٦- مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، ترجمة : عبد الصبور شاهين، ط٤، دار الفكر، دمشق، دار الفكر المعاصر، بيروت، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

٩٧- محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير، د.ط.، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ت.

٩٨-..........، المعجزة الكبرى القرآن، د.ط.، دار الفكر العربي، ١٩٨٠م.

٩٩- محمد إسماعيل إبراهيم، الصلاة كما وردت في الكتاب والسنة وعلى المذاهب الأربعة، د.ط.، دار الفكر العربي، ١٩٧٧م.

١٠٠- محمد أمين الطرابلسي، الأعمال والمصالح في أصول الأديان وشرائع العمران، د.ط، (د.ن)، ١٣٢٦هـ.

١٠١- محمد الزفزاف، التعريف بالقرآن والحديث، ط٤، مكتبة الفلاح، الكويت، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

١٠٢- محمد عمارة، معالم المنهج الإسلامي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط٢، دار الشروق، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

١٠٣- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، د.ط، دار سحنون للنشر، تونس، ١٩٩٧م.

١٠٤-..........، مقاصد الشريعة الإسلامية، تحقيق: محمد الطاهر الميساوي، ط٢، دار النفائس، الأردن، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.

١٠٥- محمد العفيفي، القرآن دعوة الحق، مقدمة في علم التفصيل القرآني، د.ط، (د.ن)، ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م.

١٠٦- محمد الغزالي، عقيدة المسلم، ط٣، دار الدعوة، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م.

١٠٧- محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (ت ٦٧١هـ)، الجامع لأحكام القرآن، اعتنى به وصححه: هشام سمير البخاري، ط٢، دار عالم الكتب، الرياض، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.

١٠٨- محمد بن أبي بكر الشهرستاني (ت٥٤٨هـ)، الملل والنحل، تحقيق: محمد سيد كيلاني، د.ط، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

١٠٩- محمد بن إدريس الشافعي (ت ٢٠٤هـ)، ديوان الشافعي، تقديم ومراجعة: إحسان عباس، ط١، دار صادر، بيروت، ١٩٩٦م.

١١٠-............، أحكام القرآن، تحقيق: عبد الغني عبد الخالق، د.ط.، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٠هـ.

١١١- محمد بن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦هـ)، صحيح البخاري، تحقيق: مصطفى ديب البغا، ط٣، دار ابن كثير، دار اليمامة، بيروت، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

١١٢- محمد بن الخطيب الباقلاني (ت ٤٠٣هـ)، إعجاز القرآن، شرحه وعلق عليه: محمد شريف سكر، ط٣، دار إحياء العلوم، بيروت، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

١١٣- محمد بن جرير الطبري (ت ٣٠١هـ)، تفسير الطبري المسمى جامع البيان في تأويل القرآن، ط٣، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

١١٤- محمد بن جزّي الكلبي (ت ٧٤١هـ)، التسهيل لعلوم التنزيل، ضبطه وصححه: محمد سالم هاشم، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

١١٥- محمد بن حبان البستي (ت ٣٥٤هـ)، صحيح ابن حبان، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

١١٦- محمد بن عبد الله المعروف «بابن العربي» (ت ٥٤٣هـ)، أحكام القرآن، علق عليه: محمد عبد القادر عطا، د.ط، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

١١٧- محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ)، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ط١، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، ١٤٠٤هـ/ ١٩٩٤م.

١١٨- محمد بن مصلح الدين القوجوي (ت ٩٥١هـ)، حاشية محي الدين شيخ زاده على تفسير القاضي البيضاوي، ضبطه وصححه: محمد عبد القادر شاهين، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.

١١٩- محمد بن يوسف «ابن طفيش»، هميان الزاد إلى دار المعاد، د.ط، (د.ن)، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

١٢٠- محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي (ت ٧٤٥هـ)، البحر المحيط في التفسير، تحقيق: عرفان العشا حسونة، د.ط.، دار الفكر، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

١٢١- محمد جمال الدين القاسمي، تفسير القاسمي «المسمى محاسن التأويل»، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، اعتنى به : هشام سمير البخاري، ط١، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

١٢٢- محمد حسين الذهبي، الإسرائيليات في التفسير والحديث، ط٢، دار الإيمان، دمشق، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

١٢٣- محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ط٢، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.

١٢٤- محمد حسين فضل الله، من وحي القرآن، ط٢، دار الملاك، بيروت، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

١٢٥- محمد خليل هراس، دعوة التوحيد، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

١٢٦- محمد رشيد رضا، الوحي المحمدي، ط١٠، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

١٢٧- . . . . ، تفسير القرآن الحكيم المشهور بتفسير المنار، خرج آياته وأحاديثه وشرح غريبه: إبراهيم شمس الدين، ط١ ، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

١٢٨- محمد سعيد رمضان البوطي، كبرى اليقينيات الكونية، ط٨، دار الفكر، دمشق، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.

١٢٩- . . . . ، من روائع القرآن، د. ط، مكتبة الفارابي، دمشق، ١٩٧٥م.

١٣٠- محمد سيد المسير، المدخل لدراسة الأديان، ط١ ، دار الطباعة المحمدية، القاهرة، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

١٣١- محمد إسماعيل إبراهيم، الصلاة كما وردت في الكتاب والسنة وعلى المذاهب الأربعة، د. ط. ، دار الفكر العربي، ١٩٧٧م.

١٣٢- محمد عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، تحقيق: فواز أحمد زمرلي، ط٢، دار الكتاب العربي، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

١٣٣- محمد عبد الله الشرقاوي، الإيمان حقيقته وأثره في النفس والمجتمع، ط٢، دار الجيل، بيروت، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

١٣٤- محمد عبد الله دراز، الدين، د. ط. ، دار الفكر العربي، ١٩٥٢م.

١٣٥- . . . . ، النبأ العظيم «نظرات جديدة في القرآن»، د. ط، دار الثقافة، الدوحة، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

١٣٦- . . . . ، مدخل إلى القرآن الكريم «عرض تاريخي وتحليل مقارن»، ترجمة: محمد عبد العظيم علي، مراجعة: السيد محمد بدوي، د. ط. ، دار المعرفة الجامعية، مصر، ١٩٨٩م.

١٣٧- محمد عبده، رسالة التوحيد، علق عليه: محمد رشيد رضا، بعناية : بسام عبد الوهاب الجابي، دار ابن حزم، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.

١٣٨- . . . . ، تفسير جزء عمّ، د. ط، دار مكتبة الهلال، بيروت، ١٩٨٥م.

١٣٩- محمد عزت الطهطاوي، النصرانية والإسلام، د. ط. ، دار الأنصار، القاهرة، (د. ت).

١٤٠- محمد عزة دروزة، التفسير الحديث، ط٢، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

١٤١- محمد عقلة، النظام الأخلاقي في الإسلام، ط١، مكتبة الرسالة الحديثة، عمان، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م.

١٤٢- محمد علي الصابوني، قبس من نور القرآن الكريم، ط٢، دار القلم، دمشق، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

١٤٣- محمد علي السايس وآخرون، تفسير آيات الأحكام، علق عليه: حسن سويدان، راجعه: محيي الدين ديب مستو، ط٢، دار ابن كثير، دار القادري، دمشق، بيروت، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

١٤٤- محمد علي كوراني، فلسفة الصلاة، د.ط، دار إحياء التراث العربي، (د.ت).

١٤٥- محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، د.ط.، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

١٤٦- محمد قطب، لا إله إلا الله عقيدة وشريعة ومنهاج حياة، ط٢، دار الشروق، القاهرة، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

١٤٧- محمد كريم الكواز، كلام الله «الجانب الشفاهي من الظاهرة القرآنية»، ط١، دار الساقي، بيروت، ٢٠٠٢م.

١٤٨- محمد متولي الشعراوي، معجزة القرآن، د.ط، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة، د.ت.

١٤٩- ....، تفسير الشعراوي، راجع أصله: أحمد عمر هاشم، أخبار اليوم، قطاع الثقافة، مصر، ١٩٩١م.

١٥٠- محمد محمد أبو شهبة، المدخل لدراسة القرآن الكريم، ط٢، (د.ن)، ١٩٧٣م.

١٥١- محمود البستاني، المنهج البنائي في التفسير، ط١، دار الهادي، بيروت، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

١٥٢-محمود بن الشريف، الأديان في القرآن، ط٥، شركة مكتبات عكاظ للنشر، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

١٥٣- محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨هـ)، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

١٥٤- محمود شلتوت، الإسلام عقيدة وشريعة، ط١٦، دار الشروق، ١٤١٢هـ ١٩٩٢م.

١٥٥- . . . . ، من توجيهات الإسلام، ط٧، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

١٥٦- مسلم بن الحجاج النيسابوري (ت ٢٦١هـ)، صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، د.ط.، دار إحياء التراث العربي، بيروت (د.ت).

١٥٧- مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، راجعه: نجوى عباس، ط١، مؤسسة المختار للنشر، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.

١٥٨- موسى محمد علي، التوحيد مفتاح دعوة الرسل، الناشر: محمد نجيب الصابوني، (د.ط)، (د.ن)، (د.ت).

١٥٩- ناصر الدين بن محمد الشيرازي البيضاوي (ت٧٩١هـ)، تفسير البيضاوي «أنوار التنزيل وأسرار التأويل»، وبهامشه: حاشية الكازروني، تحقيق: عبد القادر عرفان العشا، د.ط، دار الفكر، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

١٦٠- نذير حمدان، حكمة القرآن والحضارة، ط١، دار الكلم الطيب، دار ابن كثير، دمشق- بيروت، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

١٦١- وهبة الزحيلي، الأصول العامة لوحدة الدين الحق، ط١، المكتبة العباسية، دمشق، ١٩٧٢م.

١٦٢-. . . . . ، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، ط١، دار الفكر، بيروت، دار الفكر المعاصر، دمشق، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

١٦٣- . . . . ، أخلاق المسلم، علاقته بالمجتمع، ط٢، دار الفكر، دمشق، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.

١٦٤- يحيى بن سلام (ت ٢٠٠هـ)، التصاريف: تفسير القرآن مما اشتبهت أسماؤه وتصرفت معانيه، تحقيق: هند شلبي، د.ط.، الشركة التونسية، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

١٦٥- يوسف القرضاوي، كيف نتعامل مع القرآن العظيم، د.ط.، مركز بحوث السنة والسيرة، جامعة قطر، ١٩٩٧م.

الدوريات والمؤتمرات


١- أحمد علي الإمام، [هيمنة القرآن الكريم وعالميته وخلوده]، القسم الثاني، مجلة نهج الإسلام، العدد ٦٩، السنة ١٨، سوريا، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.


٢- بهجت عبد الرزاق الحباشنة، [كتاب «اليهودية» للدكتور أحمد شلبي في ميزان القرآن الكريم والسنة النبوية]، مجلة مؤتة للبحوث والدراسات، المجلد الثامن عشر، العدد السابع، ٢٠٠٣م.

٣- طه جابر العلواني، [عربية القرآن ومستقبل الأمة القطب]، مجلة إسلامية المعرفة، يصدرها المعهد العالمي للفكر الإسلامي، العدد ٣٥، السنة التاسعة، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

٤- وهبة الزحيلي، [عالمية القرآن الكريم وبديع الزمان سعيد النورسي]، المؤتمر العالمي الرابع لبديع الزمان سعيد النورسي «نحو فهم عصري للقرآن الكريم»، شركة سوزلر للنشر، ٢٠٠٠م.

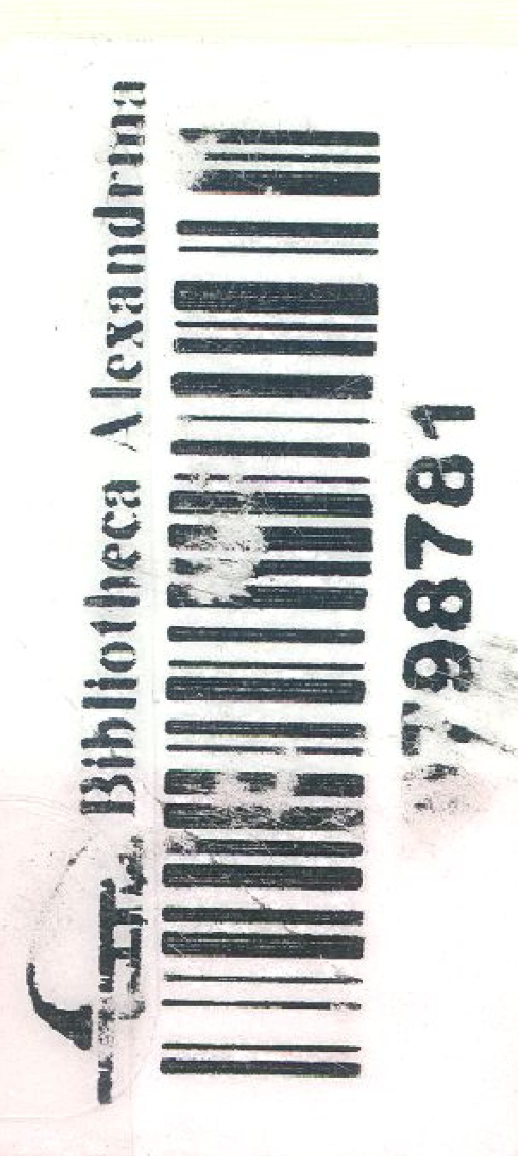
فهرس الموضوعات





علاقة القرآن الكريم
بالكتب الإلهية السابقة





ISBN 9957-07-644-2





www.daralfiker.com